



مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

ISSN: ٥٨٩٤-٢٦١٧ (٢٠٢٠/٦) (١٧) اليمن - تصدر عن جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية -

الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته

د/ عبدالله مؤمن محمد بامؤمن

خدمة المجتمع وأهميتها في ضوء نصوص السنة النبوية

د/ عبدالواسع بن يحيى المعزبي

وقفات مع أعمال وتوجيهات الفاروق السياسية والإدارية

بعد مقتله في ميزان الفقه السياسي الشرعي

أ.د/ غالب عبدالكافي القرشي

السياحة من منظور السنة النبوية

د/ مالك سيف الدين القواسمي

تناصر أهل الباطل في ضوء القرآن الكريم

د/ هيفاء صالح طاهر بوقس

تكامل القراءات وآثاره الدلالية في مسألة الرضاع

د/ بشرى حسن هادي اليمني

مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية - الجمهورية اليمنية

الهيئة الاستشارية

- أ. د. عبدالحق عبدالدائم القاضي
أ. د. عبدالله عثمان المنصوري
أ. د. محمد سنان الجلال
أ. د. عبدالوهاب لطف الديلمي
أ. د. علي غالب المخلافي
أ. د. صالح عبدالله الضبياني
أ. د. محمد يوسف الريبيدي
أ. د. عبدالرحمن إبراهيم الخميسي
أ. د. محمد حاتم المخلافي
أ. د. إبراهيم إبراهيم القريبي
أ. د. يحيى مقبل الصباحي
أ. د. محمد سرحان المحمودي

العدد السابع عشر

المشرف العام

أ.د/ غالب عبدالكافي القرشي

رئيس التحرير

أ.د. يحيى مقبل الصباحي

مدير التحرير

أ.د. عبدالحق غانم القريضي

أعضاء الهيئة الإدارية

أ.د. محمد سرحان المحمودي

أ.د. أسماء غالب القرشي

سكرتير التحرير

أ. ياسر محمد الجعفري

توجه جميع المراسلات إلى مدير التحرير على العنوان التالي :

مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية . الجمهورية اليمنية . صنعاء

هاتف/ ٥/ ٢١٦٨٦٤ ١ ٩٦٧ + جوال: ٠٨ ١٦٦١٩٠٨ ١٦٦٧٧٧ ٩٦٧ + . ص.ب: (١١٢٢٩)

رقم الإيداع في دار الكتب الوطنية - صنعاء : (٣٦٤/٢٠١٣)

الموقع : Web-site: www.uqs.me البريد الإلكتروني: E-mail: info@uqs.me

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ

أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا

أولا ضوابط النشر:

- تقبل المجلة نشر البحوث باللغتين العربية والإنجليزية، والتي تتوفر فيها الشروط الآتية:
١. أن يكون البحث أصيلاً، وتتوافر فيه شروط البحث العلمي المعتمد على الأصول العلمية والمنهجية المتعارف عليها في كتابة البحوث الأكاديمية، وذلك في مجالات (العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية والعلوم التربوية والاجتماعية).
 ٢. أن يكون البحث مكتوباً بلغة سليمة، ومراعياً لقواعد الضبط ودقة الرسوم والأشكال (إن وجدت) ومطبوعاً على الحاسوب، ببنط (١٦) وبخط (Traditional Arabic)، وألا تزيد صفحات البحث عن (٤٠) صفحة متضمنة الهوامش والمراجع، والملخص، وأن لا تقل عن ثلاثين صفحة.
 ٣. أن تكون الجداول والأشكال مدرجة في أماكنها الصحيحة، وأن تشمل العناوين والبيانات الإيضاحية الضرورية، ويُراعى أن لا تتجاوز أبعاد الأشكال والجداول حجم الصفحة.
 ٤. يكتب الباحث ملخصاً للبحث (١٥٠-٢٠٠ كلمة) يوضع أول البحث بحيث يشتمل على قضية/ مشكلة البحث، وهدف البحث، ومنهج البحث، وأهم النتائج التي توصل إليها البحث. ويعمل كلمات مفتاحية للبحث من (٣-٥ كلمات)، تلي ملخص البحث مباشرة.
 ٥. يترجم الباحث عنوان وملخص البحث والكلمات المفتاحية باللغة الإنجليزية، إن كان البحث باللغة العربية، أو يترجم ذلك باللغة العربية إن كان البحث باللغة الإنجليزية، (مع ملاحظة أن تكون الترجمة معتمدة، وليست من البرامج الالكترونية).
 ٦. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قُدم للنشر في أي جهة أخرى، (يقر الباحث بذلك)، أو يعتبر اطلاعه على هذه الضوابط إقراراً بذلك.
 ٧. أن يتوفر في البحث دقة التوثيق، وحسن استخدام المصادر والمراجع، وتثبيت المصادر والمراجع عند أول ذكر لها في البحث، على النحو التالي: اسم المؤلف كاملاً مع اللقب، ثم اسم المصدر أو المرجع، ثم المجلد ورقم الصفحة. وعند إعادة الإشارة لمصادر ومراجع سابقة: يكتب اسم الشهرة للمؤلف أو اسمه مع اللقب والجزء والصفحة، مرجع سابق. أو اسم الكتاب والجزء والصفحة، مرجع سابق، وإذا كان للمؤلف نفسه أكثر من مرجع في البحث فيكتب اسم المرجع المراد مع الجزء والصفحة.

٨. تثبت قائمة المراجع بمعلوماتها الكاملة في نهاية البحث، محتوية على جميع المراجع والمصادر التي استشهد بها في متن البحث، وترتب ترتيباً أبجدياً، وتأتي المراجع العربية أولاً (كتب أو رسائل أو دوريات)، ثم المراجع الأجنبية بعدها (كتب أو رسائل أو دوريات). ويثبت المصدر أو المرجع بذكر اسم المؤلف كاملاً، ثم يوضع تاريخ النشر ورقم الطبعة بين حاصرتين، كهذه () ، يلي ذلك ذكر عنوان المصدر أو المرجع، متبوعاً باسم المحقق أو المترجم (إن وجد)، ثم دار النشر ثم مكان النشر.
٩. عند استخدام الدوريات (المجلات) بوصفها مراجع للبحث: يُذكر اسم صاحب البحث كاملاً، ثم تاريخ النشر بين حاصرتين، ثم عنوان البحث، ثم ذكر اسم المجلة ثم رقم المجلد (إن وجد)، ثم رقم العدد ثم أرقام الصفحات من - إلى، مثلاً: (٥٠-٨٥).
١٠. عند استخدام الرسائل العلمية كمراجع: تبدأ باسم صاحب الرسالة ثم عنوان الرسالة ثم الكلية والجامعة، والبلد، ثم تاريخ مناقشة الرسالة.
١١. الآيات القرآنية الحجم ١٤، بالرسم العثماني. بين قوسين مزهرين كهذه ﴿ ١٤ ﴾. ويجبذ أن توثق الآيات في صلب البحث، بالسورة ورقم الآية.
١٢. الأحاديث النبوية الحجم ١٦، بين قوسين كهذه « مسودين مقاس ١٢ ».
١٣. النقول العلمية تكتب بين علامتي تنصيص " " .
١٤. الحواشي السفلية تكتب بحجم ١٢ غير مسودة، بنفس نوع خط المتن، وتوضع أرقامها بين قوسين كهذه () .
١٥. البحوث باللغة الإنجليزية يكون خط المتن حجم ١٤، والهوامش حجم ٨.
١٦. ترقيم الحواشي كل صفحة مستقلة.

ملاحظات مهمة:

- تحتفظ المجلة بحقوقها في إخراج البحث بما يتناسب وأسلوبها في النشر، (فنيا).
- ترحب المجلة بنشر ما يصلها من ملخصات الرسائل الجامعية التي تم مناقشتها وإجازتها في التخصصات المشار إليها، على أن يكون الملخص من إعداد صاحب الرسالة نفسه.
- الآراء الواردة في الأبحاث التي تنشرها المجلة تعبر عن أصحابها دون تحمل المجلة أية مسؤولية عنها.

ثانياً : إجراءات النشر:

- تُرسل البحوث والدراسات وجميع المراسلات المتعلقة بالمجلة إلى مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، الجمهورية اليمنية - صنعاء، باسم مدير التحرير أو سكرتير التحرير.
- تُرسل ثلاث نسخ من البحث مطبوعة على ورق (A4)، شريطة أن تكون المادة مطبوعة بمسافات مضاعفة ومحفوظة بقرص مدمج (CD)، متوافقاً مع برامج أجهزة الحاسوب ويندوز، وذلك إلى عنوان المجلة، بحيث يظهر في غلاف البحث اسم الباحث ولقبه العلمي، ومكان عمله ، ومجاله.
- يرفق بالبحث موجز للسيرة الذاتية للباحث، متضمناً عنوان الباحث بالتفصيل، وأرقام هواتف المنزل والعمل والفاكس (إن وجد) لكي يسهل التواصل مع الباحث.
- في حالة قبول البحث مبدئياً، يتم عرضه على مُحكِّمين من ذوي الاختصاص في مجال البحث، ويتم اختيارهم بسرية تامة، ولا يُعرض عليهم اسم الباحث أو بياناته، وذلك لإبداء آرائهم حول مدى أصالة البحث، وقيمته العلمية، ومدى التزام الباحث بالمنهجية العلمية المتعارف عليها، ويطلب من المحكم تحديد مدى صلاحية البحث للنشر في المجلة من عدمها.
- يُخَطَّر الباحث بقرار صلاحية بحثه للنشر من عدمها خلال ستة أشهر - على الأكثر - من تاريخ الاستلام للبحث.
- في حالة ورود ملاحظات من المحكِّمين، تُرسل تلك الملاحظات إلى الباحث لإجراء التعديلات اللازمة بموجبها، على أن تعاد للمجلة خلال مدة أقصاها شهر.
- الأبحاث التي لم تتم الموافقة على نشرها لا تعاد إلى الباحثين، ويشعر الباحثون بذلك.
- يمنح أصحاب البحوث المنشورة نسخة واحدة من عدد المجلة المنشور فيه، وثلاث مستلآت من بحوثهم، أو ترسل لهم المستلآت ونسخة من المجلة الكترونياً.
- تؤول جميع حقوق النشر للمجلة.

ثالثاً: رسوم النشر في المجلة:

- تتقاضى المجلة مقابل نشر البحوث المحكمة والمقبولة الرسوم الآتية:
- البحوث المرسلّة من داخل الجمهورية اليمنية (٢٠,٠٠٠) عشرون ألف ريال يمني، أو ما يعادلها.
 - البحوث المرسلّة من داخل الجمهورية اليمنية (٥٠,٠٠٠) خمسون ألف ريال يمني، أو ما يعادلها.
 - البحوث المقدمة من باحثي كليات الجامعة تنشر مجاناً.
 - الرسوم تدفع مع إيصال البحث، وهي غير قابلة للإرجاع بعد البدء بإجراءات التحكيم، سواء تم قبول البحث للنشر أو لم يتم.

الموقع الإلكتروني : www.uqs.me

إيميل المجلة : info@uqs.me

إيميل مدير التحرير : algarizi2012@gmail.com

تلفون وواتس مدير التحرير : ٩٠٨ ١٦١ ٧٧١ ٩٦٧+ الجمهورية اليمنية . صنعاء.

المحتويات

ص	الباحث	الموضوع	م
١١	د/عبدالله مؤمن محمد بامؤمن	الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته (دراسة تأصيلية)	١
٧٣	د/عبدالواسع بن يحيى بن محمد المعزبي الأزدي	خدمة المجتمع وأهميتها في ضوء نصوص السنة النبوية	٢
١٢٧	أ.د/ غالب عبدالكافي القرشي	وقفات مع أعمال وتوجيهات الفاروق السياسية والإدارية بعد مقتله في ميزان الفقه السياسي الشرعي	٣
١٧١	د/مالك سيف الدين القواسمي	السياحة من منظور السنة النبوية	٤
٢٢١	د/هيفاء صالح طاهر بوقس	تناصر أهل الباطل في ضوء القرآن الكريم (حقيقته ووجوده ومنطلقاته ووسائله)	٥
٢٨١	د/ بشرى حسن هادي اليمني	تكامل القراءات وآثاره الدلالية في مسألة الرضاع (دراسة توجيهية)	٦



مجلة جامعة القادسية للعلوم الإسلامية

ISSN: ٥٨٩٤-٢٦١٧ (٢٠٢٠/٦) (١٧) اليمن - العلوم الإسلامية - تصدر عن جامعة القادسية للعلوم الإسلامية - اليمن

الاستشفاع بالنبي ﷺ بعد موته (دراسة تأصيلية)

د/ عبد الله مؤمن محمد بامؤمن
الأستاذ المساعد بجامعة القرآن الكريم
والعلوم الإسلامية - اليمن - فرع المكلا

مستخلص

هدفت هذه الدراسة إلى بيان حقيقة مسألة الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته، ومدى مشروعيتها، وما يترتب على ذلك من اتفاق أو اختلاف، لذا؛ مست الحاجة لهذه الدراسة لبيان التصوير الحقيقي لها. فكانت هذه الدراسة. وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي للوصول إلى ما تهدف إليه الدراسة.

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد لبيان مصطلحات البحث، وخمسة مباحث فيها الإجابة عن التساؤلات عن حياة الأنبياء في قبورهم، وسماعهم لكلام الأحياء، وعلى ما أقدروهم الله - تعالى - عليه، وموقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من ذلك.

وقد خلُصت الدراسة إلى القول بجواز الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته، وهو الذي عليه أئمة الإسلام، خلافاً لقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - .

وانتهت الدراسة إلى خاتمة ذُكرت فيها أهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الاستشفاع حياة الأنبياء في قبورهم بسد الذرائع.

Abstract

This study aimed at explaining the truth of seeking intercession from the Prophet Mohammad- peace be upon him- after his death, its legitimacy, and the consequent agreement or controversy. Therefore, this study is needed for showing the real depiction of it.

This study adopted the descriptive, analytical and inductive approach to reach its objectives.

This study came in a prelude to explaining the research terms. It has five chapters explaining the answers to questions about the lives of the prophets in their graves, and their hearing to the talk of the living, and on what God enabled them to do, in addition to the position of the Shaykh of Islam Ibn Taymiyyah - may God have mercy on him - on that.

The study concluded that it is permissible to seek intercession from the Prophet - peace be upon him - after his death. This is the opinion of imams of Islam, contrary to the opinion of the Sheikh of Islam Ibn Taymiyyah - may God have mercy on him.

The study ended with a conclusion in which the most important results and recommendations were mentioned.

Key words: seeking intercession, the life of the prophets in their graves, Prohibiting pretext (prohibition of what may lead to committing sins).

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ { آل عمران: ١٠٢ }،
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً^٤
 وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ { النساء: ١ }، ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ { الأعراف: ٧٠ - ٧١ }.

أما بعد:

فإن مسألة الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته من المسائل الفقهية^(١) العظيمة التي تتعلق بوسائل استجابة الدعاء، وقضاء الحاجات، شأنها شأن

(١) المسألة الفقهية: هي المسألة المتعلقة بأفعال المكلفين، وتسمى بالمسائل العملية، ولذا؛ عُرِفَ الفقه بأنه: العلم بالأحكام الشرعية العملية، المكتسب من أدلتها التفصيلية، أو هو العلم بأحكام أفعال المكلفين الشرعية دون العقلية. ينظر: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق: د. محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت (١/ ٣٤)، والقاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، العدة في أصول الفقه، تحقيق: د أحمد بن علي بن سير المباركي (١/ ٦٩). ومجال دراستها كتب الفقه.

وأما المسألة العقدية؛ فهي المسألة المتعلقة بالعقيدة، وهي: المسائل الخبرية، وتسمى بالمسائل العلمية، وهي ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، وموضعها أركان الإيمان وما يلحق بها من الغيبات، ومجال دراستها كتب الاعتقاد، ككتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب الاعتقاد للقاضي أبي الحسين ابن أبي يعلى الحنبلي. وينظر تفصيل ذلك عند محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت (١/ ٤٨) وما

اختيار أوقات استجابة الدعاء، ولكن؛ هل سلوك هذا الطريق مشروع؟ وهل ثبت العمل به من أئمة الإسلام؟ ومن الذي اعتبر ذلك من الشرك الأكبر؟ وما مدى صحة هذا الاعتبار؟ خاصة وأن هذا الطلب بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، فهل يسمع النبي - صلى الله عليه وسلم - من ناداه بعد موته؟ وهل يجيبه؟

أهمية البحث:

وبهذا؛ يتبين أهمية بيان هذه المسألة، بحيث توصف مسألة الاستشفاع حق التوصيف؛ ليكون ذلك سبباً للتقارب بين المختلفين واجتماع كلمتهم ووحدة صفهم.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى ما يلي:

- أولاً: تحقيق القول في حياة الأنبياء في قبورهم، وما يقدر على فعله.
- ثانياً: تحقيق القول في سماع الأموات كلام الأحياء.
- ثالثاً: تمييز ما هو من الشرك الأكبر، وما ليس منه.
- رابعاً: بيان منشأ الخلاف في مسألة الاستشفاع.

بعدها، وأحمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى (١٤٠٦هـ) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت (٢٥٨/٢) وما بعدها.

والاستشفاع هو طلب الشفاعة، وهو فعل للمكلف، وكلام العلماء يدور حول مدى مشروعيتها، فهي مسألة فقهية لا عقدية.

وإنما دخل اللبس على البعض في اعتبارها مسألة عقدية، أن الفاعل لها ما حمله على العمل بها إلا بعد الاعتقاد بجوازهما، وليس هذا بشيء؛ لأن كل المسائل الفقهية لا بد فيها من جانب اعتقادي وجانب عملي، ومع ذلك لم تجعل مسائل عقدية، كالصلاة مثلاً لا بد من اعتقاد فرضيتها وكونها لله وحده، ومع ذلك لا يقول أحد: إنها مسألة عقدية، وقيل مثل ذلك في التوسل والأيمان والندور والحلف بغير الله، والحكم بما أنزل الله، والسجود للمخلوق، كلها مسائل فقهية تدرس في كتب الفقه لا في كتب العقيدة.

مشكلة البحث:

هذه المسألة (التي في عنوان البحث) كان للآراء المتباينة عند المتأخرين في تصوُّرها أثرها البالغ في اختلاف الأمة، وذلك حين جعلها البعض من الشرك الأكبر المخرج من الملة، مما كان له أثره السيء على الأمة، ولا بد من وضع العلاج الناجع لها.

الدراسات السابقة وما يمكن أن يضيفه هذا البحث:

- موضوع الاستشفاع على كثرة فتاوي العلماء فيه إلا أن الباحث لم يجد بحثاً مستقلاً في ذلك، وإنما تناقش المسألة ضمن بحوث عامة، قديمة حديثة، ومن ذلك:
١. مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام في اليقظة والنام، للإمام أبي عبد الله محمد بن موسى المراكشي، وليس فيه سوى ذكر قصص من استشفع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - في حياته وبعد مماته.
 ٢. كتب شيخ الإسلام ابن تيمية: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، والرد على البكر، واقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، فقد ورد فيها الكلام على الاستشفاع تبعاً لغيره لا استقلالاً.
 ٣. شفاء السقام في زيارة خير الأنام، للإمام تقي الدين السبكي، وهو كسابقه، الكلام فيه عن الاستشفاع تبع للتوسل والاستغاثة.
 ٤. التوسل أنواعه وأحكامه، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وقد أفرد الكلام على أثر مالك الدار سند ومتناً، إلا أنه كسوابقه، كلامه فيه تبع لمسائل التوسل.
 ٥. مفاهيم يجب أن تصحح، للشيخ محمد بن علوي المالكي، وظاهر من عنوانه أنه تكلم عنه ضمن عدة مفاهيم.
 ٦. الإغاثة بأدلة الاستغاثة، لحسن بن علي السقاف، وهو كسوابقه تكلم عنه على سبيل التبع.
 ٧. هذه مفاهيمنا، لصالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، وهو كسوابقه تكلم عنه على سبيل التبع.

فكان هذا البحث ليزيل الإجمال والتداخل في هذه المسألة، ويميز عما يشابهها من المسائل.

منهج البحث:

اتخذ الباحث في بحثه المنهج التأصيلي الوصفي الاستقرائي التحليلي، بحيث توثق المعلومة بطريقة تهدف إلى التأكد من نسبة الأقوال إلى أصحابها من مصادرها الأصلية، ثم الحكم، مع تفسير بعض النصوص عند الحاجة إلى ذلك، مع النقد والتقويم.

خطة البحث:

جعلت البحث مكوناً من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة:

المقدمة: ذكرت فيها السبب الداعي لكتابة البحث وأهميته وخطة البحث ومنهجه والدراسات السابقة.

التمهيد: يشتمل على التعريف بمصطلحات البحث.

المبحث الأول: حياة الأنبياء في قبورهم.

المبحث الثاني: سماع الأموات كلام الأحياء.

المبحث الثالث: أدلة جواز الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته.

المبحث الرابع: قول شيخ الإسلام ابن تيمية.

المبحث الخامس: مناقشة رأي شيخ الإسلام ابن تيمية.

الخاتمة: فيها أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد

التعريف بمصطلحات البحث

الاستشفاع:

لغة: طلب الشفاعة، مأخوذة من شفّع يشفّع شفاعة وتشفّع: طلب. والشفيع: الشافع، والجمع شفعاء، واستشفّع بفلان على فلان وتشفّع له إليه فشفّعه فيه، استشفّعه طلب منه الشفاعة أي قال له كن لي شافعاً.

والشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره. وشفّع إليه: في معنى طلب إليه. والشافع: الطالب لغيره يتشفّع به إلى المطلوب. يقال: تشفّعت بفلان إلى فلان فشفّعتني فيه، واسم الطالب شفيع، واستشفّعتني إلى فلان أي سألته أن يشفّع لي إليه؛ وتشفّعت إليه في فلان فشفّعتني فيه تشفيعاً.

وقد تكرر ذكرها في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم. والشفّع: الذي يقبل الشفاعة، والشفّع: الذي تقبل شفّاعته^(١).

واصطلاحاً:

يعرف الباحث الاستشفاع بأنه الطلب من النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته بأن يسأل الله - تعالى - في التجاوز عن الذنوب أو قضاء الحاجات.

(١) ينظر: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (١٤١٤ هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، (١٨٤/٨)، وأبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، (١٢٣٨/٣).

المبحث الأول:

حياة الأنبياء - عليهم السلام - في قبورهم

لما كان طلب الشفاعة لا يستقيم إلا من قادر على ذلك، والميت بين أحياء الدنيا مسلوب القدرة، فهل له بعد وضعه في قبره قدرة بحيث تُطلب منه الشفاعة؟ هذه المسألة من مسائل الغيب التي لا تُعلم إلا بالخبر عن الله - تعالى - أو عن رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

وقد وردت الأدلة الصريحة في دلالتها على حياة الأنبياء - عليهم السلام - في قبورهم، وهي أكمل من الحياة الدنيا، لما فيها من النعيم والتكريم الذي هو فوق نعيم الدنيا^(١)، ومن ذلك:

أولاً: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((الأنبياءُ أحياءُ في قبورهم يُصلُّون))^(٢).

ثانياً: وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عِنْدَ الْكَنْبِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ))^(١).

(١) ينظر: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (١٣٩هـ - ١٩٧٥م)، الروح، دار الكتب العلمية - بيروت، ص (٩٨)، وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، مجموع الفتاوى، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر (٣٨٧/٢)، و محمد بن صالح العثيمين، (١٤١٣ هـ) مجموع الفتاوى والرسائل، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السلیمان، دار الوطن - دار الثريا (١٦٨/٣).

(٢) أخرجه أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، (١٤٧/٦) رقم (٣٤٢٥)، وأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجَرْدِي = الخراساني، أبو بكر البيهقي (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، حياة الأنبياء صلوات الله عليهم بعد وفاتهم، تحقيق: الدكتور أحمد بن عطية الغامدي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ص (٦٩) رقم (١)، وصححه أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، (١٢٠/٢).

ومعنى صلاة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في قبورهم ما قاله الإمام المناوي - رحمه الله - " أي يدعو ويثني عليه ويذكره، فالمراد الصلاة اللغوية، وهي الدعاء والثناء، وقيل: المراد الشرعية وعليه القرطبي" (٢).

ثالثاً: وعن أوس بن أبي أوس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبُضَ، وَفِيهِ النَّفْحَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْبَرُوا عَلَيَّ مِنْ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ)). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ - يَفُؤُونَ: بَلِيَتْ -، فَقَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ)) (٣).

(١) أخرجه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، كتاب: الفضائل. باب: من فضائل موسى عليه السلام. (١٨٤٥/٤) رقم (٢٣٧٥).

(٢) ينظر: نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الألويسي (١٣٩٩هـ)، الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ص (٧٧).

(٣) أخرجه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، (٨٤/٢٦) رقم (١٦١٦٢)، وأبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)، السنن، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، كتاب: مناسك الحج. باب: زيارة القبور. (٢٧٥/١) رقم (١٠٤٧)، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، المجتبى من السنن، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، كتاب: الجمعة. باب: إكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة. (٩١/٣) رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها. باب: في فضل الجمعة. (٣٤٥/١) رقم (١٠٨٥)، وأبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، كتاب: الجمعة. باب: الأدعية (١٩١/٣) رقم (٩١٠)، وأبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (١٤١١هـ - ١٩٩٠م)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، كتاب:

فكما دلَّ الحديث السابق على حياة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في قبورهم وأنهم يصلُّون، دلَّ هذا الحديث على أن حياتهم ليست حياة روح منفصل عن الجسد، بل هي حياة متعلقة بالجسد، كما أن هذا الحديث يعضد الحديث السابق أن هذه الحياة المتعلقة بالجسد مستمرة، وذلك أن الصلاة عليه من المسلمين مستمرة لا تنقطع^(١).

رابعاً: وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أُرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ))^(٢).

وإذا كانت الأحاديث السابقة دالة على استمرار حياة الأنبياء - عليهم السلام - فقد دلَّ هذا الحديث على أن النبي -صلى الله عليه وسلم - يسمع ويجيب المسلم برد السلام عليه، وهذا في حق من سلَّم عليه عند قبره، وأما من كان بعيداً عن قبره فإن لله -تعالى - ملائكة تبلغه سلام أمته، وهو ما دلَّ عليه الحديث الخامس الآتي.

خامساً: وعن ابن مسعود -رضي الله عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامُ))^(١).

الجمعة (٤١٣/٣) رقم (١٠٢٩)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وقال أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، في خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، حققه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت (٤٤١/١)، وأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م) في نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار ابن كثير (١٧/٤): "إسناده صحيح".

(١) ينظر هذا المعنى لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (١٣٧٩هـ) في فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت (٢٩/٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤٧٧/١٦) رقم (١٠٨١٥)، وأبو داود، كتاب: مناسك الحج. باب: زيارة القبور. (٢١٨/٢) رقم (٢٠٤١)، وصححه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٢٣/٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٥/٥)، والأرنؤوط في تخريجه لمسند أحمد (٤٧٧/١٦)، وسنن أبي داود (٣٨٤/٣).

قال الحافظ ابن عبد الهادي الدمشقي - رحمه الله - : " فعلم أن ما أمر الله به من ذلك، فإنه يبلغه، وأما من سلم عليه عند قبره، فإنه يرد عليه " (٢).

سادساً: عن ابن مسعود - رضي عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ))، قال: وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ وَيُحَدِّثُ لَكُمْ ، وَوَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ، فَمَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ مِنْ سَيِّئٍ اسْتَعْفَرْتُ اللَّهَ لَكُمْ)) (٣).

(١) أخرجه أحمد (١٨٦/٦) رقم (٣٦٦٦)، والنسائي، كتاب: السهو. باب: السلام على النبي - صلى الله عليه وسلم - (٤٣/٣) رقم (١٢٨٢)، وسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار الصميعة - الرياض، (٢٢٠/١٠) رقم (١٠٥٢٩)، ومحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبُد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، كتاب: الرقائق. باب: الأدعية (١٩٥/٣) رقم (٩١٤)، والحاكم، كتاب: التفسير (٤٥٦/٢) رقم (٣٥٧٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، والألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٢/٦)، والأرنؤوط في تخريجه لمسند أحمد (١٨٣/٦).

(٢) ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م)، الصارم المنكي في الرد على السبكي، تحقيق: عقيل بن محمد بن زيد المقطري اليماني، مؤسسة الريان، بيروت - لبنان، ص (٢٠٠).

(٣) أخرجه أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (٢٠٠٩ م)، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة (٣٠٨/٥) رقم (١٩٢٥)، وقال: " وهذا الحديث آخره لا نعلمه يروى عن عبد الله إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ".

وقال الحافظ أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م) في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار: في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طرية - الرياض، (١٠٥١ / ٢): " ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ".

لكن، قال - رحمه الله - في طرح التريب في شرح التقريب، الطبعة المصرية القديمة - وصورتها دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي (٢٩٧/٣) - وهو من آخر كتبه - : " وروى أبو بكر البزار في مسنده بإسناد جيد "، وقال الحافظ أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (١٤١٤ هـ،

سابعاً: وعن بكر بن عبد الله المزني - رحمه الله - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ وَيُحَدِّثُ لَكُمْ، فَإِذَا أَنَا مُتُّ كَانَتْ وَفَاتِي خَيْرًا لَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ، فَإِنْ رَأَيْتُ خَيْرًا حَمَدْتُ اللَّهَ، وَإِنْ رَأَيْتُ شَرًّا اسْتَعْفَرْتُ لَكُمْ))^(١).

١٩٩٤ م) في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة (٢٤/٩): " رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح "

وتعقبهم أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية (٤٠٥/٢) بقوله: " وأما قوله في " طرح التثريب في شرح التثريب: " إسناده جيد ". فهو غير جيد عندي، وكان يكون ذلك لولا مخالفة عبد المجيد للثقات على ما سبق بيانه، فهي علة الحديث، ...، وجملة القول أن الحديث ضعيف بجمع طرقه "أ.هـ.

(١) أخرجه القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي البصري ثم البغدادي المالكي الجهضمي (١٣٩٧)، فضل الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم -، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت ص (٣٩)، رقم (٢٦)، وقال الحافظ ابن عبد الهادي في الصارم المنكي ص (٢٣-٢٠٤): " هذا خبر مرسل، ...، إسناده صحيح إلى بكر المزني، وبكر من ثقات التابعين وأئمتهم"، وقال الألباني - رحمه الله - في السلسلة الضعيفة (٤٠٥/٢ - ٤٠٦): " ورجاله كلهم ثقات رجال الشيخين "، ...، فلعل هذا الحديث الذي رواه عبد المجيد موصولاً عن ابن مسعود أصله هذا المرسل عن بكر، أخطأ فيه عبد المجيد فوصله عن ابن مسعود ملحقاً بإياه بحديثه الأول عنه. والله أعلم، ...، وجملة القول أن الحديث ضعيف بجمع طرقه، وخيرها حديث بكر بن عبد الله المزني وهو مرسل، وهو من أقسام الحديث الضعيف عند المحدثين، ثم حديث ابن مسعود، وهو خطأ "أ.هـ.

قلت: حكم الشيخ الألباني - رحمه الله - على الأسانيد لا غبار عليه، ولكن تبقى عليه ملاحظتان:

الأولى: اعتباره أن الحديث مما تفرد به عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد عن بقية تلاميذ سفيان، ولكن صنع الإمام البزار في روايته للحديث يشير إلى أنه روى حديثين بسند واحد، الحديث الأول رواه كما رواه بقية الرواة عن سفيان موافقاً لهم، والحديث الثاني حديث مستقل يرويه عن عبد المجيد عن سفيان، ولهذا فصل بينهما البزار، فساق الحديث الأول، ثم قال: " قال: وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " حياتي خير لكم ...، للدلالة على أنهما حديثان بسند واحد، ولو كانا حديثاً واحداً لجعل لفظهما واحداً، فلما فصل بينهما دل على أنه يروي

وكون الأنبياء أحياء في قبورهم على ما دلَّت عليه هذه الأحاديث هو ما نص عليه الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - حيث قال: " الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون، وأن الميت يعلم بزائره يوم الجمعة بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس "(١).
وقال الإمام الشوكاني - رحمه الله -: " وقد ذهب جماعة من المحققين إلى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيٌّ بعد وفاته، وأنه يُسَرُّ بطاعات أمته، وأن الأنبياء لا يبلون، مع أن مطلق الإدراك كالعلم والسمع ثابت لسائر الموتى "(٢).
سادساً: وعن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَرِحُوا وَاسْتَبَشَرُوا، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ هَذَا فَضْلُكَ وَرَحْمَتُكَ فَأَتِمِّمْ

الحديثين بسند واحد، ولهذا صحح إسناده أو جوده من سبق ذكرهم، لكون راويه من رجال مسلم ووثقه جمع من الأئمة، ومع ذلك فالحديث الثاني ضعيف لا لتفرد عبد المجيد عن الثقات، وإنما لكونه صدوق سيء الحفظ.
الثانية: وقوفه عند التضعيف مع وجود الطرق التي تقويه، ومعلوم عند أهل الحديث أن الحديث إذا كانت له طرق ليست شديدة الضعف، بأن يكون فيها صدوق سيء الحفظ، وجاء من طريق مرسل، وله شواهد تؤيد معناه فإنه يكون صحيحاً أو حسناً لغيره. ينظر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (١٤٢٢هـ) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير بالرياض ص (١٢٩ - ١٣٠).

= وإذا نظرنا فيمن ضعف الألباني الحديث لأجله، وهو (عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد)، وهو سيء الحفظ، فحديثه منجبر بالشواهد، وأثر بكر المزني مرسل صحيح الإسناد، فهو شاهد قوي له، وكذا الأحاديث السابقة في هذا البحث، وحديث أبي أيوب الأنصاري بعده، كلها شواهد له؛ لأن مضمونها واحد، وعلى هذا؛ فالحديث أقل أحواله أن يكون حسناً لغيره.

(١) ينظر: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (١٤٠٨هـ)، العقيدة رواية أبي بكر الخلال، حقق: عبد العزيز عز الدين السيروان، دار قتيبة - دمشق ص (١٢١).

(٢) ينظر: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)، نيل الأوطار، تحقيق: عصام الدين الصباطي، دار الحديث، مصر (٢٩٥/٣).

نِعْمَتِكَ عَلَيْهِ وَأَمْتُهُ عَلَيْهَا، وَيُعْرَضُ عَلَيْهِمْ عَمَلُ الْمَسِيءِ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَلْهِمَّهُ عَمَلًا تَرْضَى بِهِ عَنْهُ وَتُقَرِّبُهُ إِلَيْكَ))^(١).

وفي هذا دلالة على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو لأمته ويستغفر لها؛ لأنه إذا كان الأقارب والعشائر يدعون لأقربائهم من أهل الدنيا بإتمام النعمة على قريبهم الموفق للخير، ويدعون للمسيء بالإلهام لفعل العمل الصالح الذي يرضي الله - تعالى - به عنه، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - أعظم شفقة ورحمة بأمته، فهو أولى بذلك من الأقرباء، وقد أخبرنا أن أعمالنا معروضة عليه، فلا شك أنه سيدعو لنا بقبول الصالحات، ومغفرة السيئات.

وإذا ثبت أن الأنبياء - عليهم السلام - أحياء في قبورهم يصلون، وهو محتمل الصلاة اللغوية من الدعاء والثناء والصلاة الشرعية، وأنهم يدعون ويستغفرون، فليس ثمة مانع من طلب الدعاء منهم بقضاء الحاجات من الله - تعالى -، ومغفرة الذنوب؛ لأن ذلك مما أخبرنا الله - تعالى - أنه أقدرهم عليه؛ فعلم بهذا أن قول القائل: إن هذا

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٩/٤) رقم (٣٨٨٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٧/٢): " وفيه مسلمة بن علي وهو ضعيف "

وأخرجه أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المرزوي، الزهد والرفائق، حقق: حبيب الرحمن الأعظم، دار الكتب العلمية - بيروت ص (١٤٩) رقم (٤٤٣)، موقوفاً على أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - ، قال الشيخ الألباني - رحمه الله - في السلسلة الصحيحة (٢٥٧/٦): " قلت: إسناده الموقوف صحيح، وكونه موقوفاً لا يضر، فإنه يتحدث عن أمور غيبية لا يمكن أن تقال بالرأي، فهو في حكم المرفوع يقيناً، ولا سيما وقد روي مرفوعاً "

قلت: الصواب: إن في إسناده انقطاع بين ثور بن يزيد وأبي رهم السمعي، فقد قال الألباني نفسه في السلسلة الصحيحة (٢٦٤/٦): " ورجاله ثقات؛ لكنه منقطع بين ثور بن يزيد وأبي رهم "، ومع ذلك صححه بقوله: " وبالجملة فالحديث صحيح "

وأخرجه أحمد (١١٤/٢٠) رقم (١٢٦٨٣) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -، وفي إسناده مبهم، وبقية رجاله ثقات، وهو شاهد قوي لأثر أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - . فالحديث صحيح بشواهده.

من طلب ما لا قدرة لهم عليه، قول غير صحيح، وليس مع المانع من ذلك إلا القول بأن ذلك ذريعة إلى الشرك^(١).

استشكال:

هذه الأحاديث الدالة على عرض الأعمال على النبي - صلى الله عليه وسلم - في قبره، يشكل عليها حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - ((إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ، وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَأَقُولُ: هُمْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ عَيَّرَ بَعْدِي))^(٢).

فكيف تعرض عليه الأعمال، ثم يقال له: ((إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ))؟

جوابه^(٣):

أنه لا تعارض بين أحاديث عرض الأعمال على النبي - صلى الله عليه وسلم - في قبره وبين قوله: ((لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ))؛ لأن تلك الأحاديث دالة بعمومها

(١) ينظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحراني (١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية (٣٣٠/١).

(٢) أخرجه محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، كتاب: الرقائق. باب: في الحوض. (٢٤٠٦/٥)، رقم (٦٢١٢)، ومسلم، كتاب: الفضائل. باب: إثبات حوض نبينا - صلى الله عليه وسلم - وصفاته. (١٧٩٣/٤)، رقم (٢٢٩٠).

(٣) ينظر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت (١/١٩٥)، وابن حجر، فتح الباري (١١/٣٨٥)، ومحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، شرح موطأ مالك، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة (١/٩٧).

على أن عموم الأمة تعرض أعمالها على النبي - صلى الله عليه وسلم - في قبره، وأن هناك أقواماً مستثنون من ذلك العموم، وهم من أحدثوا وبدلوا، فهؤلاء لا تعرض أعمالهم عليه في قبره، ولهذا لا يعرفهم يوم القيامة عند حوضه حين يؤخذون.

وسواء كان هؤلاء ممن كانوا في حياته - صلى الله عليه وسلم - كالمنافقين، لعلمه بهم أيام حياته وإظهارهم الإسلام، وهم المقصودون بقوله: ((أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي))، أو من أحدث في دين الله - تعالى - بعد وفاته، وهؤلاء يعرفهم يوم القيامة أنهم من أمتهم بما عليهم من الغرة والتحجيل، قال الإمام ابن عبد البر - رحمه الله -: " وكل من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله ولم يأذن به، فهو من المطرودين عن الحوض والمباعدين. والله أعلم.

وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم مثل: الخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، وجميع أهل الزيغ والبدع فهؤلاء كلهم مبدلون.

وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله، وإذلالهم، كلهم مبدل يظهر على يديه من تغيير سنن الإسلام أمر عظيم، فالناس على دين الملوك" (١). أ.هـ.

وورودهم على الحوض، ثم الحيلولة بينهم وبينه لزيادة الحسرة والنكال؛ إذ بمناداته - صلى الله عليه وسلم - لهم يحصل عندهم رجاء النجاة، وقطع ما يرجى أشد في النكال والحسرة من قطع ما لا يرجى، وكل ذلك زيادة في تنكيلهم بهم.

(١) ينظر: ابن عبد البر، الاستذكار (١/١٩٥)، مرجع سابق.

المبحث الثاني:

سماع الأموات لكلام الأحياء

قد وردت الأدلة الكثيرة الدالة على سماع الأموات لكلام الأحياء، ومن ذلك:

أولاً: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن أبي طلحة - رضي الله عنه - أن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - أمرَ يومَ بدرٍ بأربعَةِ وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فُقِدُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرِ حَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرِصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمَّا كَانَ يَبْدُرُ الْيَوْمَ الثَّلَاثِ، أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: مَا نُرَاهُ إِلَّا يَنْطَلِقُ لِيَقْضِيَ حَاجَتَهُ، حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ، وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: ((يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ أَيْسُرْكُمْ أَنْكُمْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟))، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا، فَقَالَ: ((ي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ))^(١).

"فهذا الحديث الصحيح أقسم فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الأحياء الحاضرين ليسوا بأسمع لما يقول - صلى الله عليه وسلم - من أولئك الموتى بعد ثلاث، وهو نص صحيح صريح في سماع الموتى، ولم يذكر - صلى الله عليه وسلم - في ذلك تخصيصاً"^(٢).

ثانياً: عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: وقف النبي - صلى الله عليه وسلم - على قليب بدر فقال: ((هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟)). ثم قال: ((إِنَّهُمْ الْآنَ

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي. باب: قتل أبي جهل. (١٤٦١/٤) رقم (٣٧٥٧)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعود منه. (٢٢٠٢/٤) رقم (٢٨٧٣).

(٢) ينظر: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان (١٢٩/٦ - ١٣٠).

يَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ)). فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَقَالَتْ: إِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((إِنَّهُمْ الْآنَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ)). ثُمَّ قَرَأْتُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ {النمل: ٨٠}. حَتَّى قَرَأْتُ الْآيَةَ^(١).

ثالثاً: وعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ نِعَالِهِمْ ، أَنَاهُ مَلَكَانِ ، فَيَقْعَدَانِهِ ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ، لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقَالُ: انظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ))^(٢).

" وقد رأيت في هذا الحديث الصحيح تصريح النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن الميت في قبره، يسمع قرع نعال من دفنوه إذا رجعوا، وهو نص صحيح صريح في سماع الموتى، ولم يذكر - صلى الله عليه وسلم - فيه تخصيصاً"^(٣).

رابعاً: وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُلَّمَا كَانَتْ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبُقْعِ ، فَيَقُولُ: ((السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ مُتَوَاعِدُونَ، غَدًا وَمُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْعَرْقَدِ)).

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي. باب: قتل أبي جهل. (٤/١٤٦٢) رقم (٣٧٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز. باب: الميت يسمع خفق النعال. (١/٤٤٨) رقم (١٢٧٣)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٤/٢٢٠٠) رقم (٢٨٧٠).

(٣) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان (٦/١٣٠)، مرجع سابق.

وفي رواية عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((قُولِي السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَفْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ))^(١).

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - بعد أن نقل الآثار على سماع الأموات للأحياء: " والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به " ^(٢).

وقال أيضاً - رحمه الله - : " ويكفي في هذا تسمية المسلم عليهم زائراً، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال زاره، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك السلام عليهم أيضاً، فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علم النبي - صلى الله عليه وسلم - أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية.

وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، وإذا صلى الرجل قريباً منهم شاهدوه وعلموا صلاته وغبطوه على ذلك " ^(٣).

وقال العلامة الشنقيطي - رحمه الله - : " وخطابه - صلى الله عليه وسلم - لأهل القبور بقوله: ((السلام عليكم))، وقوله: ((وإنا إن شاء الله بكم))، ونحو ذلك

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز. باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها. (٢/ ٦٦٩) رقم (٩٧٤).

(٢) ينظر: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله الشهير بابن قيم الجوزية (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، الروح، دار الكتب العلمية - بيروت ص (٥).

(٣) ينظر: ابن القيم، الروح (٨)، مرجع سابق.

يدل دلالة واضحة على أنهم يسمعون سلامه؛ لأنهم لو كانوا لا يسمعون سلامه وكلامه لكان خطابه لهم من جنس خطاب المعدوم، ولا شك أن ذلك ليس من شأن العقلاء، فمن البعيد جداً صدوره منه - صلى الله عليه وسلم -^(١).

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله- أيضاً: "وإذا رأيت هذه الأدلة الصحيحة الدالة على سماع الموتى، فاعلم أن الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ {النمل: ٨٠}، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ {فاطر: ٢٢} لا تخالفها، و" أن التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية واستقراء القرآن أن معنى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، لا يصح فيه من أقوال العلماء، إلا تفسيران: الأول: أن المعنى: إنك لا تسمع الموتى، أي: لا تسمع الكفار الذين أمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدى وانتفاع؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء، فختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم الغشاوة، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع.

ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا، أنه جل وعلا قال بعده: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ﴾ {النمل: ٨١}.

فاتضح بهذه القرينة أن المعنى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، أي: الكفار الذين هم أشقياء في علم الله إسماع هدى وقبول للحق، ما تسمع ذلك الإسماع وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم، فمقابلته جل وعلا بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها لمن يؤمن بآياته، فهو مسلم دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية موت الكفر والشقاء، لا موت مفارقة الروح للبدن، ولو كان المراد بالموت في قوله: ﴿إِنَّكَ

(١) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان (٦/١٣٢)، مرجع سابق.

لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴿١﴾، مفارقة الروح للبدن لما قابل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ بقوله: ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ {النمل: ٨١}، بل لقابله بما يناسبه، كأن يقال: إن تسمع إلا من لم يموت، أي: يفارق روحه بدنه، كما هو واضح.

وإذا علمت أن هذه القرينة القرآنية دلت على أن المراد بالموتى هنا الأشقياء، الذين لا يسمعون الحق سماع هدى وقبول، فاعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ {الأنعام: ٣٦}، وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى في قوله:

﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾: الكفار، ويدل له مقابلة الموتى في قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ بالذين يسمعون في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، ويوضح ذلك قوله تعالى قبله:

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ

فَتَأْتِيهِمْ بَيَاتٍ﴾ {الأنعام: ٣٥} أي: فافعل، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ {الأنعام: ٣٥}، وهذا واضح فيما ذكرنا. ولو كان

يراد بالموتى من فارقت أرواحهم أبدانهم لقابل الموتى بما يناسبهم؛ كأن يقال: إنما يستجيب الأحياء، أي: الذين لم تفارق أرواحهم أبدانهم، وكقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ {الأنعام: ١٢٢}.

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا﴾، أي: كافرًا فأحييناه، أي: بالإيمان والهدى، وهذا لا نزاع فيه، وفيه إطلاق الموت وإرادة الكفر بلا خلاف، وكقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ {يس: ٧٠}، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ {فاطر: ٢٢} أي: لا يستوي المؤمنون والكافرون.

ومن أوضح الأدلة على هذا المعنى، أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ الآية، وما في معناها من الآيات كلها، تسلية له - صلى الله عليه وسلم - لأنه يحزنه عدم

إيمانهم، كما بينه تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ {الأنعام: ٣٣}، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ {الحجر: ٩٧}، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ {الحجر: ٨٨}، الآية، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ {المائدة: ٦٨}، وكقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ {فاطر: ٨}، وقوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْكَ بِخَبْرٍ نَفْسَكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ {الكهف: ٦}، وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِكَ الْآلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ {الشعراء: ٣}، إلى غير ذلك من الآيات.

ولما كان يحزنه كفرهم وعدم إيمانهم، أنزل الله آيات كثيرة تسلية له - صلى الله عليه وسلم - بين له فيها أنه لا قدرة له - صلى الله عليه وسلم - على هدى من أضله الله، فإن الهدى والإضلال بيده جل وعلا وحده، وأوضح له أنه نذير، وقد أتى بما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها، وأن هداهم وإضلالهم بيد من خلقهم "

" والثانية منهما: قوله تعالى في سورة «فاطر»: ﴿ إِنْ أَلَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ {فاطر: ٢٢}، وآية «فاطر» هذه كآية «النمل» و «الروم» المتقدمتين، لأن المراد بقوله فيها: من في القبور الموتى، فلا فرق بين قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ ، وبين قوله: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾؛ لأن المراد بالموتى ومن في القبور واحد، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنْتَ اللَّهُ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ {الحج: ٧} أي: يبعث جميع الموتى من قبر منهم ومن لم يقبر، وقد دلت قرائن قرآنية أيضاً على أن معنى آية «فاطر» هذه كمعنى آية «الروم» ، منها قوله تعالى قبلها: ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ {فاطر: ١٨} الآية؛ لأن معناها: لا ينفع إنذارك إلا من هداه الله ووقفه، فصار ممن يخشى ربه بالغيب ويقم الصلاة، ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ، أي: الموتى، أي: الكفار الذين سبق لهم الشقاء كما تقدم. ومنها قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ {فاطر: ١٩} أي: المؤمن والكافر.

وقوله تعالى بعدها: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ {فاطر: ٢٢} أي: المؤمنون والكفار. ومنها قوله تعالى بعده: ﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ {فاطر: ٢٣} أي: ليس الإضلال والهدى بيدك ما أنت إلا نذير، أي: وقد بلغت.

التفسير الثاني: هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل، ولكن المراد بالسمع المنفي في قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع صاحبه به، وأن هذا مثل ضرب للكفار، والكفار يسمعون الصوت، لكن لا يسمعون سماع قبول بفقده واتباع، كما قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِنْسِيِّ إِذْ يُعَقِّبُ مَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ {البقرة: ١٧١} فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفي عنهم جميع أنواع السماع، كما لم ينفي ذلك عن الكفار، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذين ينتفعون به، وأما سماع آخر فلا، وهذا التفسير الثاني جزم به واقتصر عليه أبو العباس ابن تيمية رحمه الله^(١).

وهذا التفسير الأخير دلت عليه أيضاً آيات من كتاب الله، جاء فيها التصريح بالبكم والصمم والعمى مسنداً إلى قوم يتكلمون ويسمعون ويصرون، والمراد بصممهم صممهم عن سماع ما ينفعهم دون غيره، فهم يسمعون غيره، وكذلك في البصر والكلام، وذلك كقوله تعالى في المنافقين: ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فُهُمَّ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ {البقرة: ١٨}، فقد قال فيهم: صم بكم مع شدة فصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، كما صرح به في قوله تعالى فيهم: ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ {المنافقون: ٤} أي: لفصاحتهم، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُواكُمْ بِالْسِّنَةِ حِدَادٍ ﴾ {الأحزاب: ١٩}، فهؤلاء الذين إن يقولوا تسمع لقولهم، وإذا ذهب الخوف سلقوا المسلمين بالسننة حداد، هم الذين قال الله فيهم: صم بكم عمي، وما ذلك إلا أن صممهم وبكمهم وعماهم بالنسبة إلى شيء خاص، وهو ما ينتفع به من الحق، فهذا وحده هو الذي صموا عنه فلم يسمعه، وبكموا عنه فلم ينطقوا به، وعموا عنه فلم يروه مع أنهم يسمعون غيره ويصرونه،

(١) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٤/٢٩٥-٢٩٦)، مرجع سابق.

وينطقون به، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية {الأحقاف: ٢٦} وهذا واضح كما ترى .
 إذا تبين ما سبق؛ " فاعلم أن الذي يقتضي الدليل رجحانه هو أن الموتى في قبورهم يسمعون كلام من كلمهم، وأن قول عائشة - رضي الله عنها - ومن تبعها: إنهم لا يسمعون، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ﴾ ، وما جاء بمعناها من الآيات غلط منها - رضي الله عنها، ومن تبعها "، وذلك أن " سماع الموتى ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في أحاديث متعددة ثبوتاً لا مطعن فيه، ولم يذكر - صلى الله عليه وسلم - أن ذلك خاص بإنسان ولا بوقت، وأن النصوص الصحيحة عنه - صلى الله عليه وسلم - في سماع الموتى لم يثبت في الكتاب ولا في السنة شيء يخالفها، وتأويل عائشة - رضي الله عنها - بعض الآيات على معنى يخالف الأحاديث المذكورة، لا يجب الرجوع إليه؛ لأن غيره في معنى الآيات أولى بالصواب منه، فلا ترد النصوص الصحيحة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بتأويل بعض الصحابة بعض الآيات.

وإذا ثبت بذلك أن سماع الموتى ثابت عنه - صلى الله عليه وسلم - من غير معارض صريح، علم بذلك رجحان ما ذكرنا، أن الدليل يقتضي رجحانه.
 وأما " تأويل عائشة - رضي الله عنها - بعض آيات القرآن، فلا ترد به روايات الصحابة العدول الصحيحة الصريحة عنه - صلى الله عليه وسلم -، ويتأكد، ذلك بثلاثة أمور:
الأول: هو ما ذكرناه من أن رواية العدل لا ترد بالتأويل.

الثاني: أن عائشة - رضي الله عنها - لما أنكرت رواية ابن عمر - رضي الله عنها - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((إنهم ليسمعون الآن ما أقول))، قالت: إن الذي قاله - صلى الله عليه وسلم - : ((إنهم ليعلمون الآن أن الذي كنت أقول لهم هو الحق))، فأنكرت السماع ونفته عنهم، وأثبتت لهم العلم، ومعلوم أن من ثبت له العلم صح منه السماع، كما نبّه عليه بعضهم.

الثالث: هو ما جاء عنها مما يقتضي رجوعها عن تأويلها، إلى الروايات الصحيحة، فقد قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : " ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحاق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد، عن عائشة مثل حديث أبي طلحة، وفيه: ((ما أنتم بأسمع لما أقول منهم))، وأخرجه أحمد بإسناد حسن، فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة؛ لكونها لم تشهد القصة^(١)، انتهى منه.

واحتمال رجوعها لما ذكر قوي؛ لأن ما يقتضي رجوعها ثبت بإسنادين، قال ابن حجر: إن أحدهما جيد، والآخر حسن. ثم قال ابن حجر: قال الإسماعيلي: كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم، ما لا مزيد عليه؛ لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه أو تخصيصه، أو استحالته، انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر^(٢). انتهى كلام الإمام الشنقيطي - رحمه الله - (٣).

(١) قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : " وقال السهيلي عائشة لم تحضر قول النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فغيرها ممن حضر أحفظ للفظ النبي - صلى الله عليه وسلم - ". ينظر: ابن حجر، فتح الباري (٣ / ٢٣٤)، مرجع سابق.

(٢) ينظر: ابن حجر، فتح الباري (٧ / ٣٠٤)، مرجع سابق.

(٣) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان (٦ / ١٢٤ - ١٣٦). مرجع سابق.

تنبيه: هذا الذي بيَّنه الإمام الشنقيطي - رحمه الله - ذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله - أنه قول الجمهور. ينظر: فتح الباري (٣ / ٢٣٤)، مرجع سابق.

المبحث الثالث:

أدلة جواز الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته

قد ورد ما يدل على جواز الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم -، ومن ذلك:

أولاً: قول الله - تعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ {النساء: ٦٤}.
فبيّن الله - تعالى - في هذه الآية أن من ظلم نفسه بالوقوع بالمخالفة فجاء تائباً، مستغفراً، وطلب من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يستغفر له، فإن الله - تعالى - يستجيب له، ويقبل توبته ويغفر ذنبه رحمة منه - سبحانه - .
وهذه الآية وإن كانت في حال حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا، فليس ما يمنع من طلب ذلك منه - صلى الله عليه وسلم - بعد مماته؛ لأنه حيٌّ في قبرة، يدعو ويسمع ويجيب، كما تقدم بيان ذلك.

ولهذا؛ رأينا أئمة الإسلام يذكرون عند تفسير هذه الآية قصة العتيبي مقرّين بجواز ما فيها، ولو كان ما فيها شركاً أو ذريعة للشرك لما استحسّنوه.

وقصة العتيبي هي التي نقلها فيها الحافظ ابن كثير - رحمه الله - فقال: " وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتيبي، قال: كنت جالساً عند قبر النبي - صلى الله عليه وسلم -، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد جئتك مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني فرأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - في النوم، فقال: يا عتبي، الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له^(١).

قال الإمام النووي - رحمه الله - : " ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه - سبحانه وتعالى -، ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي مستحسنين له ... " ^(٢)، ثم ساق القصة.

وحتى لا يبادر مُعْتَرِضٌ بالقول بأن القصة لا يصح سندها^(٣)، نقول: هو كما قال، ولكن الأئمة لا يحتجون بها، وإنما يجيزون ما فيها ويستحسنونه، ولو كان

(١) ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (١٤١٩ هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت (٣٠٦/٢)، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (١٤١٠ هـ)، شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت (٦٠/٦)، وأبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (١٩٩٤ م)، الذخيرة، تحقيق: محمد حجي، وسعيد أعراب، ومحمد بو خيزة، دار الغرب الإسلامي - بيروت (٣٧٦/٣)، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد البغدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م)، المدخل، دار الفكر (٢٢٨/٣)، وأبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م)، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المنزي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (٢١٤/٤)، وأبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م)، البيان في مذهب الإمام الشافعي، تحقيق: قاسم محمد النوري، دار المنهاج - جدة (٣٧٩/٤)، وأبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (١٩٩٧ م)، المجموع شرح المذهب، دار الفكر - بيروت (٢٧٤/٨)، وعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد (١٤٠٥ هـ)، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار الفكر - بيروت (٥٩٩/٣)، وإبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م)، المبدع في شرح المقنع، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (٢٣٦/٣)، وغيرهم كثير.

(٢) ينظر: النووي، المجموع (٢٧٤/٨)، مرجع سابق.

(٣) قال الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي - رحمه الله - : " وفي الجملة: ليست هذه الحكاية المنكورة عن الأعرابي مما يقوم به حجة، وإسنادها مظلم مختلف، ولفظها مختلف أيضاً، ولو كانت ثابتة

معارضاً للكتاب والسنة وفهم السلف، أو أنه شرك، لما تتابعون على استحسانه وإجازته، وفرق بين الاحتجاج بها وبين إجازة ما فيها، فالاحتجاج إنما يكون بالكتاب والسنة والإجماع، والمنامات ليست مصدراً من مصادر التشريع.

وأما إجازتها فإن ذلك يعني الحكم من أئمة الإسلام على أن ما فيها لا يتعارض مع الكتاب والسنة والإجماع، بل يتوافق معها، ولذلك استحسنا ما فيها.

ثانياً: عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلًا ضَرِيراً أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي، فَقَالَ: ((إِنْ شِئْتَ أَخْرَجْتُ ذَلِكَ، فَهُوَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ)). فَقَالَ: ادْعُهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، وَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ، وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِ، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ))^(١).

لم يكن فيها حجة على المطلوب المعترض، ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية، ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم وبالله التوفيق". ينظر: ابن عبد الهادي، الصارم المنكي ص (٢٥٣).

قلت: الأئمة لم يحتجوا بهذه القصة، وإنما أجازوا واستحسنوا ما فيها، وفرق بين الاحتجاج بها، وبين إجازة ما فيها واستحسانه.

(١) أخرجه أحمد (٤٧٨/٢٨) رقم (١٧٢٤٠)، ومحمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م)، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، أبواب الدعوات عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٥٦٩/٥) رقم (٣٥٧٨)، قال: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها. باب: ما جاء في صلاة الحاجة. (٤٤١/١) رقم (١٣٨٥)، وابن خزيمة، كتاب: الصلاة، باب: صلاة الترغيب والترهيب (٢٢٥/٢) رقم (١٢١٩)، والحاكم كتاب: الوتر (٤٥٨/١) رقم (١١٨٠)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين"، وصححه ابن حجر في نتاج الأفكار (١٥٢/٥)، والأرنؤوط في تحريج المسند (٤٧٨/٢٨).

فأنت ترى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - علمه دعاء يدعو به، ومن ضمن هذا الدعاء أن يقول: " يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتُقْضَى، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ " .

فهذا اللفظ ظاهر أنه توجه بالنداء مباشرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ليشفع له عند ربه ليقضي حاجته، ثم توجه إلى الله أن يقبل فيه شفاعته نبيه - صلى الله عليه وسلم - فيه.

وهذا وإن كان في حال حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - فظايره أنه دعا بذلك الدعاء في غير حضرة النبي - صلى الله عليه وسلم -، والغائب حكمه حكم الميت من عدم الحضور، وقد سبق أن الملائكة تبلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - صلاة أمته عليه وتعرض أعمالهم عليه، فدعا له النبي - صلى الله عليه وسلم - عنده^(١).

ثالثاً: وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَاجَةٍ لَهُ، فَكَانَ عُثْمَانُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْظُرُ فِي حَاجَتِهِ، فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: ائْتِ الْمِيضَاءَ فَمَوْضِعًا، ثُمَّ ائْتِ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّكَ فَيَقْضِي لِي حَاجَتِي، وَتَدْكُرُ حَاجَتَكَ، وَرُحِّ إِلَيَّ حَتَّى أَرُوحَ مَعَكَ، فَأَنْطَلِقَ الرَّجُلُ، فَصَنَعَ مَا قَالَ لَهُ عُثْمَانُ، ثُمَّ أَتَى بَابَ عُثْمَانَ، فَجَاءَ الْبُؤَابُ حَتَّى أَخَذَ بِيَدِهِ، فَأَدْخَلَهُ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى الطَّنْفِيسَةِ، وَقَالَ: حَاجَتُكَ؟ فَذَكَرَ حَاجَتَهُ، فَقَضَاهَا لَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا ذَكَرْتَ حَاجَتَكَ حَتَّى كَانَتْ هَذِهِ السَّاعَةُ، وَقَالَ: مَا كَانَتْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ، فَأَتَيْنَا، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ، فَقَالَ لَهُ:

(١) ينظر: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسيني، الكحلاني ثم الصنعاني (١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)، التنوير شرح الجامع الصغير، تحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض (١٤٩/٣).

جَزَاكَ اللَّهُ حَيْرًا، مَا كَانَ يَنْظُرُ فِي حَاجَتِي، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيَّ حَتَّى كَلَّمْتُهُ فِيَّ، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: وَاللَّهِ، مَا كَلَّمْتُهُ وَلَكِنْ شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَأَتَاهُ ضَرِيرٌ، فَشَكَا عَلَيْهِ ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَقَالَ: لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : ((فَتَصَبِّرُ)) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ، وَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : ((أَنْتِ الْمَيْضَاءُ، فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ ادْعُ بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ)). قَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: فَوَاللَّهِ، مَا تَفَرَّقْنَا وَطَالَ بِنَا الْحَدِيثُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا الرَّجُلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ ضَرَرٌ قَطُّ^(١).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٠/٩) رقم (٨٣١٠)، ويعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، أبو يوسف (١٤٣١ هـ) في مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق: محمد بن عبد الله السريع، دار العاصمة - الرياض ص (٩٤) رقم (١١٣)، وقال الطبراني: "والحديث صحيح".

قلت: ولم يتفرد ابن وهب بالرواية عن شبيب بن سعيد المكي، بل تابعه في الرواية عنه ابنه أحمد بن شبيب، رواها عنه يعقوب الفسوي في مشيخته: حدثنا أحمد بن شبيب بن سعيد قال: حدثنا أبي عن روح بن القاسم...، ويعقوب الفسوي ثقة حافظ، وأحمد بن شبيب صدوق، وقال الحافظ ابن حجر: "لا بأس بحديثه من رواية ابنه أحمد عنه لا من رواية ابن وهب". ينظر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (١٤٠٦ - ١٩٨٦)، تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد - سوريا ص (٢٦٣).

وهذا يعني أن الرواية عنه من غير طريق ابن وهب مقبولة إذا كانت عن ثقة، وهذه الرواية من طريق ابنه عنه لا من طريق ابن وهب، فهي مقبولة. وهذه الزيادة لا تخالف ما في الحديث، وإنما هي تطبيق لما فيه، وقد قال الإمام الشافعي - رحمه الله - : "ليس الشاذ من الحديث أن يروي الثقة ما لا يرويه غيره، هذا ليس بشاذ، إنما الشاذ أن يروي الثقة حديثاً يخالف فيه الناس هذا الشاذ من الحديث أن يروي الثقة ما لا يرويه غيره، هذا ليس بشاذ، إنما الشاذ أن يروي الثقة حديثاً يخالف فيه الناس هذا الشاذ من الحديث". ينظر: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، محمد عبد المحسن الكتبي صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ص (١٠١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : "ومن كان بهذه المثابة كان ما ينفرد به حجة، وإنما الشاذ ما خالف به الثقات لا ما انفرد به عنهم". ينظر: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبو العباس (١٣٨٦هـ)، الفتاوى الكبرى، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة - بيروت (٦/١٩٣). فالقصة صحيحة كصحة الحديث نفسه، والحمد لله رب العالمين.

فهذه القصة بيان بأن ما كان في الحديث ليس خاصاً بذلك الصحابي، وبحياة النبي - صلى الله عليه وسلم -، بل هو له لمن أتى من بعده، ولو بعد وفاته - الله عليه وسلم -.

وهذا الفهم من الصحابي الجليل عثمان بن حيف - رضي الله عنه - هو عبارة عن تطبيق لسنة ثابتة، وليس مجرد اجتهاد في فعل اتفاقي لم يقصد لذاته، كما ورد عن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه كان يتحرى أن يسير مواضع سير النبي - صلى الله عليه وسلم -، وينزل مواضع منزله، ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ، ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها، أو اجتهاد في غير سنة، كما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه كان يمسح عنقه ويقول: هو موضع الغل^(١).

وبهذا يتبين الفارق بين ما ورد عن عثمان بن حيف وما ورد عن غيره من الصحابة - رضوان الله عليهم جميعاً -، فَفَهُمُ النص وتنزيله على الوقائع غير الاجتهاد في أمر اتفاقي لم يقصد لذاته.

رابعاً: عَنْ مَالِكِ الدَّارِ - وَكَانَ حَازِنُ عُمَرَ عَلَى الطَّعَامِ - قَالَ: أَصَابَ النَّاسَ فَحْطٌ فِي زَمَنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقِ لَأُمَّتِكَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا. فَأَتَى الرَّجُلُ فِي الْمَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: ائْتِ عُمَرَ فَأَقْرِئْهُ السَّلَامَ، فَمَرَهُ أَنْ يَسْتَسْقِيَ لِلنَّاسِ، فَإِنَّهُمْ سَيَسْقُونَ، وَقُلْ لَهُ: عَلَيْكَ الْكَيْسَ الْكَيْسِ. فَأَتَى الرَّجُلُ عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ، فَبَكَى عُمَرُ، وَقَالَ: يَا رَبِّ، مَا أَلُو إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ. وفي رواية ابن أبي خيثمة وابن عبد البر والبيهقي قال: فَأَتَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَنَامِ، وَقَالَ: إِيَّتِ عُمَرَ...^(٢).

(١) ينظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١هـ)، قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مكتبة الفرقان - عجمان ص (٢١٦ - ٢٢٠).

(٢) أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (١٤٠٩هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض (٤٨٢/٧) رقم

(٣٢٦٦٥)، وأبو بكر أحمد بن أبي خيثمة (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م)، التاريخ الكبير، تحقيق: صلاح بن فتحى هلال، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر - القاهرة (٨٠ / ٢)، وأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م)، السنن الكبرى، حقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (٩١/٨)، وقال الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) في البداية والنهاية، تحقيق: حقق: إمام بن علي بن إمام، دار إحياء التراث العربي (١٠٥/٧): " وهذا إسناد صحيح "، وقال (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م) في مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على أبواب العلم، تحقيق: إمام بن علي بن إمام، دار الفلاح، الفيوم - مصر (٣١٨/١): " هذا اسناد جيد قوى"، وقال الحافظ ابن حجر: " وروى بن أبي شيبه بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري ". ينظر: ابن حجر، فتح الباري (٤٩٥/٢)، مرجع سابق.

وقد ضعف بعض العلماء المعاصرين هذا الأثر، وذكروا أن فيه أربع علل، وهي:

الأولى: عنعنة الأعمش عن أبي صالح السمان. **الثانية:** الإرسال بين أبي صالح ومالك الدار، **الثالثة:** جهالة مالك الدار، **الرابعة:** مدارها على رجل لم يسم. ينظر: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م)، التوسل أنواعه وأحكامه، تحقيق: محمد عيد العباسي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض، ص (١١٨ - ١١٩)، وإمام بن علي، هامش تحقيق مسند أمير المؤمنين (٣١٨/١ - ٣١٩)، مرجع سابق.

وهذه العلل كلها غليظة ضعيفة، مجرد اجتهادات حادثة، فلم يُثقل تضعيف الأثر عن أحد من السابقين، والجواب عليها بما يلي:

أما العلة الأولى: عنعنة الأعمش عن أبي صالح، فإنه عنعنته عنه محمولة على السماع. ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (١٩٩٥م)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية (٢٢٤/٢)، وأبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م)، تعريف اهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، تحقيق: د. عاصم بن عبدالله القريوتي، مكتبة المنار - عمان ص (١٣ و ٣٣).

وأما العلة الثانية: الإرسال بين أبي صالح ومالك الدار، فالجواب عنها أن الإمام الخليلي - رحمه الله - ساق هذا القول بصيغة التمريض (يُقَال) للدلالة على أنها علة ضعيفة لا يستمسك بها، فكيف تجعل علة يُجْرَمُ بها في تضعيف الأثر؟! ينظر: أبو يعلى الخليلي، خليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الخليل القزويني (١٤٠٩ هـ)، الإرشاد في معرفة علماء الحديث، حقق: د. محمد سعيد عمر إدريس، مكتبة الرشد - الرياض (٣١٤/١).

وأما العلة الثالثة: جهالة مالك الدار، فليس هو بمجهول، بل هو ثقة، فقد قال عنه الخليلي: " تابعي، قديم، متفق عليه، أثنى عليه التابعون "، وهذه العبارة يريد بها التوثيق والضبط لا مجرد الثناء على ديانتها، ودليل ذلك أمران: الأول: أنه حين ترجم لأبي القاسم عيسى بن محمد الواسقندي المركزي قال: متفق عليه، ولم يعقبها بشيء، وحين

فهذا الأثر صريح جداً في الدلالة على جواز الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد مماته، ولذا؛ وجدنا أئمة الإسلام يأخذون بفهم الصحابي الجليل عثمان بن حنيف - رضي الله عنه - وبما في هذا الأثر، ويرون أن ذلك أمر جائز لا حرج على فاعله، كالإمام الماوردي (ت: ٤٥٠ هـ) في كتابه الحاوي (٢١٥/٤)، والإمام أبي الحسن عبد الواحد الروياني (ت: ٥٠٢ هـ) في كتابه بحر المذهب (١٠٣/٤)، والإمام السلفي أبي الحسين يحيى بن أبي الخيرات العمراني (ت: ٥٥٨ هـ) في كتابه البيان (٣٧٨/٤ - ٣٧٩)، والإمام ابن قدامة المقدسي (ت: ٦٢٠ هـ) في كتابه المغني (٤٧٨/٣)، والإمام النووي (ت: ٦٧٦ هـ) في كتابه المجموع (٢٧٤/٨)، والإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي الحنفي (ت: ٦٨١ هـ) في كتابه شرح فتح القدير (١٨١/٣)، والإمام القرافي (ت: ٦٨٤ هـ) في كتابه الذخيرة (٣٧٦/٣)، وغيرهم كثير.

ترجم لابنه من بعده مباشرة قال: "وابنه أبو حاتم محمد بن عيسى بن محمد الوسقندي ثقة كأيه"، فلما قال: "ثقة كأيه"، علمنا وعرفنا أن مراده بقوله: (متفق عليه) أي ثقة.

والثاني: أنه يقول عن آخرين: "غير متفق عليه"، وهذا صريح جداً أن مراده بتلك العبارة الضبط لا الديانة. ينظر: الخليلي، الإرشاد (١/ ٢٢٠) و(١/ ٣١٣) و(٢/ ٦٨٨ - ٦٨٩).

وأما العلة الرابعة: أن مدارها على رجل لم يسم، فالجواب على هذه العلة بما يلي:

أ - أن الإبهام في المتن لا تضر في صحة الحديث، وهذا باتفاق علماء الحديث، وهذا لا يخفى على طالب علم فضلاً عن عالم محدث، فكم من حديث في متنه (أن رجلاً أو امرأة سألت النبي - صلى الله عليه وسلم -، أو جاء رجل فقال: يا رسول الله ...)!!

ب - أن الراوي إذا كان قد أدرك القصة والواقعة فذلك محمول على الاتصال، فقد قال الحافظ العراقي - رحمه الله -: "وإن روى التابعي عن الصحابي قصة أدرك وقوعها كان متصلاً، ولو لم يصرح بما يقتضيه الاتصال وأسندها إلى الصحابي بلفظ أن فلاناً قال أو بلفظ قال: قال فلان فهي متصلة أيضاً،... بشرط سلامة التابعي من التندليس كما تقدم، وإن لم يدركها ولا أسند حكايتهما إلى الصحابي فهي منقطعة" أ.هـ. ينظر: العراقي، التقييد والإيضاح ص(٨٦).

ولا شك أن مالك الدار قد أدرك القصة، وأدرك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وليس هو بمدلس!! فثبت بهذا أن سند الأثر صحيح لا غبار عليه، كما قال إماما هذا الشأن الحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر - رحمهما الله -.

ولم نجد لهم مخالفاً، ومثل هذا يسمى عند أهل العلم إجماع، وهو حجة على المتأخر، ولا تجوز مخالفته بحجة أنه مخالف لنصوص الكتاب والسنة؛ لأن القائلين به هم الأئمة الذين أمرنا الله - تعالى - بالرجوع إليهم، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ ۗ وَكَوَّزُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ﴾ {النساء: ٨٣}، ومحال أن يحيلنا الله على من يخالف الكتاب والسنة، ويعلمنا الشرك ووسائله، ثم ينتشر قولهم في الآفاق لأكثر من قرن ونصف، ولا نجد من يبيِّن ذلك، أو ليس أولئك الأئمة إنما يستدلون بنصوص الكتاب والسنة وهم أدري بها؟ فكيف يقال: إنه مخالف للنصوص؟ وهل خلت الأرض من قائم لله بحججه؟ ورحم الله الإمام ابن القيم حين قال: "إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ))^(١)، وقال علي - كرم الله وجهه ورضي عنه -: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة لكي لا تبطل حجج الله وبياناته، فلو جاز أن يخطئ الصحابي في حكم، ولا يكون في ذلك العصر ناطق بالصواب في ذلك الحكم لم يكن في الأمة قائم بالحق في ذلك الحكم؛ لأنهم بين ساكت ومخطئ، ولم يكن في الأرض قائم لله بحجة في ذلك الأمر، ولا من يأمر فيه بمعروف أو ينهى فيه عن منكر، حتى نبغت نابغة فقامت بالحجة وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع"^(٢).

إن من يريد أن يخالف في مثل هذا فعليه أولاً - حتى يعتبر لقوله - أن يثبت الخلاف، ثم يخالف، وأما أن يخالف هو دون أن يذكر خلافاً، بحجة أن عدم العلم

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة. باب: قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)، وهم أهل العلم (٢٦٦٧/٦) رقم (٦٨٨١)، ومسلم، كتاب: الإمارة. باب: قوله - صلى الله عليه وسلم -: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٥٢٣/٣) رقم (١٩٢٠).

(٢) ينظر: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت (١١٤/٤).

بالخلاف لا يعني عدم الخلاف، فلا شك في خطأ قوله، مهما استدل وبرهن على قوله بالكتاب والسنة، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : " وكل قول ينفرد به المتأخر عن المتقدمين ولم يسبقه إليه أحد منهم فإنه يكون خطأ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام " (١).

(١) ينظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى (١/٣٤٠)، مرجع سابق.

المبحث الرابع:

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في المسألة

انفرد شيخ الإسلام ابن تيمية^(١) - رحمه الله - من بين أئمة الإسلام بالقول بعدم مشروعية الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بهذه الكيفية، وتبعه على ذلك بعض تلاميذه، وكثير ممن أتى بعدهم إلى يومنا هذا، وأدى قوله - رحمه الله - فيها إلى كثير من الاختلاف، بل إلى التكفير والتشريك، واستحلال الدماء والأموال، وإن كان هو بريء من ذلك كله، فلم يثبت عنه - رحمه الله - أنه كفر أحداً من أهل زمانه، بل كان من أعظم المدافعين عنهم، وهم الذين أفتوا بكفره وقتله، فقد قال تلميذه الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: " وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام، ...، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وأنهم

(١) هو شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية الحراني - رحمه الله - أحد أئمة هذا الدين، والمجددين لمعالمة، والمدافعين عنه، وقد كان آية من آيات الله - تعالى - حفظاً وفهماً وعلماً وعملاً وورعاً وزهداً وجهاداً في سبيل الله، لا يخاف في الله لومة لائم، وهو وُلِّي من أولياء الله، أثنى عليه أهل زمانه الموافق والمخالف، وله الكرامات العظيمة، قال فيه تلميذه الحافظ الذهبي - رحمه الله -: " ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدعوه وناظروه وكتبوه، وهو ثابت لا يدهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر منه من الورع، وكمال الفكر، وسعة الإدراك، والخوف من الله العظيم، والتعظيم لحرمات الله ". وهو فتنة لطافتين: طائفة تعظمه، فتريد تصويبه وابتاعه عليه. وطائفة تذمه وتقذح في ولايته وتقواه، بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان. وكلا الطرفين مذموم، فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم - عليه الصلاة والسلام -.

وتوفي في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمئة هجرية، كان يوم وفاته يوماً مشهوداً. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية (١٤/١٥٦-١٥٧)، ومحمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي (١٣٩٣)، الرد الوافر، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت ص (٢٧٧)، ومحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (١٩٤١ هـ- ١٩٩٨ م)، تذكرة الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان (٤/١٩٢).

قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مراد السلطان، فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حلٍّ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلّم عنهم السلطان وصفح.

وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية؛ حرصنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا، ثم إن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة، وعاد إلى بث العلم ونشره، وأقبلت الخلق عليه، ورحلوا إليه يشغلون عليه، ويستفتونه ويجيبهم بالكتابة والقول، وجاء الفقهاء يعتذرون مما وقع منهم في حقه، فقال: قد جعلت الكل في حل (١) أ.هـ.

وأما هو فقد قال عن نفسه: " ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش - لما وقعت محنتهم - : أنا لو وافقتكم كنت كافراً؛ لأنني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون؛ لأنكم جهال. وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضائهم وشيوخهم وأمرائهم" (٢).

ومع قوله بعدم مشروعية الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته، إلا أن قصده بعدم المشروعية اختلفت فيه عباراته، فورد عنه ثلاثة أقوال، لكل قول قصد من مقاصد عدم المشروعية، وإليك هذه الأقوال:

القول الأول: إن ذلك شرك من أعظم أنواع الشرك، فقد قال: " والمشركون من هؤلاء قد يقولون: إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا، فإذا أتينا قبر أحد طلبنا منه أن يشفع لنا، فإذا صورنا تماثله - والتماثيل إما مجسدة وإما

(١) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٦١/١٤)

(٢) ينظر: ابن تيمية، الرد على البكري (٤٩٤/٢).

تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم - قالوا: فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم، ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله. فيقول أحدهم: يا سيدي فلاناً أو يا سيدي جرجس أو بطرس أو ياستي الحنونة مريم. أو يا سيدي الخليل أو موسى ابن عمران أو غير ذلك، اشفع لي إلى ربك. وقد يخاطبون الميت عند قبره أو يخاطبون الحي وهو غائب، كما يخاطبونه لو كان حاضراً حياً وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها: يا سيدي فلاناً! أنا في حسبك، أنا في جوارك، اشفع لي إلى الله، سل الله لنا أن ينصرنا على عدونا، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة، أشكو إليك كذا وكذا فسل الله أن يكشف هذه الكربة. أو يقول أحدهم: سل الله أن يغفر لي. ومنهم من يتأول قوله تعالى - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ .

ويقولون: إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين، فإن أحداً منهم لم يطلب من النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئاً ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم.

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم، وخطاب تماثيلهم، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى، قال الله تعالى - ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ سَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ {الشورى: ٢١}، فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال، ونصب

تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولاً ولا أنزل به كتاباً" (١).

القول الثاني: أن ذلك محرم من وسائل الشرك، فقال: " قال طائفة من

السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي، يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي، ويتقربون إليّ كما تتقربون إلي، فهي - سبحانه - عن دعاء الملائكة والأنبياء مع إخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون، مع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم. وكذلك الأنبياء والصالحون - وإن كانوا أحياء في قبورهم، وإن قُدر أنهم يدعون للأحياء، وإن وردت به آثار -، فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك (٢)، ولم يفعل ذلك أحد من السلف؛ لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى؛ بخلاف الطلب من أحدهم في حياته، فإنه لا يفضي إلى الشرك" (٣). هـ.

القول الثالث: أن ذلك غير مستحب، وإن كان ثابتاً، فقال: " ولا يدخل في

هذا الباب: ما يروى من أن قوما سمعوا رد السلام من قبر النبي - صلى الله عليه وسلم -، أو قبور غيره من الصالحين. وأن سعيد بن المسيب كان يسمع الأذان من القبر ليالي الحرة. ونحو ذلك. فهذا كله حق ليس مما نحن فيه، والأمر أجل من ذلك وأعظم.

(١) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١/ ١٥٨-١٥٩)، وقاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ص (٢٣-٢٥).

(٢) لماذا؟ ما دام أنهم يدعون للأحياء ووردت به الآثار!! وكيف يقول - رحمه الله -: وإن وردت به الآثار، ثم يقول: ولم يفعل ذلك أحد من السلف؟! وهل وردت الآثار إلا بفعل السلف!؟

(٣) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٠)، وقاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ص (٢٨٨-٢٨٩)، مرجع

سابق.

وكذلك أيضا ما يروى: " أن رجلاً جاء إلى قبر النبي - صلى الله عليه وسلم -، فشكا إليه الجذب عام الرمادة فراه وهو يأمره أن يأتي عمره، فيأمره أن يخرج يستسقي بالناس"، فإن هذا ليس من هذا الباب. ومثل هذا يقع كثيراً لمن هو دون النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأعرف من هذا وقائع.

وكذلك سؤال بعضهم للنبي - صلى الله عليه وسلم -، أو لغيره من أمته حاجة فتقضى له، فإن هذا قد وقع كثيراً، وليس هو مما نحن فيه.

وعليك أن تعلم: أن إجابة النبي - صلى الله عليه وسلم - أو غيره لهؤلاء السائلين، ليس مما يدل على استحباب السؤال، فإنه هو القائل - صلى الله عليه وسلم -: ((إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَسْأَلُنِي الْمَسْأَلَةَ، فَأُعْطِيهَا إِتَاءً، فَيَخْرُجُ بِهَا يَتَأْتِطَّهَا نَاراً))، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تُعْطِيهِمْ؟ قَالَ: ((يَأْتُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُونِي، وَيَأْتِي اللَّهُ لِي الْبُخْلُ))^(١).

وأكثر هؤلاء السائلين الملحين لما هم فيه من الحال، لو لم يجابوا لاضطرب إيمانهم، كما أن السائلين به في الحياة كانوا كذلك، وفيهم من أجيب وأمر بالخروج من المدينة.

فهذا القدر إذا وقع يكون كرامة لصاحب القبر، أما أن يدل على حسن حال السائل، فلا فرق بين هذا وهذا. فإن الخلق لم ينهوا عن الصلاة عند القبور واتخاذها مساجد استهانة بأهلها، بل لما يخاف عليهم من الفتنة، وإنما تكون الفتنة إذا انعقد

(١) أخرجه أحمد (١٧/١٩٩) رقم (١١١٢٣)، وابن حبان (٣/٢٠٣) رقم (٣٤١٤)، والحاكم (١/١٠٩) رقم (١٤٤)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

سببها، فلولا أنه قد يحصل عند القبور ما يخاف الافتتان به لما نهى الناس عن ذلك
" (١).

وحجته على عدم المشروعية:

وتظهر حجته مما سبق نقله عنه في سبعة أمور:

الأول: الأدلة الدالة على النهي عن دعاء غير الله - تعالى - .

الثاني: أن ذلك لم يفعله أحد من السلف، واعتبر ذلك إجماعاً منهم على المنع.

الثالث: تأويل حديث عثمان بن حنيف - بأنه توسل بدعاء النبي - صلى الله

عليه وسلم - لا توسل به.

الرابع: تضعيف قصة الضرير زمن عثمان بن عفان، أو أنها فُهم لعثمان بن حنيف

لا يتابع عليه.

الخامس: " لو كان كل أعمى يتوسل به - وإن لم يدع له الرسول - بمنزلة

ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل

الأعمى، ولو أن كل أعمى دعا بدعاء ذلك الأعمى وفعل كما فعل من

الوضوء والصلاة بعد موت النبي - صلى الله عليه وسلم - وإلى زماننا هذا

لم يوجد على وجه الأرض أعمى.

فعدول عمر والصحابة عن هذا إلى هذا وما يشرع من الدعاء وينفع عما لا يشرع

ولا ينفع وما يكون أنفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجذب يطلبون تفرج

الكربات وتيسير الخير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما

(١) ينظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن

تیمية الحراني الحنبلي الدمشقي (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، اقتضاء الصراط المستقیم لمخالفة أصحاب الجحیم،

تحقیق: ناصر عبد الکریم العقل، دار عالم الکتب، بیروت، لبنان (١/ ٢٥٤-٢٥٥).

سلوكه دون ما تركوه ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه^(١).

السادس: أن ذلك ذريعة إلى الشرك.

السابع: أن إجابة سؤال هؤلاء لا يدل على الجواز، وإنما أجيب دعاؤهم؛ لأنه لو لم يجابوا لاضطرب إيمانهم، وسبب قضاء حاجة بعض هؤلاء الداعين الأدعية المحرمة أن الرجل منهم قد يكون مضطراً ضرورة لو دعا الله بها مشرك عند وثن لاستجيب له، لصدق توجهه إلى الله، وإن كان تحري الدعاء عند الوثن شركاً.

(١) ينظر: أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحرانی أبو العباس (١٤١٧)، الرد على البكري، تحقيق: محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة المنورة (١ / ٢٦٩).

المبحث الخامس:

مناقشة رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

ويمكن مناقشة رأي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بما يلي:
 أولاً: ليس هذا النوع من دعاء غير الله - تعالى -، ولو كان من دعاء غير الله - تعالى - لما اضطرب فيه قوله - رحمه الله - فمرة يعتبرها من الشرك وأخرى يراها من وسائل الشرك.

غاية ما في هذا الدعاء أنه طلب من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يشفع له عند الله - تعالى - أن يقضي حاجته، أو يسأل الله له أن يقضي حاجته، وليس ذلك من الشرك في شيء.

نعم؛ لو كان الطلب من النبي - صلى الله عليه وسلم - مباشرة دون أن يطلب منه أن يشفع له عند الله لأمكن اعتبار ذلك من الشرك، على تفصيل في المسألة.

ثانياً: أما قوله: إنه لم يفعله أحد من السلف، فإن قد أقرّ هو بورود الآثار بذلك، كما أن مخالفه يُثبت ذلك عن السلف، وهو ما في حديث عثمان بن حنيف - رضي الله عنه -، وتطبيقه له في زمن عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، وقد سمع ذلك من حضر مع عثمان بن حنيف، ولم ينكروا ذلك، كما لم ينكر ذلك أحد قبل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -، وكما ثبت ما فعله ذلك الرجل عندما جاء إلى قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال: يا رسول الله استسق لأمتك، وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - قد علم ذلك، ولم ينكره، بل أقرّه، كما لم ينكر ذلك أيضاً مالك الدار - رحمه الله -، ولا عمر - رضي الله عنه -، والادعاء أنه لم يثبت أنه أخبر عمر بما فعل إنما هو مجرد تشبث بالاحتمال الضعيف مقابل الاحتمال الظاهر من أنه أخبره بفعله.. هبّ أنه محتمل؛ أو ليس فيه وجه تمنع القطع بعدم علمه؟ لماذا لم نجد أحداً أنكر ما في هذا الأثر كل هذه الفترة واعتبره شركاً أو ذريعة للشرك أو مكروهاً، بل وجدنا من سبق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول بمعنى ما في هذا الأثر

ويستحسنه من أتباع المذاهب الأربعة ، ثم من أتى بعدهم إلى زمن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ، ولم نعلم أحداً منهم أنكر هذا واعتبره شركاً أو قال: إنه وسيلة إلى الشرك، ومثل هذا يعدُّ إجماعاً يجب الالتزام به، وخاصة أن شيخ الإسلام ممن يقول بحجية هذا النوع من الإجماع.

ثالثاً: وأما دعوى الإجماع الذي يقول بها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من أنه لم يقل أحد من السلف، فكما أنها منقوضة بقوله بورود الآثار بها، وبقول من تقدم ذكرهم، فإن هذا الإجماع المدعى ليس هو الإجماع الذي يتكلم عنه علماء الأصول؛ إذ الإجماع عندهم: هو اتفاق مجتهدي الأمة بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - في عصر من العصور على حكم شرعي^(١).

وليس من الإجماع عند علماء الأصول كون المسألة لم تكن عند المتقدمين، أو لم يعمل بها أحد من السلف، وإلا لا اعتبرنا كل المسائل الحادثة بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وبعد الصحابة ممنوعة مخالفة للإجماع، ولم يقل بهذا أحد من أهل العلم، فَعُلِمَ بهذا أن ما ادعاه من الإجماع على منع هذا الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - دعوى لا تصح.

نعم؛ يمكن أن تصح في حالتين: الأولى: في العقائد. والثانية: في العبادات غير معقولة المعنى؛ لأن سبيل هاتين الحالتين التوقف على النص، وإلا كان القول أو الفعل بدعة.

(١) ينظر: الزركشي، البحر المحيط (١/ ٢٥٤-٢٥٥)، وتقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوح المعروف بابن النجار (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، شرح الكوكب المنير، حققه: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان (٢/ ٢١١)، ومحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي (١٩٣/٢).

وليست هذه المسألة من باب العقائد، ولا من العبادات المحضة غير معقولة المعنى، بل هي مسألة فقهية في كيفية الدعاء، والأصل أن الأموات يسمعون كلام الأحياء ويجيبون برد السلام ونحوه، وهي من مسائل الاجتهاد كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه حين قال: " واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء وما لا يشرع كاختلافهم هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح؛ وليس هو من مسائل السب عند أحد من المسلمين "(١).

رابعاً: وأما تأويله لحديث عثمان بن حنيف - رضي الله عنه -، بأنه استشفاع بدعاء النبي - صلى الله عليه وسلم -، فهو تأويل مخالف لإجماع الأئمة قبله من أن المراد منه طلب الشفاعة منه، وعلى فرض صحته، فإنه لا يمنع الصورة التي حصل عليها إجماع من سبقه. وتقدم بيان ذلك.

خامساً: وأما تضعيفه لقصة الضرير زمن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - - فمخالفه يثبت صحتها. وقد تقدم.

وأما كونه يعتبرها اجتهاداً من عثمان بن حنيف، مثل ما ثبت عن بعض الصحابة في الأمور الاتفاقية التي لا يراد منها قصد التشريع، فإن اجتهاد عثمان بن حنيف بخلاف ذلك، ذلك أن اجتهاده في تطبيق الواقعة لا في أمر اتفاقي. وقد تقدم بيان ذلك.

سادساً: وأما قوله: " لو كان كل أعمى يتوسل به وإن لم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى ولو أن كل أعمى دعا بدعاء ذلك الأعمى وفعل كما فعل من الوضوء والصلاة بعد موت النبي - صلى الله عليه وسلم - وإلى زماننا هذا لم يوجد على وجه الأرض أعمى ".

(١) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٠٦/١).

فهذا من الإلزام بما لا يلزم؛ فكون عميان الصحابة لم يدعوا به فلا يلزم منه عدم المشروعية لغير ذلك الضرير لأربعة أمور:

الأول: قد يكون لم يبلغهم ذلك، وكم من حديث فيه استحباب أمر علمه النبي - صلى الله عليه وسلم - بعض الصحابة، ولم يعلم به غيره منهم، فهل نقول إن ذلك الحديث خاص بذاك الصحابي دون من لم يبلغهم؟!

الثاني: ويمكن أن ذلك الحديث قد بلغهم ولكنه لم يصل إلينا عنهم، فليس كل الوقائع وصلت إلينا عن جميع الصحابة، وإنما وصلت إلينا عن بعضهم، أو عن آحاد منهم، ولم يدع أحد من أهل العلم أن الخبر يُردُّ أو يُخصَّصُ لكونه لم يرد إلا عن ذلك الصحابي.

الثالث: ويمكن أن يكون قد بلغهم، ولكنهم آثروا الأجر وثواب الآخرة الوارد في حديث عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: ((إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِيهِ، فَصَبَرَ؛ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ)). يُرِيدُ عَيْنِيهِ^(١).

وهذا هو غالب الظن بالصحابة - رضوان الله عليهم -، فقد قال عطاء بن أبي رباح قال: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ فقلت: بلى، قال: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتْ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي. قَالَ: ((إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى. باب: فضل من ذهب بصره. (٢١٤٠/٥)، رقم (٥٣٢٩).

سُئِتِ دَعْوَةُ اللَّهِ أَنْ يُعَافِيَكُمْ)). فَقَالَتْ: أَصْبِرْ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتُكَشِّفُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتُكَشِّفَ، فَدَعَا لَهَا^(١).

الرابع: وليس بلازم أن كل من دعا بذلك الدعاء أن يستجاب له، فقد يكون عند الداعي نقص يمنع من استجابة الدعاء، وقد لا يستجيب الله - تعالى - لحكمة هو بها عليم، وقد قال لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) {آل عمران: ١٢٨}. فتبين بهذا كله ضعف هذه الحجة.

سابعاً: وأما قوله: " فعدول عمر والصحابة عن هذا إلى هذا وما يشرع من الدعاء وينفع عما لا يشرع ولا ينفع وما يكون أنفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجذب يطلبون تفرج الكربات وتيسير الخير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه "

فهذا أيضاً ليس من الحجة في شيء، وذلك أن عدول عمر - رضي الله عنه - عن فعل ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وعمله بفعل آخر ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يدل على عدم مشروعية ما عدل عنه، بل الكل مشروع، فسواء عمل به عمر أو لم يعمل به.

وقد عدل عمر - رضي الله عنه - عن أمر وعمل بخلافه، ولم يدل ذلك على عدم مشروعيتها، بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أخذ بما عدل عنه عمر والصحابة - رضي الله عنهم -، فعن ابن عباس - رضي الله عنه قال: كان الطلاق

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى. باب: فضل من يصرع من الريح. (٥/٢١٤٠)، رقم (٥٣٢٨)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب. باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها. (٤/١٩٩٤)، رقم (٢٥٧٦).

على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأبي بكر، وستين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيها عليهم، فأمضاه عليهم^(١).

فأنت ترى أن عمر - رضي الله عنه - والصحابة معه حتى ابن عباس - عدل عن الطلاق من كونه واحدة إلى جعله ثلاثاً، ومع ذلك نجد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يستمسك بذلك الذي عدل عنه عمر، واعتبره مشروعاً!!
ثامناً: وأما كون ذلك ذريعة إلى الشرك، فما كان الأئمة ليجزوا ما هو ذريعة للشرك، ثم لا نجد منهم من ينكر ذلك.

تاسعاً: وأما القول بأن استجابة دعائهم إنما هو لاضطرارهم، وحتى لا يضرب إيمانهم، فهذا قول عجيب وغريب، ووجه غرابته أن من المعلوم أن الدعاء إذا كان فيه إثم فإنه لا يجاب، فكيف إذا كان الدعاء في ذاته أعظم الإثم (الشرك) فمن باب الأولى أن لا يجاب، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها في الآخرة، وإما أن يكف عنه من الشؤم بمثلها)) قالوا: إذا نكث، قال: ((الله أكثر وأطيب))^(٢).

وإنما يستجيب الله - تعالى - لمن دعاه مخلصاً له الدين ولو كان مشركاً،

فقال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرٍ يَبْرِجُ طَبِيبَةً وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الطلاق. باب: طلاق الثلاث. (١٠٩٩/٢) رقم (١٤٧٢).

(٢) أخرجه أحمد، (٢١٣/١٧) رقم (١١١٣٣)، ومحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (١٤٠٩ - ١٩٨٩)، الأدب المفرد، حقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت (٣٧٤) رقم (٧١٠)، والترمذي. باب: في انتظار الفرج وغير ذلك (٥٦٦/٥) رقم (٣٥٧٣)، والحاكم (٦٧٠/١) رقم (١٨١٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده جيد.

هُم يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ عِزِّ الْحَيِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَّيْتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢ - ٢٣﴾. قال الإمام البغوي - رحمه الله - : " وظنوا، أي أيقنوا أنهم أحيط بهم، دنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك، دعوا الله مخلصين له الدين، أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحدا سوى الله وقالوا: لئن أنجانا، يا ربنا، من هذه، الريح العاصف، لنكونن من الشاكرين، لك بالإيمان والطاعة.

فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض، يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عز وجل في الأرض، بغير الحق" (١).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - : " (وظنوا) أي أيقنوا (أنهم أحيط بهم) أي أحاط بهم البلاء، يقال لمن وقع في بلية: قد أحيط به، كأن البلاء قد أحاط به، وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله. (دعوا الله مخلصين له الدين) أي دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون. وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه، وإن كان كافراً، لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب" (٢).

فاستجابة دعاء أولئك الداعين عند القبور يحمل على حالتين:

الأولى: أن يُظنُّ أن في ذلك الدعاء شركاً، وليس هو في الحقيقة من الشرك في شيء، وإنما تصوّر البعض أنه شرك - وهو مخطئ في تصوّره -، وخاصة عندما تكون الإجابة بأمر لا يستطيعه أحد إلا الله - تعالى - كإنزال المطر، فإن ذلك ينفي أن

(١) ينظر: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (١٤٢٠ هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت (٤١٦/٢).
(٢) ينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة (٣٢٥/٨).

يكون في ذلك الدعاء شرك، ولم نعلم أن الله - تعالى - أعطى ذلك أحداً من خلقه إلا ما أخبرنا به النبي - صلى الله عليه وسلم - عن فتنة المسيح الدجال، وأن تلك الفتنة هي أعظم فتنة منذ خلق الله - تعالى - آدم - عليه السلام - إلى قيام الساعة^(١).

فكم هم الذين استشفعوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يسقيهم الله - تعالى - فسئفوا، وقال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: " ومثل هذا يقع كثيراً لمن هو دون النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأعرف من هذا وقائع " (٢) !!
الحالة الثانية: أن يكون في الدعاء شرك، ويتحقق مطلوب الداعي به، لا لأن الله - تعالى - استجاب له، وإنما ذلك من تلاعب الشياطين؛ لزيادة إضلال ذلك الداعي، وذلك فيما هو مربوط بالأسباب، مثال ذلك: أن يدعو من يعتقد في النبي - صلى الله عليه وسلم - أو الولي أنه يهب الولد من دون الله أو مع الله، وكانت الشياطين تمنع الحيوان المنوي من تخصيب البويضة، فلما دعا بهذا الشرك، تَرَكَّتْ الحيوان المنوي يصل إلى البويضة، فيعتقد ذلك الداعي بالشرك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أو الولي قد استجاب دعاءه !!

وبهذا يتبين أن الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ليس من الشرك في

شيء.

كما يتبين من خلال ذلك أن قول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - قول مرجوح، لمخالفته لمن سبقه، وقد نص - رحمه الله - على أن من قال قولاً في مسألة لم يسبقه إليه أحد، فإنه يكون خطأ^(٣)، فمن سبقه إلى هذا القول الذي قال به ؟

(١) ينظر: مسلم، المسند الصحيح، كتاب: الفتن وأشراف الساعة. باب: ذكر الدجال وصفته وما معه. (٤/٢٢٥٠)

رقم (٢٩٣٧)، وأحمد، المسند (١٨٧/٢٦) رقم (١٦٢٥٥).

(٢) ينظر: ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٢٥٤)، مرجع سابق.

(٣) ينظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى (١/٣٤٠)، مرجع سابق.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وآله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا البحث مساهمة في بيان أهمية هذه المسألة ووضعها في موضعها من مسائل الشرع، وخاصة أنه وبسبب الخلط بينها وبين ما يشبهها من المسائل جرّ إلى أمور لم تحمد عقبها، وما زلنا نتجرع مرارتها، والذي خلّص الباحث فيه إلى النتائج التالية:

١. حقيقة معنى الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته، وأنه ليس من الشرك في شيء.
٢. خطورة هذه المسألة عند عدم تصوّرها على حقيقتها.
٣. أن الأنبياء أحياء في قبورهم، يقدرون على ما أقدم الله عليه من الإجابة والدعاء للمصلين عليهم.
٤. ثبوت الاستشفاع به بعد مماته عن بعض التابعين بحضرة الصحابة.
٥. ثبوت إجابة النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته.
٦. تتابع أئمة الإسلام على القول بجواز الاستشفاع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته.
٧. لم يثبت عن أحد من المتقدمين قبل شيخ الإسلام ابن تيمية المنع من ذلك، وأن قوله بالمنع لم يسبقه إليه أحد.
٨. الإجابة عما استدل به شيخ الإسلام ابن تيمية، وبما يتوافق مع النصوص الدالة على الجواز.

التوصيات:

١. التنبيه على أهمية التصوير الحقيقي للمسائل، لما في مخالفة ذلك من نتائج وخيمة على الأمة.
 ٢. وجوب التمييز بين مسائل الشرك الأكبر وما ليس منه.
 ٣. التحذير من التسرع في اعتبار القول أو الفعل شركاً أو كفراً.
 ٤. عقد المؤتمرات والندوات العلمية في الجامعات لتوضيح ذلك، وخاصة بين حملة العلم الشرعي؛ لكونهم الموجهون للمجتمع، لنشر الوعي العلمي والثقافي بين أفراد المجتمع.
- وفي الختام أسأل الله - بمنه وكرمه - أن يوفقنا لفعل الطاعات، والمسارة والمسابقة في الخيرات، وترك المنكرات والمضلات، ويغفر لنا الخطيئات، وأن يجعل يومنا خيراً من أمسنا، ويجعل خير أعمارنا آخرها، وخير أعمالنا وخواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه، وأن ينزل سبحانه غفرانه على علمائنا ومشائخنا ومعلمينا، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ويعم به النفع في الدارين، اللهم آمين.

المراجع والمصادر

- ١- إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م)، المبدع في شرح المقنع، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٢- أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي المالكي الجهضمي (١٣٩٧ هـ)، فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت.
- ٣- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد، الشهير بالماوردي (١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م)، الحاوي الكبير، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٤- أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي - القاهرة.
- ٥- أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م)، الاعتقاد، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار أطلس الخضراء.
- ٦- أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني اليمني (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م)، البيان في مذهب الإمام الشافعي، تحقيق: قاسم محمد النوري، دار المنهاج - جدة.
- ٧- أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (١٣٨٦ هـ)، الفتاوى الكبرى، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة - بيروت.
- ٨- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (١٩٩٤م)، الذخيرة، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ٩- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي.
- ١٠- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م)، مسند الفاروق، تحقيق: إمام بن علي بن إمام، دار الفلاح، الفيوم - مصر.
- ١١- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (١٤١٩ هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت.
- ١٢- أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م)، نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار ابن كثير.

- ١٣- أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد - سوريا.
- ١٤- أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (١٤٢٢هـ)، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير بالرياض.
- ١٥- أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم العراقي (١٣٨٩هـ-١٩٦٩م)، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- ١٦- أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية - الرياض.
- ١٧- أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، وتكملة ابنه أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبي زرة ولي الدين، ابن العراقي طرح التثريب في شرح التقریب، الطبعة المصرية القديمة.
- ١٨- أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) التاريخ الكبير، تحقيق: صلاح بن فتحى هلال، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر - القاهرة.
- ١٩- أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبرار ((بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م.))، مسند البرار = البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.
- ٢٠- أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه الكوفي (١٤٠٩هـ.)، المصنف في الأحاديث والآثار، مكتبة الرشد - الرياض.
- ٢١- أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهبان، مكتبة الرشد- الرياض.
- ٢٢- أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت.
- ٢٣- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

- ٢٤- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م)، خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، تحقيق: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة-لبنان-بيروت.
- ٢٥- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المجموع شرح المذهب، دار الفكر.
- ٢٦- أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المرؤزي، الزهد والرفائق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٢٧- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- ٢٨- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، الألباني (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م)، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، الرياض - السعودية.
- ٢٩- أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي بن مقبل الهمداني الوداعي (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م)، الشفاعة، دار الآثار للنشر والتوزيع، صنعاء - اليمن.
- ٣٠- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (١٤٠٨ هـ)، العقيدة رواية أبي بكر الخلال، حقق: عبد العزيز عز الدين السيروان، دار قتيبة - دمشق.
- ٣١- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م)، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة.
- ٣٢- أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م)، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتبي.
- ٣٣- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة.
- ٣٤- أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٣٥- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

- ٣٦- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (٢٠٠٠م)، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، تحقيق: سالم محمد عطا - محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٣٧- أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (١٤٠٥هـ)، المغني، دار الفكر - بيروت.
- ٣٨- أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق.
- ٣٩- أبو يعلى الخليلي، خليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الخليل القزويني (١٤٠٩هـ)، الإرشاد في معرفة علماء الحديث، تحقيق: د. محمد سعيد عمر إدريس، مكتبة الرشد - الرياض.
- ٤٠- أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، العدة في أصول الفقه، تحقيق: د أحمد بن علي بن سير المباركي.
- ٤١- أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى (١٤٠٦هـ) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت.
- ٤٢- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، حياة الأنبياء صلوات الله عليهم بعد وفاتهم، تحقيق: الدكتور أحمد بن عطية الغامدي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.
- ٤٣- أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م)، شعب الإيمان، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بيومباي بالهند.
- ٤٤- أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٤٥- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (١٣٧٩هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت.
- ٤٦- إسماعيل بن حماد الجوهري (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عطا. دار العلم للملايين. بيروت.

- ٤٧- تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان.
- ٤٨- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مكتبة الفرقان - عجمان.
- ٤٩- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (١٤١٦هـ-١٩٩٥م)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية.
- ٥٠- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- ٥١- سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار الصميعي - الرياض.
- ٥٢- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
- ٥٣- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م) تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان.
- ٥٤- شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م)، الصارم المنكي في الرد على ابن السبكي، تحقيق: عقيل بن محمد بن زيد المقطري اليماني، مؤسسة الريان، بيروت -لبنان.
- ٥٥- شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٤٢٦هـ)، الرد على البكري، تحقيق: د. عبد الله بن دجين السهلي، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية.
- ٥٦- عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.
- ٥٧- محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان.

- ٥٨- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (١٣٩هـ - ١٩٧٥م)، الروح، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٥٩- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٦٠- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ٦١- محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت.
- ٦٢- محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني المعروف بالأمير الصنعاني (١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)، التنوير شرح الجامع الصغير، تحقيق: د. محمد إسحاق محمّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض.
- ٦٣- محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، أبو حاتم (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، صحيح ابن حبان (التقاسيم والأنواع)، الموسوم بالإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق وتعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٦٤- محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤١٣هـ)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السلیمان، دار الوطن - دار الثريا.
- ٦٥- محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.
- ٦٦- محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (١٣٩٣هـ)، الرد الوافر، حقق: زهير الشاويش، المكتبة الإسلامي - بيروت.
- ٦٧- محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)، نيل الأوطار، تحقيق: عصام الدين الصباطي، دار الحديث، مصر.

- ٦٨- محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي.
- ٦٩- محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى، الترمذي، أبو عيسى (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م)، الجامع الكبير - سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.
- ٧٠- محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي (٢٠٠٥ م)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.
- ٧١- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- ٧٢- محمد ناصر الدين الألباني (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت.
- ٧٣- محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (١٤٢٠ هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٤- مسلم بن الحجاج أبو الحسن النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٥- نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الألوسي (١٣٩٩ هـ)، الآيات البيّنات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت.
- ٧٦- يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، أبو يوسف (١٤٣١ هـ)، مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق: محمد بن عبد الله السريع، دار العاصمة - الرياض.



مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

ISSN: ٥٨٩٤-٢٦١٧ (٢٠٢٠/٦) (١٧) تصدر عن جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

خدمة المجتمع وأهميتها في ضوء نصوص السنة النبوية

د. عبد الواسع بن يحيى بن محمد الفعزبي الأزدي
dr.abd alwasa ihia mohmd almoazabi

أستاذ السنة وعلوم الحديث المساعد بقسم الدراسات الإسلامية
بكلية العلوم والآداب بجامعة نجران، فرع شروره

رقم المشروع البحثي: NU/SHED/16/108
بحث ممول من عمادة البحث العلمي بجامعة نجران،
المرحلة البحثية الثامنة

شكر وتقدير

يتوجه الباحث بالشكر لله تعالى أولاً على توفيقه وامتنانه بإنجاز هذا البحث، ثم بخالص الشكر وفائق التقدير لوزارة التعليم بالمملكة ، ولعمادة البحث العلمي بجامعة نجران على تمويلهم لهذا البحث مادياً وتقنياً ، والشكر موصول لمجلة جامعة القرآن الكريم وهيئة التحرير على جهدهم في نشر هذا البحث.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

ملخص البحث

تضمّن هذا البحثُ لفيماً من نصوصِ السُّنة النَّبوية التي تحثُّ على:

- خدمةِ المُجتمَعِ عقدياً.
- خدمةِ المُجتمَعِ صحياً بكافةِ الوسائلِ وعلى جميعِ الصُّعدِ فالإنسان هو ركنِ التنميةِ الأول، والعقلِ السليمِ في الجسمِ السليم، والمرضى أولى الناس بالزيارة والرعاية والعناية.
- العناية بالشرائح الضعيفة مادياً أو معنوياً في المجتمع مثل الأيتام والأرامل والفقراء وكبار السن.
- أهمية الأمن في الأوطان ووجوب صيانة عقيدة الناس ودماءهم وأموالهم وأعراضهم، وأن المسلم مطالب شرعاً بحماية أمن المجتمع من الجريمة والأفكار الضالة والمتطرفة، فالأمن قيمة إنسانية تنشدّها جميع الأمم الراقية.
- خدمة البيئة والحيوانات والطيور، وأنه يحرمُ شرعاً إيذاء الحيوانات والطيور والعبثُ بأرواحها، بل تجبُ العناية بها والاستفادة القصوى من منافعها للإنسان والحيوان.

وتوصلتُ إلى مجموعةٍ من النتائج والتوصيات

أولاً: النتائج:

- يطلبُ الدين الإسلامي من جميع أتباعه أن يكونوا أفراداً ذوي سلوكٍ إيجابي فعّال في خدمة مجتمَعهم، علمياً، واجتماعياً، وبيئياً، وأمنياً، وصحياً، وفي شتى نواحي الحياة.
 - تُعدُّ خدمةِ المُجتمَعِ في ضوء السنة النبوية عبادة عظيمة شريفة تزيد من حسنات المؤمن ويكفر الله بها من سيئاته
 - هناك قصور كبير في خدمة الشرائح الضعيفة مثل كبار السن واليتامى والأرامل والفقراء، في المجتمع مع وجود مساهمات جيدة لكنها ليست كافية.
 - العناية بالطيور والحيوانات والإحسان إليها من العبادات الجليلة في الشريعة ومن أعظم الخدمات المجتمعية التي يمكن أن تقدمها الجامعات والمؤسسات الفاعلة في المجتمع.
 - استصلاح التربة والعناية بالزراعة والمحاصيل خدمة مجتمعية ذات أبعاد اقتصادية مفيدة.
- الكلمات المفتاحية: السنة النبوية خدمة المجتمع مقترحات

Abstract

This research included a number of texts of the prophetic Sunnah urging

- Serving society , according to doctrine.
- Caring for the financially or morally vulnerable segments of society, such as orphans, widows, the poor and the elderly.
- The importance of security in the homelands and the necessity of maintaining the people's belief, blood, money and honor, and that the Muslim is required by law.

By protecting the security of society from crime and stray and extremist ideas, security is a human value that all high-end nations seek

Serving the environment, animals, and birds, and it is prohibited by Islamic law to harm animals and birds and tamper with their lives, but must be taken care of and make the most of their benefits to humans and animals.

I came up with a set of conclusions and recommendations

: **First: The results**

Islamic religion requires all of its followers to be individuals with positive and effective behavior in the of their community, scientifically, socially, environmentally, security, health, and in all aspects of life. Service.

The service of the community in the light of the Sunnah of the Prophet is considered a great and honorable worship that increases the good deeds of the believer and Allah exposes him from his bad deeds.

- There is a major deficiency in serving the vulnerable segments of society, such as the elderly, orphans, widows and the poor, in society with good contributions but not enough.
- Caring for and benefiting from birds and animals from the noble acts of worship in the Legalization and from the greatest societal services that can be provided by universities and institutions active in society.
- Soil reclamation, agricultural and crop care, a societal service of .beneficial economic dimensions

Key words: The Prophetic Sunnah - Community Service – Proposals

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن خدمة المجتمع شعار إنساني راقٍ، تتسابق نحوه المؤسسات الفاعلة في المجتمعات البشرية، وتتباهى به الشعوب الراقية، وتعتبره عنوان الخلق النبيل، و دليل الشرف الأصيل، وإذا كان البشر ينظرون إلى خدمة المجتمع من باب العادات والكمالات الإنسانية، فإننا نحن المسلمون نُعد خدمة المجتمع عبادةً مثل الصلاة والصوم، وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم أول من خدم مجتمعه وأمرنا صلى الله عليه وسلم بخدمة مجتمعاتنا، في شتى مناحي الحياة، فأوصانا صلى الله عليه وسلم بالوالدين والفقراء والأرامل والمرضى، واليتامى، وأوصانا برحمة الحيوان والطيور، والعناية بالشجر والنبات، وتصديق ذلك فيما رواه البخاري في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سُلامى^(١) من الناس

(١) السُّلامى: جمع سلامية وهي الأنملة من أنامل الأصابع، وقيل واحده وجمعه سواء، ويجمع على سلاميات وهي التي بين كل مفصلين من أصابع الإنسان. وقيل السُّلامى: كل عظم مجوف من صغار العظام: ينظر: ابن الأثير،

عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»^(١)

وقد سردت في هذا البحث - بفضل الله تعالى وتوفيقه - تأصيلا علميا متسلسلا لخدمة المجتمع من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، واخترت نماذج مختصرة من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة التي تحض على خدمة المجتمع في عقيدته ودينه، وفي الشؤون الصحية، وفي الشؤون الأمنية، وفي الشؤون الاجتماعية، وفي الشؤون الاقتصادية، وفي الشؤون البيئية، وغيرها من مناحي الحياة.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث فيما يلي:

- التأصيل الإسلامي لخدمة المجتمع، والإشارة إلى شمولية خدمة المجتمع في الإسلام لجميع نواحي الحياة
- التأكيد أن خدمة المجتمع عبادة شرعية يؤجر عليها المسلم إذا ابتغى بعمله وجه الله عز وجل.
- تعزيز مفهوم خدمة المجتمع في الجامعات والمؤسسات العلمية في المملكة، والعالم العربي والإسلامي.

مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي (٣٩٦/٢).

(١) حديث صحيح: البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترميم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ كتاب/ الجهاد والسير، باب/ باب من أخذ بالركاب ونحوه (٤/ ٥٦) رقم (٢٩٨٩).

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى:

- تعزيز مفهوم خدمة المجتمع، لدى الطلاب والمجتمع والقراء.
- بيان الصورة المشرفة للإسلام الذي يرشد أتباعه إلى نفع الآخرين ورحمة الحيوان، وحماية البيئة.
- عرض نماذج من الأحاديث النبوية التي ترشد إلى خدمة المجتمع.
- اقتراح وسائل وتطبيقات عملية لخدمة المجتمع يمكن القيام بها امثالاً للتوجيهات النبوية.

مشكلة البحث:

القصور في فهم خدمة المجتمع في ضوء السنة النبوية عند الكثير من الباحثين والمهتمين،، وسوف أبين أن الأصل في السنة النبوية أن خدمة المجتمع خدمة شاملة عقدياً، وأمنياً، وصحياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وبيئياً، مع وافر الشكر والتقدير لجميع الجهود الطيبة القائمة الآن لخدمة المجتمع.

تساؤلات البحث: يجيب هذا البحث عن سؤالين، هما:

- ماهي مجالات خدمة المجتمع التي حثنا عليها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في السنة النبوية ؟
- ماهي المقترحات العملية التي يمكن من خلالها تحويل هذه التوجيهات إلى واقع معاش ؟

الدراسات السابقة في الموضوع:

تتبع الكتب والدراسات التي تحدثت عن موضوع الدراسة فوقفت على الدراسات التالية:
الدراسة الأولى: بعنوان ((دور الزكاة في خدمة المجتمع)) تأليف: إبراهيم مدحت حافظ، الناشر: دار غريب، سنة النشر ١٩٩٨م، عدد الصفحات: ١٩١ صفحة، وهو يتحدث عن أهمية الزكاة كعبادة مالية في الإسلام تعالج مآسي الفقراء والمحرومين في المجتمع بإشراف من المؤسسات الرسمية والاجتماعية.

الدراسة الثانية: بعنوان ((الوظيفة الثالثة للجامعات)) وهو دليل صادر عن وزارة التعليم في مملكتنا الغالية، أصدرته مشكورة وكالة التخطيط والمعلومات الإدارية العامة للتخطيط سنة ١٤٣٥هـ جرية - ٢٠١٤م ويقع في ٤٠ صفحة يتحدث عن أهمية تعزيز دور الجامعات ومؤسسات التعليم العالي في خدمة المجتمع، وتقديم الحلول والاستشارات له كونها مكان النخبة الثقافية والعلمية.

ووقفتُ على دراساتٍ وكتبٍ عديدة تكلمتُ عن الرفق بالحيوان في الإسلام، وعن حماية البيئة في الإسلام، وهي دراسات عامة مأخوذة من مصادر شرعية عامة، وليست من السنة النبوية خصوصاً، ولم تُشر لخدمة المجتمع، ولذلك لم أتعرضُ لذكرها هنا. الجديد في هذا البحث:

توضيح منزلة الخدمة المجتمعية وبيان أهميتها وتنوعها من خلال نصوص السنة النبوية

فقط، والوقوف على مقدار شمول السنة النبوية في الإرشاد إلى خدمة المجتمع والحفاظ على البيئة ورعاية الحيوان، وهذا حثٌ لكل شرائح المجتمع على الإسهام في خدمة المجتمع، لأن خدمة المجتمع في ضوء هذه الدراسة ليست وظيفة مؤسسات وأفراد فقط، بل هي عبادةٌ يمارسها الجميع لخدمة المجتمع بكافة شرائحه.

المنهج العلمي للبحث:

سلكت في بحثي هذا المنهج الوصفي الاستنباطي، والمنهج الاستقرائي كذلك، نظراً لتنوع مباحث هذه الدراسة، بين جمع النصوص واستنباط معانيها، وربط ذلك بالتطبيقات والنماذج.

الإجراءات العملية في البحث:

عرفتُ المصطلحات العلمية للدراسة لغةً واصطلاحاً، من غير إسهاب.

التزمتُ بذكر الأحاديث الصحيحة والحسنة فقط.

كتبْتُ أمام كل حديث درجته في الهامش وإن كان في الصحيحين لأنَّ البحث يخاطب فئات عامة وقد يكون فيهم من لا يعرف الصحيحين، فيكون فيه زيادة تأكيد وبيان.

قمتُ بتخريج الأحاديث من مصادرها تفصيلاً إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما فإني أكتفي بتخريجها منهما؛ لإجماع الأمة على قبولهما وعلى صحة أحاديثهما، وتوفيراً لجهد ووقت القارئ قمتُ بعرض المعنى العام لمعظم الأحاديث النبوية الواردة في البحث، بعبارات ميسرة يفهمها الجميع.

أوضحتُ معاني الكلمات الغريبة في الأحاديث باختصار. ترجمتُ لرواة الأحاديث من الصحابة رضي الله عنهم بدون استثناء، والسبب أن البحث عام يخاطب به فئات كثيرة ومنهم من لا يعرف الصحابة، وتكرار ذكرهم والثناء عليهم، ونشر مناقبهم من صميم عقيدتنا. قمتُ ببيان وجه الدلالة من كل حديث لخدمة المجتمع في المجالات حسب الموضوع.

قدمتُ مقترحات عملية، وتطبيقات عصرية، يمكن القيام بها بحسب الوسع والإمكانات لخدمة المجتمع، تنفيذاً لتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم.

خطة البحث:

قمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة وستة مباحث وخاتمة، على النحو التالي:
المقدمة وتشتمل على أهداف البحث، وخطة البحث، والدراسات السابقة في الموضوع ومنهج البحث.

المبحث الأول: تعريفات ومصطلحات البحث: تعريف الخدمة - تعريف المجتمع - تعريف خدمة المجتمع - تعريف السنة النبوية لغةً وشرعاً، وقسمتها مطالب.

المبحث الثاني: التوجيه النبوي لخدمة المجتمع في الأمور العقديّة والعلمية.
المبحث الثالث: التوجيه النبوي لخدمة المجتمع في الشؤون الصحية والأمنية.

المبحث الرابع: التوجيه النبوي لرعاية الشرائح الضعيفة ماديا أو معنويا في المجتمع.

المبحث الخامس: التوجيه النبوي للعناية بالحيوان وخدمة المجتمع بيئيا.

المبحث السادس: التطبيقات المعاصرة لهذ التوجيهات النبوية

المطلب الأول: خدمة المجتمع عقديا وعلميا: مؤسسات - جمعيات - جهود طوعية.

المطلب الثاني: خدمة المجتمع صحيا: التثقيف الصحي - العلاج - زيارة المريض ورعاية كبير السن.

المطلب الثالث: خدمة الشرائح المجتمعية الضعيفة في المجتمع: الطفل - المرأة - العمال - الفقراء - السجناء.

المطلب الرابع: خدمة المجتمع بيئياً: رعاية الحيوان والتنمية الحيوانية - التنمية الزراعية - وتشجيع المزارعين وأهل الماشية والأنعام عموماً.
الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول:

مصطلحات البحث

المطلب الأول: تعريف الخدمة لغة

الخدمة لغةً:

تقول العربُ (شاةٌ خَدَماءُ) أي في ساقها عند رسغها بياضٌ كالخدمة في السواد، وسواد في بياض.

وَالْخَدَمَةُ: سَيْرٌ غليظٌ محكم، كالحلقة، يُشد في رسغ البعير، ثم يشد إليها سرائح نعلها، وبه سمي الخلخال خدمة.

والمُخْدَم: موضع الخُلخال، قال الشاعر: ولو أن عز الناس في رأس هضبة... مملمة تعبي الأرخ المخدما.

والمخدّم من البعير: ما فوق الكعب (١)

وخدمتُ الرجلَ أخدمه خِدْمَةً فَأَنَا خَادِمٌ وَالْجَمْعُ خَدَمٌ وَخُدَامٌ، وَالْخَدَمَةُ: السَّوَارُ وَهُوَ الخِدامُ أَيْضاً، وَمِثْلُ مَنْ أَمثالهم: أَحَمَقُ مِنَ الممهورَةِ إِخْدَى خِدمَتِها، والمخدّم: مَوْضِعُ الخِدامِ مِنَ السَّاقِ، وَفَرَسٌ مُخدّمٌ إِذا كانَ تَحجِيلُهُ مُستديراً فَوْقَ أَشاعِرِهِ وَلا يَجوزُ الأرساغُ، وَقَدْ سَمَتُ العَرَبُ خِداماً (٢)(٣) (وَهِيَ خادِمٌ وخادِمَةٌ)، عَرَبِيَّتَانِ فَصِيحَتَانِ، يَفْعُ

(١) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري (المتوفى:

١٧٠هـ) كتاب العين المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال (٢٣/٤).

(٢) الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، جمهرة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م (١/٥٨٠).

(٣) الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) تهذيب اللغة المحقق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م (٧/١٢٩).

على الذَّكَرِ والأنثى لإجرائه مُجْرَى الأَسْمَاءِ غير المَأْخُودَةِ من الأَفْعَالِ، كَحَائِضٍ وَعَاتِقٍ^(١).

المطلب الثاني:

تعريف الخدمة اصطلاحاً

الخدمة اصطلاحاً:

يقال: خَدَمَ جيرانه: قام بحاجتهم وبشؤونهم
وفي المثل "من خَدَمَ الرِّجَالَ خُدِمَ" و"خَدَمَهُ خِدْمَةُ العبدِ لسيِّده" و"اخْدِمَ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ" عبارة تكتب في مطاعم الخدمة الذاتية، و"خَدَمَ رِكَابَ شَخْصٍ" كان رهن إشارته وطوع أمره، و"خَدَمَ وَطَنَهُ: عمل وأدَّى له بعض المهمَّات أو الواجبات، و يخدم في القوَّات المسلَّحة: يعمل في الجيش، و"خَدَمَ جَدَّهُ المريض: عُني به وعالجه، و"خَدَمَ الفلاخ الأَرْضَ: حرثها جيِّداً وزرعها و"خَدَمَ الطَّرِيقَ: مَهَّدَهُ وأصلحهُ"^(٢).
أقول: وكل هذه المعاني صحيحة غير أن الخدمة اصطلاحاً مفهومٌ عام أوسع مما دُكر، ويتسع باتساع الثقافة الإنسانية وفحواه نفع الآخرين، كما قال الشاعر:
النَّاسُ لِلنَّاسِ من بَدُوٍ وحاضرةٍ
بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ .

(١) الزبيدي، محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزَّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقَّب بمرتضى، الرِّيَّدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية (٣٢/٥٥).

(٢) عمر، د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م (١/٦٢٠).

المطلب الثالث:

تعريف المجتمع لغةً

يقال: (جَمَعَ) الشَّيْءَ الْمُتَفَرِّقَ (فَاجْتَمَعَ) وَ (تَجَمَّعَ) الْقَوْمُ اجْتَمَعُوا مِنْ هُنَا وَهُنَا وَ (اسْتَجَمَعَ) السَّيْلُ اجْتَمَعَ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ. وَالْجَمِيعُ ضِدُّ الْمُتَفَرِّقِ (١) وَجَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمْعًا وَجَمَعْتُهُ بِالتَّثْقِيلِ مُبَالَغَةً كَوَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ أَيَّ كَانَ كَلَامُهُ قَلِيلَ الْأَلْفَاظِ كَثِيرَ الْمَعَانِي وَحَمِدْتُ اللَّهَ تَعَالَى بِمَجَامِعِ الْحَمْدِ أَيَّ بِكَلِمَاتٍ جَمَعْتُ أَنْوَاعَ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى (٢) وَ اسْتَجَمَعَ الْبَقْلُ: يَبْسُ كُلَّهُ. وَ اسْتَجَمَعَتْ لَهُ أَمْوُهُ: اجْتَمَعَ لَهُ كُلُّ مَا يَسِرُّ مِنْهَا. وَ اسْتَجَمَعَ الْفَرَسُ جَرِيًّا: بِالْغ. وَ اسْتَجَمَعَ الْقَوْمُ: ذَهَبُوا كُلَّهُمْ، وَجَامِعَهُ عَلَى أَمْرٍ: مَا لَأَهُ عَلَيْهِ، وَاجْتَمَعَ مَعَهُ عَلَيْهِ. يَوْمَ الْجَمْعِ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. يَوْمَ جَمْعٍ: يَوْمَ عَرَفَةَ. وَأَيَّامَ جَمْعٍ: أَيَّامَ مَنْى. الْجَمْعُ: جَمَاعَةٌ الشَّيْءِ؛ يُقَالُ: أَخَذْتَهُ بِجَمْعِهِ أَيَّ بِجَمِيعِ ثِيَابِهِ (٣).

أقول: فالمجتمع لغةً ضد المتفرق من كل شئ من الجمادات والبشر

وغيرهما.

(١) الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، (ص: ٦٠)

(٢) الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت (١ / ١٠٨).

(٣) رضا، أحمد رضا، معجم متن اللغة، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت، عام النشر: [١٣٧٧ من عام - ١٣٨٠ هـ أجزاء] (ج ١ / ٥٦٨ - ٥٦٩).

المطلب الرابع

تعريف المجتمع اصطلاحاً

يُقال: "اجتمع يجتمع، اجتماعاً، فهو مُجتمع، والمفعول مُجتمعٌ به، واجتمع القومُ: انضمَّ بعضهم إلى بعض، اتَّحدوا واتَّفَقوا ومن الأمثال: "اجتماع القلوب يخفف المِحن" لا يجتمع سيفان في غمِّد" والمجتمع: اسم مفعول من اجتمع، والمجتمع: جماعة من النَّاس تربطها روابط ومصالح مشتركة وعادات وتقاليد وقوانين واحدة، ووجوه المُجتمَع: سادته وأعيانه"^(١).

والمجتمعُ في العُرف الأكاديمي اليوم يُطلقُ على المؤسسات والأفراد خارج الجامعات، باعتبارهم فئة تستفيد من الإمكانيات العلمية والمادية التي تمتلكها الجامعات.

المطلب الخامس

التعريف المركب لخدمة المجتمع

بعد عرض المعاني اللغوية للخدمة وللمجتمع، ينبغي لنا أن ندلف الآن إلى تعريف خدمة المجتمع بالمفهوم العصري الحديث المتعارف عليه فنقول:

"خدمة المجتمع: مهنة نبيلة تشمل نطاقاً واسعاً من الخدمات الاجتماعية والبرامج الهادفة إلى حماية عقيدة المجتمع، وإلى تنمية المجتمع وإصلاح شؤونه النفسية والصحية والاجتماعية وغيرها"^(٢).

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة من (١/ ٣٩٢) إلى (١/ ٣٩٦) مرجع سابق.

(٢) مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع المؤلفون: (ألفُ باحثٍ وعالمٍ تقريبا) - الموسوعة العربية العالمية - الناشر: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع - بلد النشر: المملكة العربية السعودية - الرياض - الطبعة الثانية - سنة النشر: ١٩٩٩م - ١٤١٩هـ (المجلد العاشر /ص ٢٤ - مادة: خ).

وأما خدمة المجتمع في الإسلام فهي نفعُ الآخرين ابتغاء وجه الله تعالى، والسعى في غوث الملهوف، ومساندة الضعيف، وجبر الخواطر، وإكرام كبير السن، ورحمة الصغار، ورعاية الشُّجناء، وذوي الاحتياجات الخاصة، والأرامل واليتامى والفقراء والغارمين، وإعادةُ تأهيل المدمنين، وتقديمُ الاستشارات الأسرية، والاقتصادية والقانونية، والاهتمام بالبيئة، وغيرها من وجوه النفع.

تنبيه: أهداف الخدمات المجتمعية

هناك أهداف عامة لخدمة المجتمع من وجهة نظر عالمية بعيدا عن التوجهات الدينية تتمثل بالآتي:

الهدف الأول: مساعدة الناس على فهم أنفسهم، وفهم أوضاعهم المعيشية، وتنمية وتحقيق قدراتهم واستعداداتهم الفطرية.

الهدف الثاني: تحسين الأوضاع الاجتماعية بالمشاركة في برامج متعددة تهدف لمنع حدوث المشكلات والجرائم مثل سوء معاملة الأطفال وإدمان المخدرات.

الهدف الثالث: تقديم الاستشارات والحلول لحل مشكلات الأمراض العقلية والمساكل السيئة كونها تعد تحديا مجتمعيًا واقتصاديًا مركبًا.

مجالات خدمة المجتمع الرئيسية المتعارف عليها عالميا خمسة: رعاية الأسرة والطفولة - الرعاية الصحية- العناية بالصحة النفسية والعقلية - الإصلاحات- المدارس (١).

أقول: وأهداف الخدمات المجتمعية في ضوء السنة النبوية:

الهدف الأول: خدمة المجتمع من خلال صون عقيدته عن الشرك والخرافة والضلال، وهي أهم خدمة مجتمعية يقدمها المسلم لمجتمعه ولل بشرية جمعاء.

الهدف الثاني: تقديم النفع للمجتمع الإنساني والإسلامي بالدعم المادي والمعنوي والتوجيه النفسي.

(١) الموسوعة العربية العالمية (المجلد العاشر / ص ٢٥ - مادة: خ) مرجع سابق.

الهدف الثالث: رعاية الطيور والحيوانات وحماية البيئة.

الهدف الرابع: تعزيز السلوك الإيجابي في المجتمع عبر التوعية بما ينفع، والاشترك في كل مبادرة ترتقي بالمجتمع ماديا أو معنويا.

المطلب السادس

تعريفُ السنَّة النبوية لغةً وشرعاً

السنَّة لغة:

الطريقة المستقيمة المحمودة، والسنَّة السَّيرة، والسنَّة العادة، قال بعضهم:

نبي على سنن العدو بيوتنا..... لا نستجير ولا نحل حريدا

أي نبي بيوتنا فوق آثار ديار عدونا من شجاعتنا وقال الآخر:

من معشر سنن لهم آباؤهم... ولكل قوم سنن وإمامها

أي: وضعت لهم آباءهم عادات حميدة.

والسنَّة الصورة قال بعضهم: ثريك سنَّة وجه غير مُقرِّفة... مُلساء لئس بها خال ولا

ندب، أي صورة وجه، وقولهم فلان من أهل السنَّة معناه: من أهل الطَّريقة المستقيمة

المحمودة (١).

والسنَّة شرعاً: ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير

وقيل: ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ونهى عنه، وندب إليه قولاً وفعلًا، ممَّا لم

ينطق به الكتاب العزيز وربما استعملها بعضهم في مقابل الفرض أو مرادفة

للمستحب (٢).

(١) الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ١٧٧٠هـ)، المصباح المنير

في غريب الشرح الكبير، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت (١/١٠٨) والجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين

الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) التعريفات المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب

العلمية، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م (ص: ١٢٢)

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/١٠٨) مرجع سابق والتعريفات (ص: ١٢٢) مرجع سابق .

المبحث الثاني

التوجيه النبوي لخدمة المجتمع في الأمور العقديّة والعلمية

إن أعظم واجب على المسلم خدمة مجتمعه وأسرته في ما يتعلق بتعليمهم أصول التوحيد، والعقيدة الصحيحة، القائمة على الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وخدمة المجتمع في هذه الأمور أعظم نفعاً من أي خدمة أخرى، إذ أن المسلم الحق هو المسلم الموحد لله توحيداً خالصاً من الشرك والرياء، وشوائب الخرافات والبدع والمحدثات، والتوحيد الخالص هو أعظم سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، ولهذا كثرت أوامره صلى الله عليه وسلم للصحابة ولجميع المسلمين بعدهم لتقديم هذه الخدمة المجتمعية العظيمة:

الحديث الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما^(١) قال: لَمَّا بَعَثَ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ^(٢) إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُؤَخِّدُوا اللَّهَ

(١) هو الصحابي الجليل العالم الفقيه أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حبر هذه الأمة دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالفقه في الدين ومعرفة التأويل، كان يسكن المدينة ثم سكن مكة، قال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاء وأعظم خشية إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم من واد واسع، مات رضي الله عنه بالطائف سنة ثمان وستين (باختصار من: البغوي، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان بن سابور بن شاهنشاه البغوي (المتوفى: ٣١٧هـ)، معجم الصحابة للبغوي، المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني الناشر: مكتبة دار البيان - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م (٣/ ٤٨٢)).

(٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو السلمي، شهد بدرًا وهو من حفاظ القرآن وأعلم الأمة بالحلال والحرام كثير المناقب رضي الله عنه، سكن الشام وتوفي في خلافة عمر رضي الله عنه في ناحية الأردن في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة (معجم الصحابة للبغوي (٥/ ٢٦٥) مرجع سابق.

تعالى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ حَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُوْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقْرَأُوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ^(١) أَمْوَالِ النَّاسِ»^(٢)

وجه الدلالة في الحديث: في هذا الحديث الصحيح توجيه صريح لكل معلم، أن يبدأ بتعليم البشرية توحيد الله تعالى وأن الله لا ربَّ غيره، ولا معبودَ بحق سواه، من قوله صلى الله عليه وسلم «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى».

الحديث الثاني: عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٣)، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِحَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: " إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَعِيذُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ

(١) كرائم المال: خياره وأنفسه عند أهله ينظر: اليحصبي، القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ) مشارق الأنوار على صحاح الآثار دار النشر: المكتبة العتيقة ودار التراث (١/ ٣٣٩)

(٢) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري ك/ التوحيد، ب/ ماجاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٩/ ١١٤) برقم (٧٣٧١) وك/ الزكاة ب/ وجوب الزكاة (٢/ ١٠٤) برقم (١٣٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرجع سابق.

(٣) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنهما هو وأبوه صحابيَان ممن شهدا بيعة العقبة، استشهد والده في أحد، حصلت له مع النبي صلى معجزة في بيته يوم الخندق، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بضع عشرة غزوة، سكن المدينة المنورة، وبها مات سنة ثمان وسبعين) باختصار من معجم الصحابة للبخاري (١/ ٤٣٨) مرجع سابق.

تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي " قَالَ: «وَأَرْضِنِي حَاجَتَهُ»^(١)

وجه الدلالة في الحديث: في هذا الحديث النبوي الصحيح بيان أن النبي

صلى الله عليه وسلم كان يعلم الصحابة الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن، وفي هذا الدعاء العظيم صورة عملية من صور التوحيد وهو أن القادر هو الله وحده، وأنه الضار النافع جل جلاله، وأنه وحده عز وجل يعلم ماينفع العبد، ويعلم مايضره وهذا التعليم والتوجيه جانب عملي للتوحيد يمارسه المسلم قبل أن يُقَدِّم على سفر أو زواج أو تجارة أو أي شأن ذا بال، وعلينا أن نعلم هذا الدعاء أهلنا وذرياتنا وطلابنا ومجتمعنا كما نعلمهم سور القرآن الكريم اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

(١) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري ك/ التوحيد، ب/ قول الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ [الأنعام: ٦٥] (٩/ ١١٨) برقم (٧٣٩٠) وك/ التهجد ب/ ماجاء في التطوع مثنى مثنى (٥٧/ ٢) برقم (١١٦٢) وك/ الدعوات ب/ الدعاء عند الاستخارة (٨١/ ٨) برقم (٦٣٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، مرجع سابق.

الحديث الثالث: عَنْ أَبِي الْهَيْجِ الْأَسَدِيِّ^(١)، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه^(٢): «أَلَا أُبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ «أَنْ لَا تَدَعَ تِمْتَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»^(٣)

وجه الدلالة في هذا الحديث: أمره صلى الله عليه وسلم بطمس التماثيل وهي تماثيل ذوات الأرواح، وتسوية القبور بالأرض حتى لا تكون ذريعة للشرك، وقد أباح الإسلام نحت صور وتماثيل لما ليس له روح كالنبات والشجر وأما الحيوان والإنسان

(١) هو حَيَّان بن حُصَيْن أَبُو الْهَيْجِ الْأَسَدِيِّ روى عن عمر وعلي وعنه ابنه منصور وجرير والشعبي، تابعي ثقة توفي توفي سنة ثمانين للهجرة (ينظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَاز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة المحقق: محمد عوامة أحمد محمد نمر الخطيب، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية - مؤسسة علوم القرآن، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م (١/ ٣٥٩) ترجمة رقم (١٢٨٧)، والصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتزكي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م (١٣/ ١٣٥).

(٢) (هو الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أبو الحسن، أول الناس إسلاما في قول كثير من أهل العلم، ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح، فرَّبني في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه، وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك، فقال له بسبب تأخيره له بالمدينة: «ألا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى»، وزوجه بنته فاطمة، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد، ولما آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه قال له: أنت أخي، ومناقبة كثيرة حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي، استشهد علي رضي الله عنه بيد الخوارج في ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر) ينظر: العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، (٤/ ٤٦٤) ترجمة رقم (٥٧٠٤)

(٣) حديث صحيح: الفُشَيْرِي، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ك/ الجنائز ب/ الأمر بتسوية القبر (٢/ ٦٦٦) برقم (٩٦٩) عن علي رضي الله عنه.

ففتحته مثاله محرم لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى، وكل ذنب دون الشرك قد يغفره الله للعبد، والحديث دليل على وجوب حماية جناب التوحيد، وطمس معالم الشرك على كل مسلم بحسب سلطانة ووسعه وعلمه مع الرفق والدعوة بالحسنى.

الحديث الرابع: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إِنَّ وَفَدَ عَبْدَ الْقَيْسِ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَنِ الْوَفْدُ أَوْ مِنَ الْقَوْمِ» قَالُوا: رَبِيعَةُ فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ، غَيْرَ حَزَايَا وَلَا نَدَامَى» قَالُوا: إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي شَهْرِ حَرَامٍ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نُحِبُّ بِهِ مِنْ وَرَاءِنَا، نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ. فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاَهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحَدَهُ، قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحَدَهُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَتَعْطَاؤُ الْحُمْسِ مِنَ الْمَغْنَمِ» وَنَهَاَهُمْ عَنِ الدُّبَاءِ^(١) وَالْحَنْتَمِ^(٢) وَالْمُرْفَتِ^(٣) " قَالَ شُعْبَةُ: رَبَّمَا قَالَ: «النَّفِيرِ»^(٤) وَرَبَّمَا قَالَ: «الْمُقَيْرِ» قَالَ: «أَحْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مِنْ

(١) هُوَ الْقِرْعُ إِذَا بَيَّسَ وَقَسَحَ قَشْرَهُ كَانُوا يَنْتَبِذُونَ فِيهِ وَرَبَّمَا دَفَنُوهُ: يَنْظُرُ: مَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى صَحَاحِ الْأَثَارِ (١) / (٢٥٢) مَرْجِعُ سَابِقٍ.

(٢) الْجِرَارُ الْحُضْرُ، وَمَا يَضْرِبُ لَوْنُهُ إِلَى الْحُمْرَةِ. نَهَاَهُمْ عَنِ الْإِتْبَازِ فِيهِ: يَنْظُرُ: كِتَابُ الْعَيْنِ لِلْفَرَاهِيدِيِّ (٣/٣٣٦) مَرْجِعُ سَابِقٍ.

(٣) هُوَ الْإِنَاءُ الَّذِي طُلِيَ بِالرِّفْتِ وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْقَارِ، ثُمَّ انْتَبِذَ فِيهِ: يَنْظُرُ: النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ (٢) / (٣٠٤) مَرْجِعُ سَابِقٍ.

(٤) هُوَ بِمَعْنَى الْمَزْفَتِ وَالْمُقَيْرِ الْمَطْلِيُّ بِالْقَارِ وَهُوَ الرِّفْتُ وَهُوَ الْقَيْرُ أَيْضًا يَنْظُرُ: مَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى صَحَاحِ الْأَثَارِ (٢/١٩٧) مَرْجِعُ سَابِقٍ.

وَرَأَيْتُمْ»^(١) وفي رواية مالك بن الحويرث رضي الله عنه^(٢) (قَالَ: أَتَيْتَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ سَبَبَةٌ^(٣) مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرَنَا، وَكَانَ زَفِيمًا رَحِيمًا، فَقَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»^(٤))

وجه الدلالة في الحديث: وجوب حفظ العلم وتعليمه لمن لا يعلم من الأهل والقبيلة والأقارب وهذا منطوق قوله صلى الله عليه وسلم (احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ) وقوله (ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ) فهو أمر صريح بوجود خدمة المجتمع بتعليمه العقيدة الصحيحة والعبادة الموافقة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

الحديث الخامس: عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥)، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ

(١) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري ك/ العلم ب/ تَحْرِيطِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَدَّ عَبْدُ الْقَيْسِ عَلَى أَنْ يَحْفَظُوا الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ، وَيُخْبِرُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ (١/ ٢٨) برقم (٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. مرجع سابق.

(٢) هو مالك بن الحويرث بن أشيم بن خشيش الليثي رضي الله عنه، يكنى أبا سليمان: سكن البصرة، وبها مات سنة أربع وسبعين (الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٥٣٢) برقم (٧٦٣٣) مرجع سابق.

(٣) مثل كَتَبَةَ جمع شاب ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٢٤٣) مرجع سابق.

(٤) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ الأدب ب/ رحمة الناس والبهائم (٨/ ٩) برقم (٦٠٠٨) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه، مرجع سابق.

(٥) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، كان أحد النقباء بالعقبة شهد بدرًا والمشاهد كلها، من فقهاء الصحابة رضي الله عنهم، كان طوالًا جميلًا جسيمًا، مات رضي الله عنه بالرملة بفلسطين سنة أربع وثلاثين ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٥٠٥) ترجمة رقم (٤٥١٥) مرجع سابق.

وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عَيْسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»^(١)

وجه الدلالة في الحديث: أنه من مات على التوحيد يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن عيسى صلى الله عليه وسلم عبد الله وكلمته وروح منه ألقاها إلى مريم عليها السلام، وشهد بأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله الجنة، على ما كان من العمل، إشارة إلى أنه إن وقع منه تقصير وذنوب قد يغفرها الله له إن كان مخلصاً في توحيدهِ لله تعالى، لأنَّ التوحيدَ هو الدين كله، وهو معقد الولاء والبراء عند المسلم فعلى المسلم أن يعلم مجتمعه التوحيد، ويلقنه للمريض فإنه سبب عظيم لحسن الخاتمة ودخول الجنة دار النعيم المقيم.

(١) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ أحاديث الأنبياء ب/ قوله تعالى: ﴿يَأْهُلُ الْكِتَابَ لَا تُغْلَوْا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] (٤/ ١٦٥) برقم (٣٤٣٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. مرجع سابق.

المبحث الثالث

التوجيه النبوي لخدمة المجتمع في الشؤون الصحية والأمنية المطلب الأول

التوجيه النبوي لخدمة المجتمع في الشؤون الصحية

كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ما ينفع المجتمع، وما يجعله يعيش في صحة وسعادة، ويظهر هذا جلياً في تعليمه للصّحابة وللمسلمين كثرة الدعاء وسؤال الله العافية في الأبدان والأسماع والأبصار، وحثّه صلى الله عليه وسلم على أكل الأغذية المفيدة للأبدان، ونهيه عن الأطعمة الضّارة بالصحة والعقل على حد سواء، وقد وجه نبينا صلى الله عليه وسلم توجيهات عديدة لخدمة المجتمع والعناية بصحة المجتمع ومن هذه التوجيهات:

الحديث الأول: النهي عن الدخول إلى أماكن العدوى:

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه^(١) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رَجُزٌ، أَوْ بَقِيَّةٌ مِنْ عَذَابٍ عُدِّبَ بِهِ قَوْمٌ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ) (٢)

(١) هو الصحابي الجليل الشجاع أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، الحَبَّ ابن الحَبِّ، يكنى أبا محمد، وأمه أم أيمن حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم، كان عمر بن الخطاب يجلّه ويكرمه، وفضّله في العطاء على ولده عبد الله بن عمر، واعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية رضي الله عنه، سنة أربع وخمسين في الجرف في المدينة المنورة (ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٢٠٢) ترجمة رقم (٨٩) مرجع سابق.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ أحاديث الأنبياء ب/ حديث الغار (٤/ ١٧٥) برقم (٣٤٧٣) مرجع سابق وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ك/ السلام ب/ الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٤/ ١٧٣٧) برقم (٢٢١٨) ورقم (٢٢١٨) مرجع سابق، والإمام الترمذي محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) سنن الترمذي تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة

وجه الدلالة في الحديث:

نهيه صلى الله عليه وسلم عن الدخول إلى أرض الطاعون، وهذا توجيه عام يفهم منه وجوب وقاية المجتمع وتثقيفه بكل شيء يحافظ على الصحة والسلامة العامة، وفي الحديث إعجاز طبي ظاهر^(١)، وهو الإشارة إلى الحجر الصحي، فإن النبي صلى الله عليه وسلم تحدث عن فائدة الحجر الصحي، قبل اكتشاف البشر المجهر والبكتريا وحمل العدوى ونقل العدوى وفي هذا الحديث توجيه نبوي صريح بخدمة المسلم لمجتمعه فيما يتعلق بأمر صحته

الحديث الثاني: توجيهه صلى الله عليه وسلم بنفع الآخرين بالرؤية والدواء

وغيرهما:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ لِي خَالَ يَزِيحُ مِنَ الْعُقْرَبِ، فَهَيَّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّقِيِّ، قَالَ: فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرَّقِيِّ، وَأَنَا أَزِيحُ مِنَ الْعُقْرَبِ، فَقَالَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَحَاهُ فَلْيَفْعَلْ»^(٢)

وجه الدلالة من الحديث:

عموم قوله صلى الله عليه وسلم (من استطاع منكم أن ينفع أحاه فليفعل) فهو توجيه عام لتقديم كل نفع للمجتمع وفي حدود استطاعة كل فرد، وفي حدود استطاعة

ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م / ك/ أبواب الجنائز ب/ باب ما جاء في كراهية الفرار من الطاعون (٣/ ٣٧٠) برقم (١٠٦٥) والشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ) مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م (٣/ ١٤٣) برقم (١٥٧٧) جميعهم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(١) ينظر: الإعجاز الطبي النبوي في الحجر الصحي (www.kaheely.com/ar/index.php) و (www.quran-m.com/quran/article/٢٥٣٣).

(٢) حديث صحيح: أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ك/ السلام ب/ استحباب الرؤية من العين والنملة والحممة والظفرة (٤/ ١٧٢٦) برقم (٢١٩٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. مرجع سابق.

كل مؤسسة أو سلطان، وقوله (فَلْيَفْعَلْ) فعل مضارع دخل عليه لام الأمر وهو يفيد الوجوب بهذه الصيغة، والسياق هنا في الدواء والرقية فيدل على وجوب تقديم المسلم النفع لمجتمعه ولل بشرية جمعاء إن كانت لديه الخبرة الطبية الكافية.

الحديث الثالث: التوجيه بزيارة المرضى ولو كانوا غير مسلمين:

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فُكُّوا الْعَانِي، يَعْنِي: الْأَسِيرَ، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ " وفي رواية (وأجيبوا الداعي) مكان (وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ) (٢)

وجه الدلالة في الحديث:

التوجيه النبوي بزيارة المريض وتُعد زيارة المرضى من أهم العوامل النفسية التي تساعد على تفاعل المرضى مع الدواء، وفيها تواصل وتآخي، ومودة وتراحم، وتستغفر الملائكة لمن يزور المريض صباحا حتي يُمسي، وإن زاره مساءً استغفرت له حتى يُصبح، وهذا أمر نبوي صريح لا يحتمل التأويل يأمرنا فيه نبينا صلى الله عليه وسلم بفك الأسرى المسلمين من عدوهم، وإطعام الجائعين من المسلمين وسائر البشر، ويأمرنا بزيارة المرضى المسلمين وغير المسلمين لأنه قال: (وعودوا المريض) أي: أي

(١) هو الصحابي الفقيه المقرئ عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري ولي زيد وعدن للنبي صلى الله عليه وسلم وولي الكوفة والبصرة لعمر عنه بنوه أبو بكر وأبو بردة وإبراهيم وموسى قال بن بريدة كان قصيرا خفيف اللحم مناقبه مشهوره توفي سنة أربع وأربعين، وهو ابن تَيْفٍ وستين (ينظر: الكاشف (١/ ٥٨٦) ترجمة رقم (٢٩١٩) مرجع سابق والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ١٨١) ترجمة رقم (٤٩١٦) مرجع سابق.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ الجهاد والسير ب/ فكاك الأسير (٤/ ٦٨) برقم (٣٠٤٦) وك/ النكاح ب/ حَقِّ إِجَابَةِ الْوَلِيمَةِ وَالِدَعْوَةِ، وَمَنْ أَوْلَمَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَنَحْوَهُ (٧/ ٢٤) برقم (٥١٧٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرجع سابق.

مريض كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم زيارته لمريض يهودي من جيرانه ودعوته له لنطق كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) (١).

الحديث الرابع: الحثُّ على تعلُّم الطبِّ لخدمة المجتمع ولخدمة البشرية:

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ^(٢)، قَالَ: شَهِدْتُ الْأَعْرَابَ يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَعَلَيْنَا حَرْجٌ فِي كَذَا؟ أَعَلَيْنَا حَرْجٌ فِي كَذَا؟ فَقَالَ لَهُمْ: «عِبَادَ اللَّهِ، وَضَعَ اللَّهُ الْحَرْجَ، إِلَّا مَنْ اقْتَرَضَ، مِنْ عَرَضِ أَخِيهِ شَيْئًا، فَذَلِكَ الَّذِي حَرْجٌ» فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ عَلَيْنَا جُنَاحٌ أَنْ لَا نَتَدَاوَى؟ قَالَ: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، لَمْ يَضَعْ دَاءً، إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً، إِلَّا الْهَرَمَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا خَيْرٌ مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ قَالَ: «حُلُقُ حَسَنٌ» (٣)

(١) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ الجنائز ب/ إذا أسلم الصبي فمات، هل يُصلى عليه، وهل يُعرض على الصبي الإسلام

(٢) ٩٤ /٢) برقم (١٣٥٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كَانَ عَلَامًا يَهُودِيًّا يَحْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُوذُهُ، فَفَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ»، فَنظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَحَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ». مرجع سابق.

(٢) هو أسامة بن شريك الديباني صحابي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي موسى الأشعري روى عنه زياد بن علاقة وعلي بن الأقرم روى له البخاري ومسلم توفي في حدود السبعين للهجرة (ينظر: الكاشف /١) (٢٣٢) ترجمة رقم (٢٦٥) مرجع سابق والوافي بالوفيات (٨/٢٤٣) مرجع سابق والإصابة في تمييز الصحابة (١/٢٠٣) ترجمة رقم (٩٠) مرجع سابق.

(٣) حديث صحيح: القزويني ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، (١١٣٧ /٢) برقم (٣٤٣٦) والبخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) الأدب المفرد، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض،

وجه الدلالة في الحديث:

قوله صلى الله عليه وسلم (تداواوا عبادَ الله؛ فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضع معه شفاءً) حثُّ على التطبِّب وتعلُّم الدواء وتعلُّم الشفاء، وإخبارٌ بأنه لا يوجد مرض ليس له دواء، علَّمه من علمه، وجهله من جهله، وفي هذا الحديث الحِصْنُ على حُسن الخلق وأنه خير ما أعطي العبد، وأن الأخلاق الحسنة ترفع شأن صاحبها في الدنيا والآخرة، ومامن شك أن الخلق الحسن يقتضي نفع الآخرين من أفراد المجتمع، بكل وجوه النفع المادي، والمعنوي، والطبي.

الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م (ص: ١٥٠) برقم (٢٩١) و البُستي: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) صحيح ابن حبان ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م (٢/ ٢٣٦) برقم (٤٨٦) قال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُو جردى الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، السنن الكبرى، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م (٩/ ٥٧٧) برقم (١٩٥٥٩)

المطلب الثاني

التوجيه النبوي لخدمة المجتمع في الشؤون الأمنية

الحديث الأول: الحثُّ على السَّهر لحراسة مصالح المجتمع المسلم:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ^(١)، رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ أَبَدًا: عَيْنٌ بَاتَتْ تَكْلَأُ الْمُسْلِمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَكَتْ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ " وفي رواية " ثلاثةٌ لا ترى أعينهم النار يوم القيامة: عينٌ بكَّتْ من حَشْيَةِ الله وعينٌ حرستْ في سبيل الله وعينٌ غضتْ عن محارم الله "^(٢)

(١) هو أنس بن مالك بن النضر، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحد المكثرين من الرواية عنه، صحابي جليل القدر، وكثير المناقب، سكن البصرة وبها توفي سنة ثلاث وتسعين وله مائة وثلاث سنين (ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٢٧٥) ترجمة رقم (٢٧٧) مرجع سابق.

(٢) حديثٌ حسن: الضياء المقدسي في ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: ٦٤٣هـ) الأحاديث المختارة مما لم يخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما، دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهب، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م (٦/ ١٨٧) برقم (٢١٩٨) وأبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ) مسند أبي يعلى المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ، (٧/ ٣٠٧) برقم (٤٣٤٦) و الحافظ الترمذي في السنن ك/ أبواب فضائل الجهاد عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ب/ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْحَرَسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٣/ ٢٢٧) برقم (١٦٣٩) مرجع سابق، وصححه الإمام الألباني المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٥٦) برقم (٤١١١) ورقم (٤١١٢) ورقم (٤١١٣) و سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ٣٧٥) برقم (٢٦٧٣) المؤلف: الإمام أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف).

وجه الدلالة من الحديث:

حثُّ النبي صلى الله عليه وسلم على حراسة مصالح المسلمين، وخصَّ الليل لأنه وقت غفلة، وبشارته لمن فعل ذلك بالنجاة من النَّار، وما ذلك إلا لأهمية الأمن في الدين الإسلامي الحنيف، وأسعدُ النَّاسَ بهذا الحديث رجالُ الأمن الذين يحتسبون أجر جهودهم في حماية أوطان ودماء المسلمين وأموالهم عند الله تعالى.

الحديث الثاني: علامة الإيمان أمانة المؤمن على دماء المجتمع وأموالهم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»^(٢)

وجه الدلالة من الحديث:

(من أمنه الناس على دماءهم وأموالهم) فقد ربط النبي صلى الله عليه وسلم كمال الإيمان؛ بحفظ أمن المجتمع، فمن حفظ أمن مجتمعه من المخاطر، فهو صادق الإيمان..

(١) هو أبو هريرة بن عامر بن عبد ذي الشرى بن ظريف بن عبد الله بن زهران بن كعب الدوسي، أسلم سنة سبع للهجرة، وهو أكثر الصحابة رواية وحفظاً ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له، استعمله الخلفاء الراشدون والأمويون وعاش ثمانياً وسبعين سنة، ومات بالمدينة المنورة سنة تسع وخمسين، وقيل قبلها (الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٣٤٨) ترجمة رقم (١٠٦٨٠) مرجع سابق.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني في المسند (٣٩ / ٣٨١) برقم (٢٣٩٥٨) مرجع سابق، والحافظ الترمذي في السنن ك/ أَبْوَابُ الْإِيمَانِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ب/ مَا جَاءَ فِي أَنَّ الْمُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ (٥ / ١٧) برقم (٢٦٢٧) مرجع سابق والحافظ ابن ماجه في السنن ك/ الفتن ب/ بَابُ حُرْمَةِ دِمِ الْمُؤْمِنِ وَمَالِهِ (٢ / ١٢٩٨) برقم (٣٩٣٤) مرجع سابق.

الحديث الثالث: حماية أمن المجتمع عموماً واجب إيماني:
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ
مِرَاةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، يَكْفُ عَلَيْهِ ضَيْعَتُهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ»^(١)
وجه الدلالة من الحديث: (يَكْفُ عَلَيْهِ ضَيْعَتُهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ) فالْمُؤْمِنُ
الحقيقي من يحفظُ أَمَنَ وطنه، وإخوانه، وجيرانه ومجتمعه، وأمته، من العبث والشرور
و(الضَيْعَةُ) المقصود بها الأموال والزروع والبساتين، والإحاطة من الوراثة المقصودُ بها
الذَّبُّ عن عرض أخيه المؤمن، وسترُ عوراته، وذكر محاسنِه بين النَّاسِ واللَّهِ أعلم.

(١) حديث حسن: أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد (ص: ١٠٦) برقم (١٧٨/ ٢٣٩) مرجع سابق، و
أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي البجليّسستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) سنن
أبي داود المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، في ك/ الأذْب
ب/ في التَّصْبِيحَةِ وَالْحَيَاةِ (٤/ ٢٨٠) برقم (٤٩١٨)، والحافظ الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير
اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، مكارم الأخلاق، كتب هوامشه: أحمد شمس الدين،
الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م (ص: ٣٤٤) برقم (٩٢)
المؤلف: م وحسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١١٣٠/ ٢) برقم (٦٦٥٦) مرجع سابق.

المبحث الرابع

التوجيه النبوي لرعاية الشرائح الضعيفة مادياً أو معنوياً في المجتمع

الحديث الأول: الحثُّ على السَّعي على الأرامِل والمساكين

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّاعِي عَلَى

الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ»^(١)

هذا ترغيب عظيم من النبي صلى الله عليه وسلم بالعمل الشاق والمعبر عنه بالسَّعي لجمع المال الحلال ؛ ثم إنفاقه على الأرامِل والفقراء المتعفين، والمسكين هو الفقير المتعفف، الذي لا يسأل الناس، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث المتفق على صحته أن ثواب الساعي بنفسه أو بماله أو جاهه وسلطانه، لخدمة المجتمع برعاية الأرامِل والأيتام أن ثوابه يعدل ثواب المرابطين الصابرين الذين يحرسون دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم وأوطانهم، وثواب الصائمين بالنهار، وثواب القائمين المتجهدين في الليل.

وجه الدلالة في الحديث:

أن السعي على الأرامِل والفقراء عمل صالح وثوابه جليل عند الله تعالى، وهذان الصنفان من أضعف شرائح المجتمع التي يجب على الجميع العناية بهما وحل مشكلاتهما.

(١) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ النفقات ب/ فضل النفقة على الأهل (٧/ ٦٢) برقم (٥٣٥٣) مرجع سابق والإمام مسلم في صحيحه ك/ الزهد والرقائق ب/ الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٤/ ٢٢٨٦) برقم (٢٩٨٢) مرجع سابق.

الحديث الثاني: الحث على كفالة اليتامى الأقربين وغيرهم وإكرامهم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ^(١) لَهُ أَوْ لِعَيْبِهِ^(٢) أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى^(٣) من المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس منزلة في الجنة، فهو خاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين، وهنا يخبر صلى الله عليه وسلم عن منزلة كافل اليتيم بأنها قريبة جدا من منزلته والفرق بينهما يسير كالفرق بين الأصبعين السبابة والوسطى، والجنة غاية عظمة يحرص عليها كل مؤمن عاقل، ففي الحديث تحريض عظيم على كفالة اليتامى، وعلى المجتمع بجميع مؤسساته وأفراده ذكورا أو إناثا الحرص على نيل هذا الشرف العظيم والمنزلة العالية في الجنة بكفالة الأيتام من الأقارب ومن غير الأقارب.

وجه الدلالة في الحديث:

(أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بإصبعيه) فهو شرف عظيم يحرص عليه كل موفق لخدمة مجتمعه بإكرام اليتامى ورعايتهم ماديا ومعنويا.

الحديث الثالث: الحث على إكرام البنات وحسن تربيتهن:

(١) قوله صلى الله عليه وسلم: (كافل اليتيم) الكفالة هي الرعاية المادية والمعنوية لليتيم، وصيانة حقوقه وتنميتها إن كان غنياً، وسدّ مكان الأب قدر الإمكان في الجانب المادي والعاطفي).

(٢) قوله صلى الله عليه وسلم: (كافل اليتيم له أو لغيره) المقصود به اليتيم من الأقربين كابن الأخ وابن العم، ولغيره: المقصود به اليتامى من غير الأقارب وهذا المعنى هو الوارد في قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَعْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَعْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرِّحْمَةِ﴾ [البلد: ١٥، ١٧، ١٦].

(٣) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/الطلاق ب/اللعان (٥٣/٧) برقم (٥٣٠٤) من حديث سهل رضي الله عنه مرجع سابق والإمام مسلم في صحيحه ك/الزهد والرقاق ب/الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٢٨٧/٤) برقم (٢٩٨٣) مرجع سابق واللفظ لمسلم.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(١)، قَالَتْ: دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، فَسَمَّيْتُهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا، ثُمَّ قَامَتْ، فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٢)

وجه الدلالة في الحديث:

من رزقه الله ذرية إناثا فأحسن إليهن في تربيتهن والنفقة عليهن ؛ فجزاؤوه عند الله أن يصرف الله عنه عذاب النار يوم القيامة، وفي هذا الحديث ردُّ على العرب وأهل الجاهلية الذين كانوا يتضايقون من البنات ويدفنوهن أحياء خوف العار والفقر ويقولون عن البنات: (ماهي بنعم الولد يرُّها سرقةً، ونصرُّها بكاءً) ففي هذا الحديث بيان ثواب من يحسن إلى بناته.

الحديث الرابع: الحثُّ على الإحسان إلى الخدم والعمال:

عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُؤَيْدٍ^(٣)، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ^(٤) بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمَّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمَّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ حَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمْ

(١) هي عائشة الصديقة بنت الصديق أمنا أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم روى عنها عروة وابن أبي مليكة وعطاء وهي أفضه نساء الأمة، ومناقبها جمة، عاشت خمسا وستين سنة، توفيت سنة ثمان وخمسين، ودفنت بالبقيع رضي الله تعالى عنها (الكاشف (٥١٣ / ٢) ترجمة رقم (٧٠٣٨) مرجع سابق الإصابة في تمييز الصحابة (٢٣١ / ٨) ترجمة رقم (١١٤٦١) مرجع سابق.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ الزكاة ب/ اتقوا النار ولو بشق تمرة (١١٠ / ٢) برقم (١٤١٨) والإمام مسلم في صحيحه ك/ البر والصلة والآداب ب/ باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٠٢٧ / ٤) برقم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها . مرجع سابق

(٣) هو المعرور بن سويد الأسدي أبو أمية تابعي روى عن عمر وابن مسعود وعنه واصل الأحمد والأعمش قيل: مات عن عشرين ومائة سنة روى له الجماعة) الكاشف (٢٨٠ / ٢) ترجمة رقم (٥٥٥٠) مرجع سابق.

(٤) هو أبو ذر الغفاري الزاهد المشهور الصادق للهجة وكان من السابقين إلى الإسلام، وقصة إسلامه في الصحيحين، وكانت وفاته بالربذة سنة إحدى وثلاثين، صلى عليه عبد الله بن مسعود بالربذة الإصابة في تمييز الصحابة (١٠٥ / ٧) ترجمة رقم (٩٨٧٧) مرجع سابق

اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَحْوَهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»^(١).

وجه الدلالة في الحديث:

الأمر بالإحسان إلى الخدم والعمال وإكرامهم، وعدم القسوة عليهم، وهذه الشريحة الاجتماعية من الشرائح الضعيفة في المجتمع، والتي يجب علينا جميعا العناية بها عقديا، وتربويا وماديا ومعنويا فإن الله عز وجل سألنا عنهم، وفي هذا الحديث الشريف نبذ للعنصرية المقيتة فالناس عند الله عز وجل سواء لا فرق بين العربي والعجمي والأبيض والأسود والغني والفقير، إلا بتقوى الله تعالى.

الحديث الخامس: الحث على رحمة الصغير وتوقير الكبير:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوقِّرَ كَبِيرَنَا»^(٣)

(١) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك / الايمان ب / المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكْفَرُ صَاحِبُهَا بِإِتِّكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكَ

(١٥ / ١) برقم (٣٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. مرجع سابق

(٢) هو عبد الله بن عمرو بن العاص أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن أسلم قبيل أبيه، وكان من علماء الصحابة وزهادهم، حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل، روى عنه سبطه شعيب بن محمد وعروة وطاوس مات رضي الله عنه بالطائف وقيل بمصر سنة خمس وستين (الكاشف (١ / ٥٨٠) ترجمة رقم (٢٨٧٩) مرجع سابق الإصابة في تمييز الصحابة (٤ / ١٦٥) ترجمة رقم (٤٨٦٥) مرجع سابق.

(٣) حديث صحيح: أخرجه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني في المسند (١١ / ٣٤٥) برقم (٦٧٣٣) و (١١ / ٦٤٤) برقم (٧٠٧٣) مرجع سابق والإمام البخاري في الأدب المفرد (ص: ١٣٠) برقم (٣٥٨) مرجع سابق، والإمام أبو داود في السنن ك / الأدب ب / الرحمة (٤ / ٢٨٦) برقم (٤٩٤٣) مرجع سابق. جميعهم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والإمام الترمذي في السنن ك / أبواب البر والصلة ب / ماجاء في رحمة الصبيان (٤ / ٣٢١) برقم (١٩١٩) مرجع سابق، والحافظ أبو يعلى الموصلي في المسند (٧ / ٢٣٨) برقم (٤٢٤٢) مرجع سابق كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه والسلفي في المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها (ص: ٧٧) برقم (١٥٠) المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاعر الخرائطي السامري

وجه الدلالة من الحديث: رحمة الأطفال والصغار والرضع من البشر أيًا كانوا وعلى أي دين كانوا، فطرةً بشريةً وخلقًا إسلامي رفيع، وإنما يرحمُ الله من عباده الرحماء، ومن لا يرحم الخلق لا يرحمه الخالق، والراحمون يرحمهم الرحمن، فواجب على المجتمع أن يجعل الرحمة شعارا نحو الصغار، والتوقير والاحترام نحو كبار السن، وكبار أهل العلم والفضل والسلطان، فالصغيرُ والكبيرُ المسن كلاهما من الشرائح الضعيفة المحتاجة للرحمة والتوقير والاحترام والتبجيل والتقدير.

(المتوفى: ٣٢٧هـ)، انتفاء: أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير، الناشر: دار الفكر - دمشق سورية، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

المبحث الخامس

التوجيه النبوي للعناية بالحيوان، وخدمة المجتمع بيئياً

المطلب الأول

العناية بالحيوانات والطيور

الحديث الأول: الحثُّ على الإحسان إلى الحيوانات والبهايم بإطعامها وتخفيف العمل عليها:

عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب^(١) رضي الله عنهما قال: «دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ نَاصِخٌ لَهُ، فَلَمَّا رَأَى الْجَمْلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ وَسَرَاتَهُ، فَسَكَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ " فَجَاءَ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا يَارَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: " أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَكَكَ إِلَيَّ وَزَعَمَ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِئُهُ »^(٢)

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين الهاشمي أول من ولد من المهاجرين بالحبشة له صحبة، وكان كأيبيه في الكرم والسخاء روى عنه سعد بن إبراهيم وابن عقيل مات بمكة سنة ثمانين وقيل سنة تسعين (الكاشف (١/ ٥٤٣) ترجمة رقم (٢٦٦٥) مرجع سابق والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٣٥) ترجمة رقم (٤٦٠٩) مرجع سابق.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٢٨١) برقم (١٧٥٤) مرجع سابق و أبو بكر ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خوستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) مصنف ابن أبي شيبة، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - (٦/ ٣٢٢) برقم (٣١٧٥٦) والإمام أبو داود في السنن ك/ الجهاد ب/ مايومر به من القيام على الدَّوَابِّ وَالْبَهَائِمِ (٣/ ٢٣) برقم (٢٥٤٩) مرجع سابق، والحاكم في المستدرک على الصحيحين (٢/ ١٠٩) برقم (٢٤٨٥) والحافظ الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٧٨) برقم (١٩٣) والحافظ أبو عوانة في المستخرج (١/ ١٦٨) برقم (٤٩٧)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١١/ ٣١٠) برقم (١٥٦٣١) المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي -

معنى الحديث:

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطا لبعض الأنصار فوجد جملا فاشتكى الجمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ظلم صاحبه له، وبأنه لا يعطيه طعاما يكفيه، وأنه يُكثر عليه العمل، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمره بتقوى الله وأن يُحسن إلى جملة وفي الحديث بيان أن الحيوانات تعرف أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وجه الدلالة من الحديث:

" أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَتْ لَهَا، فَإِنَّهُ شَكَكَ إِلَيَّ وَرَعَمَ أَنْتَ تُجِئُهُ وَتُدْئِيهِ " فهذا أمر نبوي عام في الإحسان إلى الحيوانات والبهائم وأن كل إنسان سوف يحاسبه الله على إهماله في رعاية حيواناته وبهائمته.

الحديث الثاني: الأمر بالحفاظ على حياة الحيوان وأن من قتل حيواناً ظلماً بغير سبب وجبت له النار:

عن ابن عمر^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «دَخَلَتْ

باكستان)، دار قتيبة (دمشق - بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة) الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م وفي دلائل النبوة (٦/ ٢٦) المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م والأصبهاني في دلائل النبوة (ص: ١٥٩) برقم (١٨٦) المؤلف: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: ٥٣٥هـ) المحقق: محمد محمد الحداد، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ، والضياء في الأحاديث المختارة (٩/ ١٥٨) برقم (١٣٣٠) جميعهم عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما. مرجع سابق

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عبد الرحمن العدوي شهد الأحزاب والحديبية روى عنه بنوه ونافع وزيد بن أسلم قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن عبد الله رجل صالح، وقال جابر: ما منا أحد إلا مالت به الدنيا ومال بها

امْرَأَةُ النَّارِ فِي هِرَّةٍ رَبَطْتَهَا، فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ حَشَاشِ الْأَرْضِ»^(١)

المعنى العام للحديث:

يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها ومنعت عنها الطعام والشراب حتى ماتت، وفي الحديث تحذير من تعريض حياة الحيوانات غير المؤذية للخطر وللموت لأنها أرواح خلقها الله لتسبيحه، ولها حرمة وحق على البشر.

وجه الدلالة من الحديث:

يدل هذا الحديث المتفق على صحته على أن رعاية الحيوان والبهايم من صميم مقاصد الشرع الحنيف الذي جاء لإقامة التوحيد، والحفاظ على الحياة الكريمة للإنسان والحيوان وفي الحديث حث على خدمة المجتمع بيئياً لأن الحيوانات تؤدي أدورا بيئية مهمة مكملة للحفاظ على دورة الحياة الطبيعية للمخلوقات بما فيها الإنسان.

إلا ابن عمر. أعتق أليف رقية، وقال ابن المسيب: مات وما أحد أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منه مات سنة أربع وسبعين وقيل قبلها (الكاشف (١/ ٥٧٧) ترجمة رقم (٢٨٧١) مرجع سابق والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ١٥٥) ترجمة رقم (٤٨٥٢) مرجع سابق .

(١) متفق عليه: أخرجه الإمام البخاري ك/ المساقاة ب/ فضل سقي الماء (٣/ ١١٢) برقم (٢٣٦٥) و ك/ الأذان ب/ مايقول بعد التكبير (١/ ١٤٩) برقم (٧٤٥) و ك/ بدء لخلق ب/ خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٤/ ١٣٠) (٣٣١٨) ك/ أحاديث الأنبياء ب/ حديث الغار (٤/ ١٧٧) برقم (٣٤٨٢) وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ك/ السلام ب/ تحريم قتل الهرة (٤/ ١٧٦٠) (٢٢٤٢) وك/ البر والصلة والآداب ب/ تَابُ تَحْرِيمِ تَغْذِيبِ الْهَرَّةِ وَتَحْوِهَا مِنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا يُؤْذِي (٤/ ٢٠٢٢) برقم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الحديث الثالث: سقي الحيوانات وإطعامها عملٌ صالحٌ قد يغفر الله به بعض الكبائر:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (عُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُوسِمَةٍ^(١))، مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ^(٢) يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَزَرَعَتْ حُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِحِمَارِهَا، فَزَرَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَعُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ " وفي رواية مسلم «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ^(٣) مِنْ بَعَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَزَرَعَتْ مَوْفَهَا^(٤) فَسَقَتْهُ فَعُفِرَ لَهَا بِهِ»^(٥)

وجه الدلالة من الحديث:

أَنَّ رَحْمَةَ الْبَشَرِ لِبَعْضِهِمُ الْبَعْضُ، وَرَحْمَةُ الْبَشَرِ لِلْحَيَوَانَاتِ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَقَرِيبَةٌ تَقْرُبُ الْمُسْلِمَ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلْ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِمَغْفَرَةِ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَمِنْ الْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ مَعَ التَّوْحِيدِ، وَمِمَّا هُوَ مَشَاهِدٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الْإِسْتِهَانَةُ بِأَرْوَاحِ النَّاسِ وَقَتْلُهُمْ بِدُونِ حَقِّ، وَقَتْلُ الْحَيَوَانَاتِ، وَتَدْمِيرُ الْبُيُوتِ، وَالْمَسَاجِدِ وَالْمَزَارِعِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ الَّذِي يَغْضَبُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ، أَنْ يَهْتَمَّ بِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَحَيَاةِ الْحَيَوَانَاتِ، وَحَيَاةِ الطَّيُورِ، احْتِسَابًا لِلثَّوَابِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) المومسات: الفواجر المجاهرات بذلك واحدا مومسة ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٢٨٨) مرجع سابق.

(٢) الركيّة: بئر تُحْفَرُ. ينظر: كتاب العين (٥/ ٤٠٢) مرجع سابق.

(٣) البغاء: الزنى.

(٤) الموق: الحُفُّ يلبس على القدم وهو من الجلد.

(٥) متفق عليه: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ بدء الخلق ب/ إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابٍ أَخَذْتُمْ فَلْيَغْمِسُوهُ، فَإِنَّ فِي إِخْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءٌ وَفِي الْأُخْرَى شِفَاءٌ (٤/ ١٣٠) برقم (٣٣٢١) وك/ أحاديث الأنبياء ب/ حَدِيثِ الْعَارِ (٤/ ١٧٣) برقم (٣٤٦٧) وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ك/ السلام ب/ فَضِّلْ سَاقِي الْبَهَائِمِ الْمُحْتَرَمَةَ وَإِطْعَامَهَا (٤/ ١٧٦١) برقم (٢٢٤٥) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. مرجع سابق.

وهذه الأحاديث النبوية الصحيحة الصريحة تبين أنّ قتلَ قطة يكون سبباً لدخول النار، وأنّ سقي كلبٍ عطشان، يكون سبباً للمغفرة، ولدخول الجنة، فيجب على المجتمع المسلم، وعلى البشرية جمعاء، أن تعيشَ في ظل هذه المعاني السّامية، وعلينا أن نخدم مجتمعاتنا، في جميع النواحي صحياً، واقتصادياً، وبيئياً.

وقد تمثل الصحابةُ هذه الأحاديث في حياتهم فهذا أبو هريرة رضي الله عنه أكثر الصحابة رواية للحديث الشريف كنيته هذه نسبة لهرة كان يعتني بها ويُطعمها، وما من شكٍ أن خدمة المجتمع، ورعاية البشر، ورعاية الحيوانات من الأعمال الصالحة.

الحديث الرابع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بَيْئراً فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ الْبَيْئَرَ فَمَلَأَ حُقْفَهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ، فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَعَقَرَ لَهُ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، فِي كُلِّ ذَاتِ كَيْدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(١)

وجه الدلالة من الحديث: الأكباد الرطبة وصفٌ لجميع الحيوانات المحترمة المفيدة للإنسان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهذا الحديث النبوي الصحيح بمفرده يبين أهمية خدمة المجتمع فيما يتعلق بالرفق بالحيوان وإطعامه وسقيه وحمايته من قسوة المناخ صيفاً أو شتاءً بحسب الإمكانيات المتاحة، وهذا كله في ديننا الحنيف عملٌ صالحٌ يؤجر عليه المسلم إذا ابتغى به وجه الله تعالى.

(١) متفق عليه: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ المساقاة ب/ فضل سقي الماء (١١١ / ٣) برقم (٢٣٦٣) وك/ المظالم والغصب ب/ الآبارِ عَلَى الطَّرِيقِ إِذَا لَمْ يُتَأَذَّ بِهَا (٣ / ١٣٢) برقم (٢٤٦٦) ك/ الأدب ب/ رحمة الناس والبهائم (٨ / ٩) برقم (٦٠٠٩) والإمام مسلم في صحيحه ك/ السلام ب/ فَضْلُ سَاقِي الْبَهَائِمِ الْمُحْتَرَمَةِ وَإِطْعَامِهَا (٤ / ١٧٦١) برقم (٢٢٤٤) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. مرجع سابق.

المطلب الثاني

التوجيه النبوي للعناية بالبيئة والتنمية الزراعية

الحديث الأول: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (١) «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»

وجه الدلالة من الحديث: الحث على زراعة كل شجر نافع ومثمر تستفيد منه الطيور والحيوانات والناس، وبعبارة أخرى توجيه نبوي للعناية بالبيئة، وتنميتها وطلب الثواب من الله تعالى على هذا العمل الجليل والغرس في الحديث معناه غرس الشجر الذي يدوم طويلا مثل النخل والعنب والتفاح والرمان، والمقصود بالزراعة كل زرع له موسم ووقت محدد كالشعير والقمح والخضروات.

الحديث الثاني: عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ فِيهَا أَجْرٌ وَمَا أَكَلَتِ الْعَافِيَةُ مِنْهَا، فَلَهُ فِيهَا صَدَقَةٌ» (٢)

وجه الدلالة من الحديث: الأمر باستصلاح الأرض للزراعة وأن من أحيا أرضا لاتزرع بإذن ولاة الأمر فله أجر من استفاد من إحيائها من زرع وغيره، وفي هذا الحديث توجيه صريح لخدمة المسلم مجتمعه في ما يتعلق بتنمية البيئة واستصلاح الصحراء وغيره.

(١) متفق عليه: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ك/ المزارعة ب/ فضل الزرع والغرس إذا أكل منه (١٠٣/٣) برقم (٢٣٢٠) مرجع سابق والإمام مسلم في صحيحه ك/ المساقاة ب/ فضل الغرس والزرع (١١٨٩/٣) برقم (١٥٥٣) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. مرجع سابق

(٢) حديث صحيح: أخرجه الإمام البخاري مختصرا معلقا في صحيحه ك/ المزارعة ب/ من أحيا أرضا مواتا (٣/١٠٦) مرجع سابق. والإمام الدارمي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، سنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م في ك/ البيوع ب/ مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ (٣/١٧٠) برقم (٢٦٤٩) .

المبحث السادس

التطبيقات المعاصرة المقترحة لهذه التوجيهات النبوية

قمتُ في المباحثِ السابقة بفضلِ الله تعالى بتأصيل مفهوم خِدْمَةِ الْمُجْتَمَعِ وأهميته في ضوء السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، في خِدْمَةِ الْمُجْتَمَعِ عَقْدِيًّا وَصَحِيًّا وَأَمْنِيًّا، وَخِدْمَةِ الشَّرَائِحِ الضَّعْفِيَّةِ، وَالْعِنَايَةِ بِالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَيْئَةِ، وَفِي هَذَا الْمَبْحَثِ أَقْدَمُ مَقْتَرِحَاتٍ لِعَمَلِيَّةِ تَحْوِيلِ التَّوْجِيهَاتِ النَّبَوِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ السَّابِقَةِ إِلَى سُلُوكِيَّاتٍ، وَمُمَارَسَاتٍ، وَأَنْشِطَةٍ مَلْمُوسَةٍ، عَلَى أَرْضِ الْوَقَاعِ لخدمَةِ مَجْتَمَعِيَّةٍ مَتْنُوعَةٍ وَشَامِلَةٍ.

المطلب الأول

خدمة المجتمع عقديا وعلميا

تطبيقات معاصرة لخدمة المجتمع في الأمور العقديّة والعلمية تنفيذًا للتوجيهات

النبوية

أولاً: نشر وتوزيع الكتب والمجلات العلمية التي تعنى بنشر التوحيد بجميع اللغات.
ثانياً: إقامة المحاضرات والندوات والمؤتمرات والدورات العلمية التي تُعنى بنشر التوحيد وبيان معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بجميع اللغات.
ثالثاً: إنشاء قنوات فضائية نوعية ببرامج مشوقة وقوية لنشر التوحيد، وبجميع اللغات الحية في العالم، وتطوير أداء القنوات القائمة حالياً في جميع بلاد المسلمين وغيرها.
رابعاً: الاستفادة من شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي بكل أنواعها لنشر التوحيد، وبجميع اللغات.
خامساً: استخدام جميع الوسائل المشروعة والمتاحة لنشر التوحيد، وإنقاذ مجتمعنا خصوصاً والبشرية جميعاً من براثن الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر، وبهذا نقدم أعظم خدمة لمجتمعنا وللإنسانية جميعاً.
سادساً: التفاعل الدائم مع برامج التوعية الشرعية التي تقدمها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وحث الطلاب والطالبات والمجتمع على حضورها والاستفادة منها.

سابعاً: حث أبناءنا وبناتنا ومجتمعنا على الالتحاق بحلقات تحفيظ القرآن الكريم؛ فهو كتاب التوحيد الأعظم على وجه هذه الأرض.

المطلب الثاني

خدمة المجتمع صحياً

تطبيقات معاصرة مقترحة لخدمة المجتمع في الجوانب الصحية تنفيذاً للتوجيهات

النبوية

أولاً: تعزيز الوعي الصحي بين أفراد الأسرة، والمجتمع عبر كل الوسائل المتاحة كالإعلام، والإنترنت، ووسائل التواصل وغيرها.

ثانياً: القيام بالحملات والقوافل الصحية بين حين وآخر واختيار الأماكن المناسبة والأكثر احتياجاً.

ثالثاً: إنشاء جمعيات صحية متنوعة لتوفير الأدوية والمعدات الطبية وجمعيات أخرى لرعاية أصحاب الأمراض المزمنة والأمراض النفسية، تقوم على توفير احتياجاتهم، وملء فراغ حياتهم إن لم يكن لهم أقارب، أو أهملهم أقاربهم محلياً وإقليمياً عبر المؤسسات الرسمية والقوانين المرعية.

رابعاً: قيام الطلاب وأعضاء هيئة التدريس ومنسوبي الجامعات والتعليم بوضع جداول لزيارة المرضى والجرحى بالتنسيق مع المستشفيات الحكومية والخاصة، والدعاء لهم بالشفاء اقتداءً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وطلباً لعظيم الأجر المترتبة على زيارة المرضى.

خامساً: استخدام اللوحات الإعلانية لنشر الوعي الصحي في المجتمع.

سادساً: إصدار المجلات والمطويات التوعوية الصحية ونشرها في صو العين الحلاقة والمقاهي والنوادي الرياضية والمتنزهات للتثقيف الصحي.

سابعاً: تعليم جميع أفراد المجتمع أذكار الصباح والمساء، والأدعية النبوية المأثورة، لما فيها من الخير العميم، والنفع العظيم في حصول الخيرات ودفع الأمراض والآفات عبر جميع الوسائل المتاحة.

المطلب الثالث

خدمة الشرائح المجتمعية الضعيفة في المجتمع

تطبيقات معاصرة مقترحة لخدمة خدمة الشرائح المجتمعية الضعيفة في المجتمع
تنفيذا للتوجيهات النبوية

أولاً: إنشاء وزارة خاصة تُعنى بشؤون الأرمال، والمساكين، والبنات، والأطفال، في كل بلدٍ يؤمن بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وتخصص لها ميزانيات كافية، لتقوم بخدمة هذه الشرائح الضعيفة وتلمس احتياجاتها والسعي في تأهيلها.

ثانياً: إنشاء مراكز إحصاء دقيقة لجمع بيانات هذه الشرائح في جميع المدن، والمحافظات، ومعرفة الحالة المادية والنفسية لهم.

ثالثاً: إنشاء معاهد تدريب، وتأهيل خاصة باليتامى، والأرمال، والفقراء، وتكون مرتبطة بمعارض تجارية تُسوق منتجات هذه الشرائح.

رابعاً: دعم نوعي سخّي للجمعيات الخيرية القائمة الآن على رعاية ودعم الفقراء، واليتامى، والأطفال، والمعاقين، بصورة أكبر مادياً، ومعنوياً، وإعلامياً، وتخصيص يوم في العام يسمى اليوم المفتوح؛ لدعم جمعيات البر، ودعم جمعيات الطفل، واليتيم، والمرأة وغيرها، بالتنسيق الكامل مع وزارة الداخلية، والجهات الرسمية، ووفق اللوائح، والأنظمة المرعية في هذا البلد الأمين، وغيره من بلاد المسلمين.

خامساً: الرعاية الرسمية، وتكريم رجال الأعمال، وغيرهم ممن يدعمون هذه الجمعيات في احتفالات رسمية يريها أصحاب السمو الأمراء وفقهم الله، ومحافظي المحافظات في كل مدينة، ومحافظة، لأن ما تقوم به هذه المؤسسات والجمعيات يسهم بشكل

مباشر، وغير مباشر في تنمية المجتمع، والتخفيف من أعباء الدولة، وقبل هذا وذاك هو واجب ديني، وخلق عربي أصيل.

سادسا: الاستفادة التامة من خبرات المؤسسات الدولية في رعاية الفقراء، والأيتام، والأرامل، والأطفال، والمعاقين، وهي مؤسسات وجمعيات كثيرة حول العالم فيستفاد من خبراتها وإمكاناتها المادية، والمعنوية، وفق ماتسمح به اللوائح والأنظمة المرعية في هذا البلد الأمين.

سابعا: إنشاء مؤسسات رسمية تعنى بالصحة النفسية لكبار السن، وإدخال السرور، والبهجة عليهم، وإشعارهم بالسعادة، والأنس، ومتابعة أحوالهم الصحية، مع بقاءهم في بيوتهم، وارتباطهم بأسرهم.

المطلب الرابع

خدمة المجتمع بيئياً

التطبيقات المعاصرة المقترحة لخدمة المجتمع والحيوانات والبيئة تنفيذاً

للتوجيهات النبوية

أولاً: إنتاج أفلام علمية سعودية مبسطة عن أهمية العناية بالحيوانات والبيئة.

ثانياً: إقامة مدن خاصة بتربية الأنعام والعناية بالثروة الحيوانية على غرار المدن الصناعية ويشترط توفر وسائل متطورة في التربية والحماية والتربية والتسمين وغيرها.

ثالثاً: التشجيع السخي لأرباب الزراعة وتربية الحيوان في إنجاح مشروعاتهم.

رابعاً: إقامة مراكز بحثية متخصصة لاستصلاح الصحراء وبناء السدود للاستفادة من مياه الأمطار في الري وزراعة الأعلاف وتنمية البيئة والتشجير.

خامساً: نزول فرق ميدانية مسحية تتبع وزارة الزراعة والثروة الحيوانية الى المزارعين واهل الثروة الحيوانية لمعرفة احتياجاتهم، ومعرفة أسباب نفوق الحيوانات وغلاء الاعلاف وغيرها من المشكلات والرفع لحلها بحسب الإمكانيات.

سادسا: يعتبر الرعي وتربية الماشية من أهم أعمال السكان في الجزيرة العربية وتجذب العناية به، مهما تعددت الموارد المالية الأخرى، فإن الأرض والزرع والحيوان هي الثروة البسيطة التي اعتمدها الإنسان منذ نشأ على وجه الأرض وبقية الثروات مهددة بالانهيار لآتفه الأسباب والحروب وغيرها.

سابعا: تجب الاستفادة القصوى من المياه المحلاة ومياه الأمطار والمياه الجوفية بتخزينها وترشيد استخدامها وحسن استثمارها في التنمية وتوليد الطاقة وغيرها.

ثامنا: إنشاء جمعيات للعناية بالطيور والحمام وبناء أبراج خاصة لها في مداخل المدن، والاستفادة من لحومها وبيضها، بالاستهلاك أو التصدير.

تاسعا: لا بد من السعي والبحث عن حلول لمشاكل قسوة الطقس على الحيوانات ومواجهة مشاكل الغبار والبلاستيك اللذان يتلفان كثيرا من الأنعام.

الخاتمة وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له سبحانه على تيسيره إتمام هذه الدراسة النوعية، في أهمية خدمة المجتمع في ضوء نصوص السنة النبوية، والتي توصلت من خلالها إلى مجموعة من النتائج والتوصيات كالتالي:

أولاً: النتائج:

١. يطلب الدين الإسلامي من جميع أتباعه أن يكونوا أفراداً ذوي سلوك إيجابي فعّال في خدمة مجتمعهم، علمياً، واجتماعياً، وبيئياً، وأمنياً، وصحياً، وفي شتى نواحي الحياة.
٢. تُعد خدمة المجتمع في ضوء السنة النبوية عبادة عظيمة شريفة تزيد من حسنات المؤمن ويكفر الله بها من سيئاته.
٣. هناك قصور كبير في خدمة الشرائح الضعيفة مثل كبار السن واليتامى والأرامل والفقراء، في المجتمع مع وجود مساهمات جيدة لكنها ليست كافية.
٤. العناية بالطيور والحيوانات والإحسان إليها من العبادات الجليلة في الشريعة ومن أعظم الخدمات المجتمعية التي يمكن أن تقدمها الجامعات والمؤسسات الفاعلة في المجتمع.
٥. استصلاح التربة والعناية بالزراعة والمحاصيل خدمة مجتمعية ذات أبعاد اقتصادية مفيدة.
٦. أمن المجتمع واستقراره، وتعزيز مفهوم الأمن الفكري، وصيانة الدماء والأموال والأعراض، من أعظم الخدمات المجتمعية التي تحث عليها السنة النبوية المطهرة.

ثانياً: التوصيات:

١. الاستفادة المثلى من نصوص الأحاديث النبوية في استنهاض المجتمع نحو الريادة والإفادة، ونشر السعادة.
٢. الخدمات المجتمعية المقدمة من الجامعات مشكورة ومقدرة ولكنها ليست شاملة للجوانب الاجتماعية والبيئية والصحية والأمنية وتحتاج إلى توسع في هذه الجوانب.
٣. يوصي الباحث عمادة البحث العلمي بجامعة نجران أن تحث الباحثين على كتابة بحوث تعالج مشكلات البيئة، والزراعة، والثروة الحيوانية، ومشكلات الطيور في

منطقة نجران، وشرويه وملحقاتها، وعلى أهمية رعاية الحيوان، والتنمية الحيوانية، وتشجيع المزارعين، ومساعدتهم على إدارة الإنتاج وجودة المنتجات، وجودة التخزين، والتسويق.

٤. نشر الوعي بمفهوم رحمة الطيور، والحيوانات، وحرمة إيذاءها، وأن الراحمين يرحمهم الرحمن.

٥. ضمنت هذا البحث تطبيقات معاصرة مقترحة عملية تناسب كل مبحث من مباحثه ضمنتها المبحث السادس والأخير، يمكن الاستفادة منها بحسب الاختصاص.

والحمد لله أولاً وآخراً.

المراجع والمصادر

١. ابن أبي شيبة، أبو بكر ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) مصنف ابن أبي شيبة المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ
٢. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)النهاية في غريب الحديث والأثر الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.
٣. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) صحيح ابن حبان ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٤. ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي،.
٥. بو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) سنن أبي داود المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
٦. أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: ٣١٦هـ) المستخرج تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
٧. الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) جمهرة اللغة جمهرة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.
٨. الأزهرى، محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)تهذيب اللغة المحقق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م

٩. الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: ٥٣٥هـ) دلائل النبوة المحقق: محمد محمد الحداد، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
١٠. الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) صحيح الجامع الصغير وزيادته، الناشر: المكتب الإسلامي.
١١. الألباني، الإمام أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهاها وفوائدها، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف).
١٢. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي صحيح البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة(مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ
١٣. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) الأدب المفرد، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٤. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) الأدب المفرد، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٥. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) الأدب المفرد، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م.
١٦. البغوي، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان بن سابور بن شاهنشاه البغوي (المتوفى: ٣١٧هـ) معجم الصحابة المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
١٧. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُورْجْردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) دلائل النبوة، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٨. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) السنن الكبرى، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م
١٩. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) معرفة السنن والآثار، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي - باكستان)، دار قتيبة (دمشق - بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة) الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.
٢٠. الترمذي محمد بن عيسى بن سُوْرَة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) سنن الترمذي تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
٢١. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) التعريفات المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
٢٢. الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) المستدرک علی الصحیحین تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠ م
٢٣. الخرائطي، أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاکر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها انتفاء: أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير، الناشر: دار الفكر - دمشق سورية، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ.
٢٤. الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهْرَام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ) سنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م.
٢٥. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، المحقق: محمد عوامة أحمد

- محمد نمر الخطيب، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية - مؤسسة علوم القرآن، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
٢٦. الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م
٢٧. رضا، أحمد رضا، معجم متن اللغة، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت، عام النشر: [١٣٧٧ - ١٣٨٠هـ] ج١ و ٢ / ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م، ج٣ / ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م / ج٤ / ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م، ج٥ / ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م.
٢٨. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
٢٩. الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
٣٠. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ) الوافي بالوفيات المحقق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
٣١. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ) المعجم الكبير، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية .
٣٢. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ) معجم الأخراف، كتب هوامشه: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
٣٣. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ.

٣٤. عمر، د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
٣٥. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) كتاب العين المحقق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
٣٦. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.
٣٧. الفشيري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن الفشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٣٨. المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: ٦٤٣هـ) الأحاديث المختارة مما لم يخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
٣٩. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع (ألف باحث وعالم تقريبا)، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة - الناشر: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع - بلد النشر: المملكة العربية السعودية - الرياض - الطبعة الثانية - سنة النشر: ١٩٩٩م - ١٤١٩هـ
٤٠. الموصلي، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، مسند أبي يعلى الموصلي المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤م
٤١. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، سنن النسائي تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦م
٤٢. اليحصبي، القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ) مشارق الأنوار على صحاح الآثار دار النشر: المكتبة العتيقة ودار التراث.



مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

مجلة-علمية-محكمة-تصدر عن جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية- اليمن (١٧) (٦/٢٠٢٠) ٢٦١٧-٥٨٩٤-ISSN:

وقفات مع أعمال وتوجيهات الفاروق السياسية والإدارية بعد مقتله في ميزان الفقه السياسي الشرعي

أ. د. غالب عبدالكافي القرشي
أستاذ السياسة الشرعية - جامعة صنعاء

الملخص

هذا البحث بعنوان: (وقفات مع أعمال وتوجيهات الفاروق السياسية والإدارية بعد مقتله في ميزان الفقه السياسي الشرعي)، وفيه استهدفنا بيان الأعمال التي قام بها بعد أن أصيب وقبل موته، لإبراز عبقرية عمر والاستفادة من تلك الأعمال والتوجيهات العظيمة، وهي أعمال وأقوال لم يستطع أي مقتول أن يعمل أو يقول مثلها، أو أن يفكر بغير سكرات الموت. أعمال وأقوال يجدر أن تُجمع وتُنشر، وتتخذ منهجاً للحاكم الذي يتوخى الرشد، والأمة التي لا تقبل من الحكام إلا الرشيد، وهي في معظمها توجيهات وترتيبات ينبغي أن يستفاد منها، وهي موزونة بالفقه السياسي الشرعي، فلا نجد قولاً قاله أو عملاً عمله عمر بعد مقتله غير محكوم بالشرع قاصد المصلحة العامة التي جاء لتحقيقها الشرع.

Abstract

This Disquisition is address (Doings Omar and him Directives the Politica and the Administrative after kill him in Scale Jurisprudence Politician), therein targeting Harpsichords Doings whose deed after him Plaguing before him Death, for Accentuating Genus Omar and beneficialness from that Doings and Directives Greats, she is doings and sayings didn't can Slain do or Says Like Hers, or Muses non throe. Doings and sayings worthy Aggregation and Publicizes and making including Curriculumms to Proconsul whose wants Rationality, and Nation whose don't Accept from Prefects non the Rational, and her at most of Directives and Dispositions should beneficialness from her, and Weighed at Jurisprudence the Legit Politician, non Finds Say or Doing deed from Omar after killing him non governed at Commencing Intentional Behalf Commonalty came achieving her.

المقدمة

الحمد لله الذي هباً لدينه وعباده المؤمنين رجالاً حملوا الرسالة مع سيد الرسل، ومثلوا أفضل صحبة مع نبي مرسل، وأفضل رشد سياسي وإداري سار على منهاج النبوية. ومن أولئك الراشدين الخلفاء الأربعة ومعهم الحسن بن علي الذي ضرب أروع الأمثلة في إعادة جمع كلمة ووحدة الأمة.

وعلى رأس الخلفاء الخمسة في الرشد السياسي والإداري عمر الفاروق، وإن كان الصديق أقدم وأعظم وأعلم منه بمعرفة الحال والرجال والنظر إلى المال.

فما أعظم الفاروق سياسة وإدارةً وجهاداً في خلافته، حتى آخر لحظة من حياته. وقد وجدته نادراً في رباطة الجأش والاحتفاظ بكمال العقل وجودة الرأي بعد مقتله، فسطرت أسطراً غطت صفحات قليلة هي عبارة عن محاولة كشف جانب من أسرار عظمة عبقرية الفاروق ليثبت على حبه المحبون ويقتدي بآثاره المقتدون، ويخسأ شائئوه والحاقدون.

إنها وقفات مع أهم ما ختم به الفاروق حياته ترتيباً لشأن الأمة سياسة وإدارة، وتنظيماً، واجتماعاً.

ولم أقصد بهذا البحث الوقوف مع كل ما عمله عمر بعد استشهاده قبل مماته، فلذلك كتاب - سأعده إن شاء الله قريباً.. وإنما قصدت تنبيه الباحثين والقراء إلى معالم تهدي إلى التوسع في البحث في هذا الميدان، وما أحوجنا للاهتمام بهدي الراشدين خاصة في عصرنا. رضي الله عنك يا عمر ورزقنا مرافقتك في الجنة مع النبيين والصديقين.

أهداف البحث:

١. إبراز عبقرية عمر بعد مقتله.
٢. الاستفادة مما عمله عمر بعد مقتله ووصى به.

مشكلة البحث وتساؤلاته: تتجلى من خلال السؤال التالي:

ما هي أعمال الفاروق عمر-رضي الله عنه-وتوجيهاته بعد مقتله؟

منهج البحث: اتبعت في البحث المنهج الوصفي التاريخي.

الدراسات السابقة: لم أطلع على دراسات بنفس عنوان هذا البحث، وللباحث دراسات حول أوليات الفاروق في السياسة والإدارة والقضاء. وهذا البحث مخصص لأعماله بعد مقتله.

خطة البحث:

ينقسم البحث إلى مقدمة ومدخل ومبحثين وخاتمة.

المقدمة: فيها أهداف البحث ومشكلته ومنهجه وخطته.

المدخل: ويتكلم عن أمرين:

أ- بيان المقصود بالعنوان.

ب- من أسباب تميز خلافة عمر -رضي الله عنه-.

المبحث الأول: مقتل عمر وفيه مطلبان:

المطلب الأول: طلب عمر للشهادة.

المطلب الثاني: الآثار السلبية لمقتل عمر على الإسلام والمسلمين.

المبحث الثاني: أعمال وتوجيهات عمر بعد مقتله وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: استمرار عمر في تحمل المسؤولية والترتيب للأمة.

المطلب الثاني: نظام انتخابي فريد (بالنسبة لعصره).

المطلب الثالث: وصيته للخليفة بعده.

المطلب الرابع: قيم وآداب وأمر بمعروف ونهي عن منكر.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

مدخل

أ: بيان المقصود بالعنوان:

لا شك أن عنوان البحث - بظاهره - غريب، خاصة إذا كان القارئ أو المستغرب لا يفرق بين القتل والموت، وليس معهوداً أن أحداً مهما كان جلده يستطيع عمل شيء بعد إصابته إصابة قاتلة؛ فمعاناة سكرات الموت شديدة وثقيلة على كل نفس ولم يسلم منها حتى الأنبياء والرسل، وقرأ إذا شئت الروايات الصحيحة عن سكرات الموت التي عاناها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيد الخلق وأكرمهم على الله، وقوله في ذلك، ومحاولته - صلى الله عليه وسلم - لترتيب الأمور بعده، ولم يتم ذلك^(١)، لحكمة أرادها الله عز وجل.

وعمر الفاروق - رضي الله عنه - ليس أشد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أحرص منه على مصلحة الأمة، ولكن الله قد اختص عمر بأشياء تحققت على يديه لم يحدث مثلها من قبل، وقد كانت بمثابة أوليات له لم يسبق إليها أحد، ولا شك أن ذلك كان ببركة الرسالة المحمدية التي حملت الإسلام المنقذ المخرج من الظلمات إلى النور، فقد كان عمر - كغيره - في الجاهلية في ظلام بل ظلمات بددها الإسلام، وكشف عن عبقرية عمر الفذة التي أعز الله بها الإسلام، استجابةً لدعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم -^(٢).

فالعنوان حقاً غريب، ولإزالة هذه الغرابة لا بد أن نفرق بين مفهوم القتل والموت، فقد يقتل الإنسان بأية وسيلة ثم يبقى مدة بين مباشرة قتله وفراق روحه لجسده، ولا شك أن حالات الناس تختلف في مثل هذا. والإيمان والقوة والجلد وتوقع ما بعد الموت وموقف المرء من التعلق بالدنيا... كل ذلك له أثر في تحديد حالة المقتول بين

(١) انظر: البخاري في صحيحه (٤/ ٦٩) رقم: ٣٠٥٣، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢٥٩) رقم: (١٦٣٧)

(٢) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢١٧)

قتله وموته. والفرق ظاهر بين القتل والموت؛ فلا يقال للمقتول أنه مات إلا إذا خرجت روحه وفارقت جسده^(١)، وقد يقال: مقتول، وهو لم يموت بعد، إذا كان موته متيقن جراً إصابته.

هذا الكلام وإن كان بدهياً عند البعض، لكنه ضروري ليزيل الغرابة عند آخرين، وعمر قد عاش بعد ما أصيب فترة ثلاثة أيام^(٢)، لا تختلف عن حياته السابقة في الإسلام.

ب: من أسباب تميز خلافة عمر -رضي الله عنه-:

لقد استمر عهد الفاروق عشر سنين ونصفاً تميز بميزات كثيرة، وهناك أسباب عديدة لذلك التميز، أهمها:

١. أن الدولة كان قد أرسى أركانها ورفع بنيانها الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- وجاء الصديق فحافظ على الدولة وهيبتها بحربه للمرتدين، وإعادة وحدة أقاليم الدولة وشعبها وسار سيرة الرسول في سياسته وإدارته وبدأ الانطلاقة خارج الجزيرة العربية التي كانت حدودها هي حدود الدولة النبوية فوجه جيوشه نحو دولة فارس التي كانت أعظم دولة في نصف الكرة الأرضية الشرقي وكان كسرى ملك فارس قد مزق رسالة الرسول -صلى الله عليه وسلم- إليه ورد رسله رداً قبيحاً، فدعا عليه الرسول -صلى الله عليه وسلم- بتمزيق ملكه كما مزق الرسالة^(٣). ولعل ذلك كان السبب الرئيس لتقديم الصديق غزو فارس على غزو الروم مع أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان قد بدأ بالروم، فغزوة تبوك كانت لمواجهة الروم ومؤتة وتجهيز جيش أسامة كان كذلك أيضاً.

(١) وانظر: العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية بترتيب وزيادة (ص: ٤٢٠)

(٢) انظر: أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية (١٥٥/٧) والسيوطي، عبدالرحمن، تاريخ الخلفاء (ص: ١٠٩)

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٢٧)

٢. عبقرية عمر: وشيء آخر امتاز به عمر عن غيره هو عبقريته الفذة، هذه العبقرية هي التي كان منها -بتوفيق الله- أعمال وتوجيهات لمن بعده وللأمة بعد مقتله كان لها ما بعدها، وكانت معالم في طريق السياسيين والإداريين الصادقين.

وعبقرية عمر شهد له بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والصحابة الكرام-رضي الله عنهم- وتاريخه وواقع دولته التي أوصلها لأن تكون الأولى في العالم كله بلا منازع.

والعبقرية ليست شيئاً يتعلمه الناس، أو يتوارثونه؛ ولكنها تتمثل في شخص تكونت فيه عدة أمور في جسمه، وعقله، وسلوكه..، وقد كان عمر -رضي الله عنه-: جسيماً طويلاً مشرفاً على الناس كأنه على دابة^(١)، وكان شديد التحمل والصبر على وظائف الخلافة كما تشهد بذلك كثير من أخباره.

ويكفي في عبقريته ما قاله عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، وما قاله عنه علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وما قالته عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، فقد قال عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حديث طويل: "فلم أر عبقرياً يفري فريه"^(٢)، أي يعمل عمله البالغ^(٣)، وقال: "ما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غيره"^(٤). وقال عنه علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: "حينما دخل على عمر -رضي الله عنه- وقد كفن: (ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله، إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبك، وحسبت أنني كنت كثيراً أسمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر)^(٥). وقالت عائشة -رضي الله عنها-

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي، مرجع سابق (ص: ١٠٥)

(٢) ينظر الحديث بأكمله في صحيح البخاري مرجع سابق، باب مناقب عمر بن الخطاب (١٠ / ٥) رقم: ٣٦٨٢.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر مرجع سابق. (١ / ١٦٧)

(٤) انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، باب مناقب عمر بن الخطاب (١١ / ٥) رقم: ٣٦٨٣.

(٥) صحيح البخاري، مرجع سابق، باب مناقب عمر بن الخطاب (١١ / ٥) رقم: ٣٦٨٥.

: (لقد كان والله أحوذياً نسيج وحده)^(١). وقالت أيضاً: (كان عمر إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو والله الناسك حقاً)^(٢).

أما عقله العظيم الذي وجه صفات ومواهب عمر العملاقة لصياغة تلك العبقرية فيشهد له أثره العظيم في الإسلام منذ لحظة إسلامه وموافقة القرآن له في عدة مواضع، والأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك واجتهاداته الفقهية، وفتوحاته، وأوليائه التي لم يسبق إليها، وشهادات المؤرخين والفلاسفة، والقادة حتى من غير المسلمين.

وأما سلوكه الدال على عبقريته فليس محصوراً في سلوك معين، أو في موقف سلوكي واحد، ولكن ذلك يتجلى في معظم سلوكه سياسياً وإدارياً ورعاية وأمانة ورقابة ومحاسبة وشموحاً وتواضعاً... سلوك عبقرتي لا يتصف به إلا قليل من البشر الذين يستحقون أن يوصفوا بالعباقرة. وكفى عمر شهادة من رسول الله كما في الحديث الصحيح الذي لا يشك في صحته.

٣. قوة المتابعة الإدارية، والاطلاع على أخبار الدولة، خاصة في خلافته فإنه كان لا يضيع لحظة واحدة سدى، ويسأل عن أحوال الرعية وأحوال الولاية بصورة مستمرة، ويجتمع بولائه كل سنة في مكة لمتابعة أعمال الدولة وإنجازاتهم ويسألهم ويسأل الناس عنهم^(٣).

(١) البيهقي، السنن الكبرى، باب ما يحرم به الدم من الإسلام (٢/ ٢٥٩)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٠)

(٣) انظر: محمد سهيل أطفيش، تاريخ الخلفاء الراشدين (ص: ٣٣٦)

المبحث الأول:

مقتل عمر

المطلب الأول:

طلب عمر للشهادة

تجلت هيمنة الرسالة المحمدية (الرحمة للعالمين) على الرسائل السابقة في ميادين كثيرة، منها ميدان التربية، فقد استطاع الرسول الأكرم الخاتم صاحب الرسالة العالمية الشاملة الكاملة، أن يربي أصحابه تربية إيمانية جهادية أخوية وحدوية فاقت ما سلكه كل الأنبياء والرسل قبله حتى أولي العزم من الرسل، ربّى أصحابه حتى أوصلهم إلى مرتبة الإحسان، ولا تستثني أحداً منهم، مع التفاوت الموجود بينهم، فكانوا يحبون الموت في سبيل الله كما يحب غيرهم الحياة، وكانوا يؤثرون على أنفسهم غيرهم من المؤمنين وكان كل منهم يرجو لقاء ربه صادقاً صابراً شهيداً.

بينما نجد قبله من أولي العزم من إذا هياً نفسه^(١) لجهاد العدو قال له المخلص من أصحابه: {أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤]، وآخر من أولي العزم^(٢) على نبينا وعليهم جميعاً الصلاة والسلام حينما وصل بتربية أصحابه إلى مستوى ظن أنه يكفي لأن يكونوا ثابتين إيماناً وثقة ظهر من المخلص منهم (الحواريون) من يريد اختبار قدرة الله على إنزال مائدة عظيمة متنوعة من السماء؛ ليأكلوا وعند ذلك يتقوا بنبيهم وصدقه، {إِذْ قَالَ الْخَوَارِئِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة: ١١٢-١١٣]. لكن أصحاب محمد (ﷺ) لم يحدث منهم شيء من ذلك، بل كانوا يتمنون الشهادة وهم ينافحون عن

(١) ذاك هو موسى بن عمران عليه السلام .

(٢) ذاك هو عيسى ابن مريم عليه السلام .

الإسلام ورسول الإسلام، ويقولون - صادقين - (والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك). من هؤلاء، بل في مقدمتهم: عمر الفاروق الذي خاض مع رسول الله كل غزواته الدفاعية والهجومية: بدر، أحد والأحزاب، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة، وحين يتبوك غير سرايا التي كان يقودها هو، أو يشارك فيها، وكان له رجاء الشهادة في تلك المواقع كلها. وجاء عهد الصديق فشارك في حرب المرتدين باللسان - رأياً - وبالسنان قتالاً ضد الخارجين عن الدين والحدود، ولما أستقر الأمر في جزيرة العرب، وبدأ الجهاد خارجها شرقاً وشمالاً لم يشارك عمر في تلك الحروب إلا بالرأي والتجهيز؛ لأن الصديق احتفظ به إلى جانبه فكان بمثابة كبير المستشارين، ييدي الرأي السديد ويشارك في أي أمر جديد، كما يشارك في الحكم خاصة في مجال المال والقضاء والسياسة، وإدارة شئون الدولة والحرب والسلام من حيث القرار، فخف وقل عنده رجاء الشهادة، إذ كيف ينالها وهو في مدينة رسول الله لا يقاتل مع المقاتلين؟ ولكنه لم يأس، فبقيت الأمنية في خاطره.

وجاءت خلافته واتسعت دائرة الفتوحات، بل يقول كتاب السير والتاريخ: إنه أول من فتح الفتوح. ويعنون بذلك ما تم فتحه خارج الجزيرة فكان يخطط، ويوجه ويرسل الأمراء إلى مختلف مواقع الجهاد ويتمنى مع ذلك أن يكون معهم، لكن ذلك لا يتأتى فهو مسؤول الكل والعاصمة المدينة، ومواقع الجهاد كثيرة. فلا يمكن ترك العاصمة وسياسه وإدارة الدولة، ولا يمكن المشاركة في موقع دون الآخرين وظل يتمنى الشهادة ولم ينسها، فقد روى عوف بن مالك الأشجعي، الصحابي الجليل أنه رأى رؤيا منامية في عهد الصديق -رضي الله عنه-، وممرت الأيام حتى مات الصديق، وتولى عمر، وخرج إلى الشام فرأى عمر على المنبر، وراه عمر وتذكر الرؤيا قال عوف: (فدعاني فقال: أقصص رؤياك فقصصتها، فلما قلت إنه لا يخاف في الله لومة لائم، قال: أني لأرجو أن يجعلني الله منهم. فلما قلت خليفة مستخلف قال: قد استخلفني، فأسأله

أن يعينني على ما ولايني. فلما ذكرت شهيداً مستشهد قال: أنى لي بالشهادة وأنا بين أظهركم، تغزون ولا أغزو؟ ثم قال: يأتي بها الله أنى شاء يأتي بها الله أنى شاء^(١).

تثبت هذه الرواية للرؤيا الصادقة أنه كان يتوق للشهادة ويرجوها ولا يستبعد ما دام الله يعلم صدق نيته ورغبته، وما دام الله قادراً على تحقيقها.

حرص الفاروق على إقامة العدل بين الناس، ورفع راية الجهاد ونشر نور الإسلام في الأرض، ومع ذلك كان يتمنى الشهادة في أي وقتٍ ومكان يقدرها الله فيه^(٢).

وفرق كبير بين تمنى الشهادة في ميدان القتال أو نتيجة عدوان وبين من يتمنى الموت أو يلقي بنفسه إلى تهلكة لينال الشهادة. فالأولى ترضي الله سبحانه وتعالى وترفع صاحبها درجات إلى مصاف النبيين والصديقين، والثانية تغضب الله تعالى وتؤدي بصاحبها إلى أسفل سافلين. فأمنية عمر لم تكن للموت، وإنما الشهادة في سبيل الله التي يصاحبها الموت حتماً.

ونالها عمر في أشرف مكان وعلى أفضل حال وعلى يد أفجر الرجال من لا يعرف الله ولا الإسلام، الخبيث أبو لؤلؤة المجوسي.

(١) محب الدين الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة (٢/ ٣٠٥) وفتح الباري لابن حجر، مرجع سابق (٤/ ١٠١).

(٢) يضاف إلى ما ذكرنا استشهاده على حرصه وتمنيه الشهادة ما رواه سعيد ابن المسيب أن عمر لما نفر من منى أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة من البطحاء، فألقى عليها طرف رداءه، ثم استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء، ثم قال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي، فأقبضني إليك غير مضيع ولا مفطر، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك. فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن. وهذه الرواية فيها الجزء الثاني في صحيح البخاري (٣/ ٢٣) رقم: ١٨٩٠، والجزء الآخر انظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة لمحب الدين الطبري (٢/ ٤٠٥) وفتح الباري لابن حجر (١/ ٣٥٨) مراجع سابقة.

المطلب الثاني:

الآثار السلبية لمقتل عمر على الإسلام والمسلمين

كان الفاروق قد بلغ من العمر الثالثة والستين على الأرجح، وكان قد حكم في خلافته الراشدة عشر سنين وشارك في الأمر في عهد الصديق سنتين ونصفاً، إذ كان مستشاره الأول. وشارك في عهد الرسول منذ قيام الدولة في المدينة عشر سنين، فكان بين يدي رسول الله (ﷺ) سيفاً مسلولاً، ومستشاراً ثانياً بعد الصديق، يُستشار في أهم الأمور، وهو العبقرى الذي ليس له نظير بنص حديث البشير النذير^(١).

فكان بعد هذه التجربة الطويلة والجهاد المتواصل والعناء الشديد من أجل أمته ودينه وأداء أمانته التي حملتها قد اشتاق للقاء بربه، كما أظهر ذلك بعد إتمامه للحج (آخر حجة حجها بالناس) وكل ما يتمناه أن يلقى الله شهيداً، فإذا جاءت الشهادة، وقد سبقتها البشارة بالجنة من رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌّ يوحى، فقد تمت السعادة المنشودة مقدمة لسعادة أبدية فهو لم يفارق الدنيا حزناً عليها، ولا خسر فيها، بل توجت أعماله وفضائله بالشهادة.

لكن القاتل خسر الدنيا والأخرة، والذين دفعوه لم يتحقق لهم هدم الإسلام، وما عاد كسرى ولا ملكه، ولا عاد اليهود إلى خيبر ولن يعودوا إلى يوم القيامة، إن شاء الله، لكن الأمة الإسلامية خسرت دون شك، وقد تجلت تلك الخسارة في عدة مظاهر، منها:

١. بدأت أزمة اللحظة الأولى من مقتل عمر بالانحدار الأمني، الأمن الذي بلغ قمته في خلافة عمر، وهذه هي طبيعة الحياة الدنيوية بكل ما فيها فأى شيء يبلغ تمامه، يبدأ من جانبي قمته تناقص:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنساناً
هي الأمور كما شاهدها دولٌ
من سره زمن ساءته أزمان! (٢)

(١) قد سبقنا الإشارة إلى الحديث في ذلك في مكان سابق.

(٢) الأبيات لأبي البقاء الرندي الأندلسي يرثي بها ابنه، انظر: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٤/ ٤٨٧).

فما إن بلغ الأمن في عهد عمر مبلغه وتمامه حتى فوجئ المسلمون بقتل الفاروق، والقتل ذاته كان علامة كبرى على بداية مرحلة زمنية مختلفة، فكر القريب والبعيد والصديق والعدو في مستقبل الأمة بعد عمر، كل فكر بطريقته المبنية على وضعه ونظريته للإسلام ووحدة الأمة، فمن كان طامعاً بزعزعة أمن الأمة ووحدتها ظن بأن الباب قد فتح لذلك، ومن كان واثقاً بمتانة إيمان الناس ووحدتهم وثباتهم على الحق ظن في نفسه خيراً ووطن نفسه لأن يسير تحت الراية الجديدة يحملها من يحملها، فالحق أبلج، ولا يموت بموت أحد حتى رسول الله (ﷺ) { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً } (آل عمران: ١٤٤).

فعمر ذو العبقريّة الفريدة، والسيرة القوية الحميدة قد ترك فراغاً دون شك، والضعف أمنياً وسياسة وإدارة سيظهر مهما كان قليلاً غير خطير، مهما كان المتولي بعده.

٢. لقد انكسر باب الحصن؟! لقد كان الصحابة يرون أن عمر بن الخطاب سدّ منيع أمام المخاطر والفتن، لا يمكن لشيء منها أن يصل إلى الأمة وهذا الباب الساد قائم، فاذا فتح كسراً بدأت قرونها تظهر. وهذا ما قاله حذيفة بن اليمان حينما سأله عمر عن الفتن، وكان حذيفة عارفاً من بين الصحابة بعلم المنافقين وأسرارهم وفضائحتهم، وكان يحفظ سر رسول الله، وكان عليماً بأخبار الفتن إذ كان يسأل رسول الله (ﷺ) عنها مخافة الوقوع فيها، فهي الشر الذي كان يخاف الوقوع فيه، وكان عمر يعلم عن حذيفة ذلك. سأل الفاروق حذيفة مرة عن الفتن التي تموج موج البحر، فقال له حذيفة مالك ولها يا أمير المؤمنين؟ إن بينك وبينها بابا مُعَلَّقَا، قال: فيكسّر الباب أو يفتح؟ قال: قلت: لا، بل يُكسّر، قال: ذاك أحرى أن

لا يُعْلَق أبداً^(١) . وربما كان الأكثر من الصحابة ينظرون النظرة نفسها، وقد جاء الحديث فصدق ذلك.

لقد احتار الصحابة وغيرهم بعد قتل عمر، وتصوروا عظم الحدث، وما ذهلوا بشيء بعد وفاة رسول الله كمثل ما ذهلوا من هذا الحدث، وحق لهم ذلك، ولذلك استغرق اختيار البديل بعده وقتاً طويلاً، وجهوداً مضنية ممن رشح نفسه للقيام بهمة استجلاء الآراء من المسلمين ومعرفة رغبتهم بمن يخلف عمر، فكان التسديد والتقريب حتى اختير عثمان ابن عفان وهو من هو! لكنه لم يسد الفراغ الذي تركه الفاروق بل قارب وجد واجتهد واستقام الأمر مع وجود خوف وتخوف من بعض الاجتهادات . لكن سلكها مجتهداً، كتقريب بني أمية والاستعانة بكثير منهم . وهم رجال . لكن الناس قد شعروا بل نظروا لفروق بين الفاروق والخليفة الثالث عثمان، فما قرب عمر أحداً من أقاربه وقبيلته بني عدي، وكان فيهم رجال يمكن الاستعانة بهم . ولا شك أن لعثمان مبررات للاستعانة بالكفاءات والقدرات بصرف النظر عن انتمائهم القبلي، أو اختلاف مكانتهم من حيث التقدم أو التأخر إسلاماً . وقد كانت هذه سنة رسول الله (ﷺ) والصديق-رضي الله عنه- بعده . فقد كان كل منهما يقدم الأكثر كفاءة حتى لو كان متأخراً إسلاماً، تأليفاً له ولقبيلته، واستفادة من قوته وشجاعته، وردعاً للخصوم الأشداء داخل الجزيرة وخارجها . وقد كانت الضرورة تقتضي ذلك إذ لم تكن الدولة قد وصلت إلى القوة والاتساع الذي بلغته أيام عمر وعثمان ومن بعدهما .

فكانت عين الحكمة ما فعله رسول الله والصديق من تولية خالد بن الوليد وكان أخرى بعثمان أن يسلك سلوك عمر في هذه المسألة إذ الضمان والأمان في ذلك موجودان، لكن عثمان . -رضي الله عنه- . رجع إلى سياسة الرسول (ﷺ) والصديق . -رضي الله عنه- . في مسألة اختيار وتعيين الولاة، ولا يلام على ذلك فتلك سياسة مقبولة، معقولة يقبلها الاجتهاد ومصلحة العباد .

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي، مرجع سابق، باب ما جاء في إخبار النبي بالفتنة التي تموج موج البحر (٦/ ٣٨٦)

المبحث الثاني:

أعمال وتوجيهات عمر بعد مقتله

المطلب الأول:

استمرار عمر في تحمل المسؤولية والترتيب للأمة

رُغم الطعنات القاتلة التي تلقاها عمر من ذلك المجوسي، فإنه بقي بكامل وعيه وقدرته العقلية، مع تعرضه لفترات قليلة للإغماء والإعياء لقوة نزف دمه، وهول الأوجاع التي ما كان لها في ذلك الوقت دواء ناجح، فبقي مستشعراً المسؤولية مهتماً بشؤون الأمة أكثر من انشغاله واهتمامه بنفسه، ممارساً لأعماله الممكنة وهو على فراش الموت. فكان من أعماله في تسيير أمر الأمة في تلك الحال، ما يلي:

١. أول عمل عمله بعد قتله أن حافظ على استمرار صلاة الجماعة في صلاة الفجر التي كان قد بدأها، فأخذ بيد عبدالرحمن ابن عوف الذي كان وراءه، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة فقدمه ليكمل بالناس الصلاة، ولم ير هو ولا غيره من الصحابة أن الحدث الخطير عذر لترك الجماعة، بل حرص على إتمامها فتمت^(١)، أما هو فإنه قد سقط مغشياً عليه، فحمل إلى بيته، فكان أول عمل عمله بعد صحوته من غشيته أن توضأ فصلى الفجر وقال: (لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة)^(٢).

٢. ثم كلف مستشاره وموضع ثقته حبر الأمة عبدالله ابن عباس . -رضي الله عنه- ما . بتتبع الخبر ومعرفة الجاني، فنهض ابن عباس وبحث وسرعان ما جاء بالخبر الذي أراح عمر الشهيد، فحينما رجع ابن عباس بالخبر أن القاتل غلام المغيرة ابن شعبة (أبو لؤلؤة) قال عمر: (الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يدي رجل

(١) الرياض النضرة المحب الطبري، مرجع سابق (٤٠٦/٢)

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام (٣/ ٢٨٠)

- يدعي الايمان ولم يسجد لله سجدة^(١) وفي رواية أنه قال (الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط، ما كانت العرب لتقتلني)^(٢). ثم تذكر أنه كان يكره أن يدخل مثل هؤلاء مدينة رسول الله، يستوطنونها ويعملون فيها، فهي مدينة طيبة مقدسة محرمة على غير المسلمين، لكنه قد غلب في السماح للبعض تحت مشورة بعض الصحابة ورغبة بعض آخر.
٣. وجه إلى ابن عباس تكليفاً آخر يتصل بمعرفة موقف الناس، أفيهم مظلومون قد فرحوا بمقتله، فقال له: (أحب أن تعلم لي أمر الناس، فخرج ابن عباس إليهم ثم رجع فقال: يا أمير المؤمنين ما أتيت على مألٍ من المسلمين إلا يبكون، فكأنما فقدوا اليوم أبناءهم)^(٣).
٤. ثم اتخذ قراراً بتكليف من يصلي بالناس ابتداءً من صلاة ظهر يوم الاعتداء، لئلا يفهم أحد أنه لو قدم أحد المهاجرين فإنه قد رشحه للخلافة خاصة إذا كان أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد كان يرى ما رآه الصديق في سقيفة بني ساعدة أن أمر الخلافة لا يكون إلا في قريش للأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك، ولنظرة الناس في ذلك الوقت لقريش ومكانتها... لذلك كلف الصحابي الجليل صهيب بن سنان الرومي بالصلاة بالناس ثلاثة أيام إلى أن يختار الناس خليفة^(٤)، فإذا انتهوا قبل ثلاثة أيام انتهت مهمة صهيب إذ إن صاحب الإمامة الكبرى هو صاحب الإمامة الصغرى في المسجد الجامع.
٥. ثم التفت إلى الأمر الأكبر من ذلك كله (مستقبل الأمة بعده) ورأى أن من واجباته الأخيرة قبل موته وضع معالم لمن بعده لاختيار الخليفة فما بقي من يجمع عليه

(١) انظر تفاصيل ذلك في البداية والنهاية، مرجع سابق، (١٥٥ / ٧)

(٢) انظر: الطبقات الكبرى، مرجع سابق، (٢٦٣ / ٣)

(٣) ابن عساکر، تاريخ دمشق (٤٤ / ٤٤١)

(٤) انظر: ابن الأثير، أسد الغابة (٣ / ٥٢٢). والبداية والنهاية، مرجع سابق، (٧ / ١٦٣)

كالصديق وعمر، بل هناك أمور تقتضي التفكير والترتيب لئلا ينفطر العقد، من تلك الأمور:

أ- أن الجماعة الباقية من كبار الصحابة متقاربون جداً: فضلاً وسابقاً وقدرة ومكانةً بين الناس فيصعب الاختيار، أو الوصية لأحدهم تتلوها بيعة كما حدث من الصديق لعمر (عهد)، ويصعب أيضاً ترك الأمر شورى كما تركه رسول الله (ﷺ) دون وصية ولا إشارة، فقد كان فيهم أبو بكر وعمر. (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر)، فأتخذ عمر طريقاً مغايراً أقرب إلى ما صنعه رسول الله، ترك الأمر شورى مع وضع نظام للاختيار. سيأتي تفصيل ذلك في مكانه إن شاء الله ..

ب- ما قد حدث من ثلم في سير السياسة والإدارة، فاغتيال عمر يحتاج إلى حزم الأمور وسرعة لملمة الجراح وتوجيه السير من جديد، فليس الوضع كما تركه رسول الله (ﷺ) ولا كما تركه الصديق بعد انتهاء حروب الردة وبداية الانطلاقة خارج الجزيرة، واليوم نحن أمام دولة عظمى قد أرسى عظمتها عمر حتى أصبحت الأولى في العالم، وحدث لم يسبق أن كان من قبل، فظاهره ينذر بفتح باب الفتن، وفيه عبقرية وحزم عمر يقتضي الترتيب، دون الإخلال باتباع سنة، بل إنه بترتيبه الذي فعله قد طبق السنة. ترك الناس بلا وصية لأحد، وهذا ما فعله رسول الله (ﷺ) وأهتم بتنفيذ الشورى وهذا أهم مقصد من مقاصد السياسة الشرعية وميزة تتميز بها عن سائر الأنظمة الأخرى.

٦- آراءً تسمع ومبدأً يُتبع! لقد شعر أكثر الصحابة شعور عمر بخطورة الموقف، فكان للطبيب الخبير الذي قد غلب الظن عنده أن عمر مفارق رأى أن لا بد من الترتيب، وربما أراد الوصية العامة (بما له وما عليه). ولكن كانت هناك آراء استمع

لها عمر قبل أن يبت في الأمر أو يضع له ترتيباً نهائياً، فاستمع للآراء، وهي كما يلي^(١):

أ- رأي بأن يحدد الخليفة بعده وليبايعه الناس، فيسيرون في نصرته وطاعته كما كانوا.

ب- وكان لبعض المحبين لعمر وآله رأي وهو أن يوصي بها لأبنة عبدالله بن عمر العالم التقي الورع، وكان صاحب هذا الرأي ذا نية صادقة، وما أظنه كان مترلفاً، أو قاصداً تحقيق منفعة لشخصه لكنه رأى ساذجاً أنكره عمر.

فاستمع لتلك الآراء كلها بعقل وفهم، ولم يستجب إلا لرأي الطبيب الذي كان بمثابة تذكير له بأن يعهد فأجله قد قرب، فأخذ بذلك ورتب ذلك الترتيب العجيب الذي سنقف معه إن شاء الله في مكانه. وأما الرأي القائل بأن يحدد أسم الخليفة بعده، فإنه لم ير تفضيلاً لسنة أبي بكر على ما سنه رسولنا عليه الصلاة والسلام الذي ترك الأمر شورى، مع أن الأخذ بسنة أبي بكر جائز شرعاً وسياسة لو ترجحت المصلحة كما ترجحت لدى الصديق - رضي الله عنه - . وليس في ذلك مخالفة حقيقية لسنة رسول الله، فالقصد تحقيق المصلحة للدين وللأمة. لكنه كما يصف الوضع أبنة عبدالله، قال: دخلت على حفصة (أخته أم المؤمنين) (وضفائرها) تنطف (تقطر) ماءً، فقالت: علمت أن أباك غير مستخلف، فقلت لها ما كان ليفعل، قالت: إنه فاعل. فحلفت أن أكلمه في ذلك، فغدوت عليه فلم أكلمه، فكنت كأنما أحمل يميني جبلاً حتى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال الناس، وأنا أخبره، ثم قلت له: إنني سمعت الناس يقولون مقالة، فأليت أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف،

(١) انظر: تفاصيل تلك الآراء في الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (٢/ ٥٨٠)، وابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/

٤٤٠) وتاريخ الخلفاء، مرجع سابق، (ص: ١١٦).

أرأيت لو أنك بعثت إلى قيم أرضك، ألم تكن تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض، قال: بلى، قلت: أرأيت لو بعثت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلاً حتى يرجع؟ فماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده؟ فأصابته كآبة، ثم نكس رأسه طويلاً، ثم رفع رأسه وقال: إن الله تعالى حافظ دينه، وإن لم أفعل فقد سُن لي، إن لم أستخلف فإن رسول الله (ﷺ) لم يستخلف، وإن أستخلف فقد استخلف أبو بكر، فعلمت أنه لا يعدل أحداً برسول الله (ﷺ) وأنه غير مستخلف^(١).

ومن هذا الخير نستنتج:

١. أن حفصة أم المؤمنين كانت أكثر فهماً لطبيعة وفقه عمر فأكدت أنه لن يستخلف.
٢. أن عبدالله بن عمر وهو الفقيه الورع الحريص كان ينظر للأمر من جهة أهمية الاستخلاف وكيف لعمر أن يضيع الناس فيتركهم كذلك.
٣. التهييب الذي كان عليه عبدالله أمام أبيه كيف يسأله، كيف يشير عليه، لكنه غامر.
٤. أن عبدالله ربما كان قد تأكد أنه مستبعد من الوصية وإلا فلن يعرض نفسه للوم ولئلا يتهم بأنه حريص عليها أو يظنها صائرة إليه.
٥. إجابة عمر السديدة التي بنى عليها فقهه السياسي وتمسكه بالأولى وثقته بالله الذي تكفل بحفظ هذا الدين، وإتمام نوره وينشره وحفظه وإظهاره على الدين كله. فاختار أن يترك الأمر شورى كما تركه رسول الله. واجتهد في الترتيب لتلك

(١) البخاري باب الإستخلاف، مرجع سابق، (٩/ ٨١) رقم: ٧٢١٨.

الشورى من باب الترشيح للتبصير والتنوير، وإن حصر الترشيح في عدد معين، لكنه عدد فريد.

أما جواب عمر لمن نصحه بأبنة عبدالله خليفة فقد كان مختلفاً وكان الوضع يقتضي بياناً واضحاً، إبعاداً للأمر عن التوريث. فإنه لما جاء المغيرة بن شعبه وهو يفكر في أمر الأمة وقال له: أدلك عليه عبدالله بن عمر أجابه بغضب: قاتلك الله، والله ما أردت بهذا وجه الله، لا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد يسأل عن أمر أمة محمد (ﷺ) أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن غادرت كفافاً لا وزر ولا أجر أني لسعيد^(١). هكذا أجابه صادقاً، لم يفرح بالمقترح، وفي رواية أنه قال له زيادة: كيف أجعلها في رجل لم يحسن تطبيق زوجته^(٢)؟ أراد أن يقلل من شأنه لئلا يستهويه وهو يعرض بذلك بما فعله عبدالله حين طلق زوجته وهي حائض، وكان لا يدري أنه لا يجوز فلم يسبق في ذلك تشريع فعلمه رسول الله قائلاً لعمر: مره فليراجعها، ثم يطلقها في طهر لم يمسه^(٣). أي إن أراد.

وهكذا رأينا عمر يستمع الآراء وهو على فراش الموت، ولم يستهوه منها ما قد استهوى غيره، كما حدث بعد الخلافة الراشدة إلى يومنا، وربما إلى يوم القيامة. فقرر في لحظاته الأخيرة ما يرضى الله عز وجل، ويصلح الأمة. فرضى الله عنه وأرضاه،

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري، مرجع سابق (٢/ ٥٨٠) وما بعدها. والكامل في التاريخ لابن الأثير، مرجع سابق (٢/ ٤٤٠) وما بعدها..

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي، مرجع سابق (ص: ١١٦)

(٣) صحيح مسلم، مرجع سابق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها (٢/ ١٠٩٣) رقم: ١٤٧١.

وهنيئاً له تلك السيرة الحميدة، والمسيرة المجيدة والبشرى بالجنة، والشهادة في محراب رسول الله في أفضل حال.

المطلب الثاني:

نظام انتخابي فريد (بالنسبة لعصره)

وهذا المطلب يتبع الذي قبله، ولكن رأيت أن أجعله مستقلاً لأهميته ولجلالة الأعمال التي يتضمنها، وهو سيتضمن أهم ما عمله عمر بعد مقتله، قبل وفاته؛ ذلك أن موضوع اختيار الحاكم وتنصيبه على الأمة أمر ليس باليسير، ولا بالأمر الهين الذي يمكن التساهل فيه، بل إنه خلافة عن صاحب الرسالة..، فلا بد أن يكون في غاية الكفاءة والعدالة، ذا مكانة عليا بين من سيسوسهم أدرك ذلك المسلمون بعد موت رسول الله (ﷺ) فسارعوا قبل دفنه لاختيار من يخلفه في حكم الأمة وتبليغ دين الله، والذود عنه وعن بيعة المسلمين ووحدهم، فاختاروا الصديق -رضي الله عنه- لمكانته من رسول الله ومكانته وأثره في الإسلام، ولم يكن عليه كبيرٌ خلاف، إلا ما كان من اجتهاد بعض الأنصار ثم عادوا وبايعوا، واجتهاد بعض بني هاشم ثم عادوا وبايعوا مختارين، ولم تتأخر بيعتهم كما زعم بعض المؤرخين^(١).

(١) وردت أخبار كثيرة في شأن تأخر علي والزبير عن مبايعة الصديق، وتمسك بذلك الرافضة ومعظم هذه الأخبار ليست بصحيحة، وقد جاءت روايات صحيحة السند تفيد بأن علياً والزبير - رضي الله عنهما - بايعا الصديق في أول الأمر، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: لما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قام خطباء الأنصار.. فذكر بيعة السقيفة ثم قال: ثم انطلقوا فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم فلم ير علياً، فسأل عنه، فقام أناس من الأنصار، فأتوا به، فقال أبو بكر: ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين، فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه، ثم لم ير الزبير بن العوام، فسأل عنه حتى جاءوا به، فقال: ابن عمّة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين، فقال مثل قول علي: لا تثريب يا خليفة رسول الله فبايعاه. انظر ذلك في السنن الكبرى للبيهقي، مرجع سابق، باب الأئمة من قريش (٢٤٧/٨) رقم: ١٦٥٣٨، وفي صحيح مسلم روايات في باب لا نورث ما تركنا صدقة أحاديث ابتداء من رقم (١٧٥٩) أن علياً تأخرت بيعته ستة أشهر حتى ماتت فاطمة -رضي الله عنها- وكانت غاضبة من أبي بكر بسبب الميراث الذي كانت تظنه حقاً لها بعد أبيها -صلى الله عليه وسلم-

واستشعر المسلمون أهمية المسارعة إلى تنصيب الخليفة بعد الصديق قبل دفنه، إذ هياً لهم مرشحاً واحداً لبياعوه أو يختاروا غيره فلم يتجاوزوا ترشيح الصديق لعمر، لأنهم لم يجدوا أولى منه ولم يختلف عليه اثنان فسارعوا إلى تصديق تزكية الصديق وبيعوا عمر دون تردد من أحد.

أما قبل الإسلام عند العرب وغيرهم فلم يكن هناك نظام متبع لاختيار الحاكم يسير عليه الناس في اختيار حكامهم، وما اشتهر من شورى ملكة سبأ لأهل الحل والعقد من قومها، وسجل ذلك القرآن الكريم {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ} [النمل: ٣٢] ، فإن كل ما يفهم من ذلك أنها كانت ذات عقل راجح وعدل تستشير في الأمور الخطيرة، وقد تلتزم مشورتهم وقد لا تلتزم، وفي هذه الحالة سجل القرآن ذلك بأنها لم تلتزم ذلك الرأي الذي كان يميل إلى الصمود والاستقواء للمواجهة، بل أخذت برأيها الظاهر مصلحته، وأقنعتهم بحجتها، رغم أنهم قد فوضوها ثقة بقدرتها وفهمها: {وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} [النمل: ٣٣].

فالشورى في هذه الدولة ما كانت قد وجدت لتولية الحاكم وعزله مراعية في ذلك ظلمه وعدله، أو وفق عقد اجتماعي يحدد شروطاً للحاكم، ومدة ولايته إلى غير ذلك مما تستلزمه الولاية، وما عرف في مكة بين قبائل قريش كان شبيهاً بذلك ولو لم يصل إلى مستواه، لكنهم كانوا يتشاورون في أمور مكة ومصلحة القبائل في مكان سموه دار الندوة، وجعلوا شروطاً يتصف بها من يراد له أن يكون عضواً في هذه الندوة: سناً وعقلاً وفهماً، فلا يكون عضواً فيها إلا من بلغ سن الأربعين وكان مشهوراً مشهوداً له بالعقل الجزل والفهم النير. لكننا لم نجد أنهم كانوا يمارسون الاختيار والانتخاب على مستوى جميع الناس المتأثرين المشاركين في الوضع القائم.

وما كانت الأوضاع في بقية جزيرة العرب وخارجها تصل إلى هذا الوضع الجيد في اليمن ومكة. بل كانت دويلات تنشأ داخل الجزيرة ودول قائمة خارجها كلها تقوم على الاستبداد وظلم العباد.

أما نظام الحكم في الإسلام فقد قام لإقامة العدل والإحسان بين الناس جميعاً: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: ٥٨]، قام قبل عمر على يد

رسول الله (ﷺ) ثم الصديق. لكنه لم يقم في عهدهما نظام يفصل لانتخاب الحاكم، فكان ذلك من صنيع عمر وكان ذلك أول نظام انتخابي عرفته البشرية^(١).

معالم الإجراءات الانتخابية التي رسمها عمر:

بدأت تلك المعالم تبرز باتخاذ عمر قرار تكوين ذلك المجلس الأعلى الذي ستبدأ مداولة الآراء فيه فيما بين أقطابه ثم تخرج لمعرفة توجهات الناس الموجودين في عاصمة الدولة وكانوا يمثلون كل تكوينات الأمة من كل قبائلها وفئاتها خاصة ذوي الرأي وشورى الخليفة الذين كان يعتمد عليهم قرار عمر:

قرر الفاروق وهو على فراش الموت أن لا يوصي بالخلافة لأحد وأن يترك الناس كما تركهم رسول الله (ﷺ) فجمعهم على خيرهم، كما اتخذ قرارين آخرين مهمين لإعانة الأمة على اختيار الخليفة بعده:

القرار الأول: تكوين المجلس الذي أشرنا إليه آنفاً، وقد تكون من كل من:

عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والزيبر ابن العوام وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص. تنحصر فيهم الخلافة والمداولة المبدئية، وهؤلاء كلهم من قريش، ومن السابقين، والعشرة المبشرين بالجنة، واستثنى ابن عمه سعيد بن زيد.

القرار الثاني: في الإجراءات التي تُتبع لاختيار الخليفة، وهذا القرار هو الذي

تتجلى فيه قوة وعبقورية وحرص عمر أكثر، وهو ما سنقف معه مادة مادة.

ويجدر بنا أولاً أن نأتي بالنص الصحيح الذي رواه البخاري، ويتضمن ما رسمه

عمر في هذه المسألة:

روى البخاري عن عمرو بن ميمون قال: (رأيت عمر بن الخطاب . -رضي الله

عنه- . قبل أن يصاب بأيام بالمدينة ووقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف،

(١) إن كانت قد قامت بعض الديمقراطيات في اليونان قبل الميلاد. بحوالي خمسمائة سنة، فإنها لم تكن بالشكل الذي ثبته الإسلام وأرساه مفصلاً عمر فقد جمع بين الرابانية والأخلاقية وتوجيه السلطة للأمة.

قال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا حملتما الأرض مالا تطبيق؟ قالوا: حملناها أمراً هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: أنظرا أن تكونا حملتما الأرض مالا تطبيق^(١). قالوا: لا. فقال عمر: لئن سلمني الله لأدعنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً. قال فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب. قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبدالله بن عباس - غداة أصيب - وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خلاً تقدم فكبر وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه فطار العليج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبدالرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي رأى وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله. فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس أنظر من قتلني. فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة. قال: الصنع؟ قال: نعم. قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل ميتي بيد رجل يدعي الإسلام، قد كنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة. وكان العباس أكثرهم رقيقاً. فقال: إن شئت فعلتُ - أي إن شئت قتلنا، قال: كذبت، بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلكم، وحجوا حجكم؟ فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه. فأتي بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه، فخرج من جرحه فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله (ﷺ)

(١) البخاري، مرجع سابق، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان (١٥ / ٥) رقم: ٣٧٠٠، وكان عمر قد بعث حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف إلى أرض السواد (العراق) ليمسحا الأرض، لمعرفة مساحتها المزروعة ويضعها عليها الخراج للدولة في حدود ما تحتل.

وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. فقال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي. فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام. قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك. يا عبدالله ابن عمر، أنظر ما علي من الدين. فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفي له مال آل عمر فأدوا من أموالهم، وإلا فسل بني عدي ابن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فأد عني هذا المال. انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عمر عليك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فسلم وأستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال يقرأ عمر بن الخطاب عليك السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه. فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوترنه به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل: هذا عبدالله بن عمر قد جاء. قال: أرفعوني فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت. قال: الحمد لله ما كان من شيء أهم إلي من ذلك. فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين. وجاءت أم المؤمنين حفصة، والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال، فولجت داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل. فقالوا أوصي يا أمير المؤمنين استخلف قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر. أو الرهط. الذين توفي رسول الله (ﷺ) وهو عنهم راضٍ: فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبدالرحمن، وقال: يشهدكم عبدالله ابن عمر، وليس له من الأمر شيء. كهيئة التعزية له. فأن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله عن عجزٍ أو خيانة. وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يُعفو عن مسيئتهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم ردة الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم، وأوصيه، بذمة

الله وذمة رسول الله (ﷺ) أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم، فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبدالله بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطاب. قالت: أدخلوه، فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه. فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبدالرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي. فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبدالرحمن بن عوف. فقال عبدالرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه؟ فأسكت الشيخان. فقال عبدالرحمن: أفتجعلونه إليّ والله عليّ أن لا آلوأ عن أفضلكم؟ قالوا: نعم، فأخذ بيد أحدهما. علي. فقال: لك قرابة من رسول الله (ﷺ) والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن، ولتطيعن. ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه^(١).

عودة إلى المعالم الانتخابية التي رسمها عمر الفاروق، وتلك المعالم هي:

أ - حصره الخلافة. ترشيحاً. في ستة:

لقد كان هذا القرار حكيماً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فالوضع يختلف عما كان عليه عند وفاة رسول الله (ﷺ) إذ كان في الأمة الصديق الذي يتقدم الأمة بمسافة هائلة، فلا خوف. وعند وفاة الصديق كان في الأمة عمر الفاروق والذي يتقدم غيره كثيراً في أمور كثيرة، ولذلك لم يختلفوا عليه. لكن الوضع اليوم يقتضي سياسة مختلفة لصالح الأمة والملة فقد نظر الفاروق بثاقب نظره أن الأمر يقتضي مزيداً من الشورى وتوسعة نطاقها، فلا يكفي هنا أن يبادر رجل ليرشح رجلاً فبايعه هو ليكون أول المبايعين كما حصل من ترشيح عمر لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، فحينذاك وهناك كانت المبادرة حكمة موفقة وكان أبو بكر للمناسبة، رجع أصحاب السقيفة إلى رأي

(١) البخاري، مرجع سابق، (١٥ / ٥) حديث رقم (٣٧٠٠).

الصدیق والفاروق وأمین الأمة أبی عبیدة، وتمت البيعة المبدئية، ثم تلتها البيعة العامة في مسجد رسول الله (ﷺ)، وقد كان مقراً لكل الأعمال الكبيرة، ولا يكفي هنا أن يرشح عمر رجلاً لتتم البيعة العامة كما فعل أبو بكر الصدیق عندما رشح عمر بعد مشاورة لأهل الرأي، فكانت بعد ذلك بيعة عامة، ولم يختلف الناس على ذلك.

توسط عمر بين حالة ما فعله رسول الله (ﷺ) إذ ترك الأمر شورى، وحالة ما فعله الصدیق الذي أوصى ورشح وشاور وترك الأمر للبيعة والناس مختارون لا مجبرون، لم يترك الفاروق الأمر شورى بدون ترتيب، ولا أخذ بأسلوب الصدیق^(١)، بل نظر إلى الصالحين للخلافة من المهاجرين الأولين، البدرين المبشرين بالجنة، الذين لا يوجد لهم أمثال في الأمة. ونظر إلى أن كلاً منهم صالح للخلافة من حيث الكفاءة والمقدرة والقبول لدى كافة الناس، واستثنى ابن عمه سعيد بن زيد؟!

علي بن أبي طالب - عثمان بن عفان - الزبير بن العوام - عبدالرحمن بن عوف - طلحة بن عبید الله - سعد بن أبي وقاص - فكل منهم مهاجر - بدري - مبشر بالجنة. له أعمال عظيمة دعوة وجهاداً وتضحية.

ب - الإرشاد إلى ضرورة وجود مقر الإجراءات الانتخابية وإدارتها والمشاورة:

لقد بينَّ عُمر ضرورة وجود المكان الذي يجتمعون فيه، ولم يحدد مكاناً معيناً^(٢) لغلا يظن بأن تحديد بيت أحد من الستة ترشيح له، أو تغليب لأهليته، فأمرهم بأن يجتمعوا في بيت، وكأنه كان يعلم أن مقر الاجتماع لن يكون إلا في بيت من سينسحب من الترشيح، ومن سيكون له الدور الأكبر في إنجاح الانتخابات، وهذا ما كان من عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - الذي تولى إدارة الأمور حتى تم اختيار الخليفة. فإنه بدأ باختبار الخمسة غيره: أيهم يخرج من الترشيح، ثم بادر هو

(١) ينظر في ذلك كله: فتح الباري، مرجع سابق، (١٣ / ٢٠٥-٢١٠).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، مرجع سابق، (٣ / ٣٠٤).

فخرج منها مرشحاً نفسه للقيام بدور التقريب بينهم ثم الانطلاق إلى سائر الناس في المدينة لاستطلاع آرائهم، ورغبتهم بمن يحكمهم بعد عمر.

وبمبادرة عبد الرحمن بالخروج منها بادر الزبير بن العوام فخرج منها وجعل أمره إلى علي، وخرج طلحة بن عبيد الله وجعل أمره إلى عثمان، وخرج سعد بن أبي وقاص وجعل أمره إلى عبد الرحمن بن عوف فبقي اثنان: عثمان وعلي فكان التنافس بينهما، فكان عبد الرحمن بن عوف الرجل الذي رأس وأدار عملية الانتخابات من أولها إلى آخرها، في حياد كامل، وحرص على الوصول إلى نتيجة الشورى المرضية للمسلمين.

وقد كان عند حسن ظن عمر الذي قال عنه: (ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه) (١). وقد كان أمره إذا اختلفوا أن يكونوا مع الفريق الذي فيه عبد الرحمن بن عوف (٢).

ج- تعيين مستشار وحكم لهؤلاء الستة المرشحين:

عين عمر-رضي الله عنه- وهو على فراش الموت، بعد ترشيحه أولئك الستة ابنه عبد الله بن عمر مستشاراً لهم، وليس له من الأمر شيء، ولا صوت له في الانتخابات، ورشحه حكماً لو اختلفوا (٣)، وكان لصنيعه ذلك سببان، في رأي الباحث:

السبب الأول: ما عند عبد الله من علم وفهم وتقوى وورع ومكانة، وبعد عن الحرص على السلطة.

السبب الثاني: هو أن عبد الله بن عمر وكافة أهل عمر في حزن شديد، وحسرة بالغة لما أصابهم من مصاب عمر، فكان الفاروق أراد بذلك تسلياً لعبد الله وآل بيت عمر بهذا التعيين (٤). وهي مسألة مؤقتة، تنتهي بانتهاء الانتخابات، فإن شاء الخليفة

(١) تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، (٢/ ٥٨١)

(٢) انظر: الكامل لابن الأثير، مرجع سابق، (٢/ ٤٤٢)

(٣) انظر: المرجع السابق نفس الموضوع

(٤) وهو ما أشارت له رواية البخاري سابقاً

بعده أن يجعله مستشاراً فإليه يصدر الأمر هو غير ملزم بذلك. فأدى عبد الله المهمة، ولازم المرشحين الفترة كلها، ناصحاً موجهاً مخلصاً لا يألو اجتهاداً لتسديد وترشيد المرشحين.

د - تحديد إمام يصلي بالناس مدة الانتخابات:

عين الفاروق لذلك الصحابي الجليل صهيب بن سنان الرومي، وحرص أن لا يكون أحد الستة إماماً لما يعلمه ويعلم الصحابة من مكانة الصلاة والإمامة، فالذي سيقدم للإمامة سيشار إليه أنه هو المرشح لذلك منعها عمر عن الجميع.

وقد علم عمر وصحابة رسول الله أن رسول الله حينما اشتد به المرض وأيقن أنه سيلحق بالرفيق الأعلى عين الصديق إماماً للصلاة، وأصر على ذلك، وغضب حينما تقدم عمر فقال: يأبي الله ذلك والمسلمون يأبي الله ذلك والمسلمون، فكان أن فهم الصحابة أن الصديق هو المرشح للإمامة الكبرى، فقالوا: ارتضاه رسول الله لدينا، أفلا نرضاه لدينانا؟ فأجمعوا عليه بعد خلاف يسير لم يستمر^(١).

فلو أن عمر حدد أحد الستة للإمامة في الصلاة لكان مؤشراً على ترشيحه بالدرجة الأولى، وأنه المفضل لقيادة الأمة. فكان قراره تعيين صهيب الرومي يصلي بالناس مدة الانتخابات في غاية الحكمة، مع أنه خالف في ذلك ما فعله الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما فعله الصديق.

هـ - تعيين قوة أمنية لحماية الانتخابات:

بعد تحديد الفاروق للمرشحين، وتحديده ضرورة وجود مكان خاص للاجتماعات والتشاورات والإجراءات، وتعيين مستشار قد يكون حكماً وقت الحاجة، وتعيين الإمام للصلاة فترة الانتخابات، رأى بثاقب رأيه أنه مهما كان فضل المرشحين وعلمهم

(١) انظر: السنن الكبرى للبيهقي، مرجع سابق، باب الأئمة من قريش (١٧/ ٢٤٧) حديث رقم: ١٦٥٣٨. وقد مر

وتقواهم وعقولهم وحرصهم على الحق، فإنهم بشر يخطئون ويصيبون، تتباهم لحظات ضعف بشري فقد يختلفون وتتسع شقة الخلاف فلا يصلون إلى نتيجة. فاختار بطلين عظيمين، أحدهما من المهاجرين هو المقداد بن الأسود، والثاني من الأنصار هو أبو طلحة الأنصاري (زيد بن سهل بن الأسود) وكلفهما بمراقبة الانتخابات ومتابعة سيرها، ومنع أي تدخل من خارج إطار الشورى. فاستدعى المقداد وقال له: (إذا وضعتوني في قبري اجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم)، واستدعى أبا طلحة وقال له: (يا أبا طلحة إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم)^(١). ونلمح حصافة عمر في اختيار الرجلين وتكليف كل واحد بجانب من جوانب الناحية الأمانة، والتنظيمية لحكمه.

فالمقداد من المهاجرين، والمرشحون كلهم من المهاجرين، فكان أدعى أن يكلف المقداد المهاجري بمتابعتهم وجمعهم في المكان المحدد (تنظيم). وأبو طلحة أنصاري، والأنصار يشكلون الأكثرية بين سكان المدينة، ولأن المرشحين ليس منهم أحد من الأنصار، فكان من الحكمة أن تكون القوة المراقبة منهم، حتى لا تكون هناك هوادة ولا لين في منع الجميع من التأخر عن المدة المحددة أو من الاختلاف الذي يخل بالأخوة، ويؤثر في سير الانتخابات، والحقيقة أن المهمة واحدة متكاملة بما يؤديه كل من المقداد وأبي طلحة.

و - تحديد مدة الانتخابات:

نجد دول العالم اليوم التي ارتضت التغيير عن طريق الانتخابات بصرف النظر عن اختلاف الممارسات، والجدية والهزلية، والمصادقية وغير المصادقية... نجد هذه

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري، مرجع سابق، (٢/ ٥٨١)

الدول تحدد في قوانينها الانتخابية مدة تبدأ فيها الانتخابات وتنتهي. وفي الغالب نجدتها أثنى عشرة ساعة للإدلاء بالأصوات، ومدة للفرز قد تصل إلى يومين -في المتوسط-، وقد تقصر أو تطول قليلاً، لكننا نجد في الغالب أن المدة التي يستغرقها التصويت والفرز وإعلان النتيجة ثلاثة أيام، واليوم وبعد التقدم التكنولوجي الإلكتروني قصرت مدة الفرز خاصة في البلدان التي عقل أهلها فلا يتشاكسون أثناء الفرز.

ولاشك أن النظام الانتخابي في البلدان الديمقراطية قد تطور تطوراً كبيراً، على مدى قرون نتيجة الحاجة وتطور الخبرات وتقدم الوسائل، وقد سبق عمر الفاروق بتحديد المدة التي يتم فيها اختيار الحاكم بقرون كثيرة، فقد حددها بثلاثة أيام شاملة كل الإجراءات، وكان هذا ضرورةً لأمرٍ جديد على الناس؛ فقد قال للمرشحين والمراقبين: (لا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير)^(١). فجد عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- وقد تولى إدارة الانتخابات بموافقة الجميع، ولم يهدأ له بال، ولم يسترح له حال حتى أكمل المهمة في ثلاثة أيام، وهي المدة التي حددها عمر. وابن عوف لم يقصُر مهمته على المشاورة والبقاء مع المرشحين، وإنما قضى أغلب الوقت مع الناس رجالاً ونساءً، فكانت تلك المدة كافية مع الجد والنصب الذي كابده.

ز - العقوبة الصارمة عند المخالفة أو الاختلاف المفروق:

ليس في الأنظمة الانتخابية وقوانينها العصرية عقوبات على المرشحين إن اختلفوا أو تنازعوا، حتى لو فشلوا بسبب النزاع. وكذلك ليس هناك عقوبة على من رفض النتيجة، ولا على غيرهم ممن خرجوا رافضين نتيجة الانتخابات. وإن كانت القوانين تلزم الفريق المنهزم وسائر الناس بالتسليم بالنتيجة أنى ولمن كانت، وما دامت سليمة الإجراءات، ولا يحق لأحد أن يخرج عن الدستور والقانون.

(١) انظر: المرجع السابق نفس الموضوع.

لكنَّ عمر الفاروق قد حدد عقوبة قاسية لو حاول أحد خرق الإجماع في هذه المسألة، فقد أمر القوة الأمنية والرقابية بإنزال عقوبة القتل بمن خرج رافضاً الإذعان لما توصلت إليه الشورى، كان من المرشحين أو غيرهم، هذه العقوبة التي قررها عمر في حق المخالفين نابعة من فهم خطورة التفرق وما يؤدي إليه من تمزق الأمة، وعمر الذي انتهت على يده أعظم دولة شرقية (فارس) وتراجعت على يده أعظم دولة غربية (الروم) فانزوت إلى جحرها الأول، وظهرت على يده أعظم قوة في العالم بلا منافس، والحروب قائمة شرقاً وغرباً وشمالاً، كان متخوفاً من أن يحدث شيء من خلاف يؤدي إلى الفرقة والفتن، فاتخذ تلك السياسة وهي شرعية قامت على تحري المصلحة.

وباتباع ما وضعه عمر من نظام انتخابي فريد، وقدرة عبد الرحمن بن عوف على إدارة الانتخابات بكل نزاهة وحرص على الوصول إلى الأفضل كانت النتيجة بعد ثلاثة أيام: اختيار عثمان بن عفان -رضي الله عنه- خليفة لعمر على المسلمين، وأجمع على ذلك جميع من في مدينة رسول الله، ورحبت بذلك كل الولايات الإسلامية داخل الجزيرة وخارجها.

المطلب الثالث:

وصيته للخليفة بعده

لم يكتف الفاروق بما قد أرساه في الدولة من نظام إداري فريد وما حققه من بناء الدولة قوةً واقتصاداً وتنظيماً، وإزاحة الأخطار التي كانت تحيط بها. ولم يكتف بما قد أرساه وهو على فراش الموت من نظام انتخابي لم تعرفه العرب من قبل، بل الدنيا كلها، وإنما وجه خطابه لمن سيخلفه ضمّنه تعليمات لو مضى عليها لما واجه أي عائق لسيّره في سياسة وإدارة الدولة.

لقد تضمن خطاب عمر للخليفة بعده أموراً جديدة بالوقوف عندها وكان قد وجهها لرجل من بقية العشرة المبشرين بالجنة أياً منهم فاز في الانتخابات، وجه إليه

وصايا بعضها بلفظ الأمر ليؤكد أهميتها لدى الخليفة بعده، سواء كانت إيمانية أو عبادية أو سياسية أو إدارية أو قضائية، خوفاً من أن يقع في شيء من التقصير في مجال من هذه المجالات فيحصل الضعف أهم تلك الأمور^(١):

- ١- تقوى الله عز وجل في كل حال: لقد كان كل من المرشحين على تقوى متينة غذتها تربية رسول الله والجهاد والهجرة والتضحية. لكن مع ذلك بدأ بها عمر، وهو أسلوب القرآن الكريم حتى مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- (يا أيها النبي اتق الله..). وأسلوب السنة النبوية: " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها"^(٢). وهذه الوصية بالتقوى قد بدأ بها وانتهى بها، وما ذلك إلا لأهميتها.
- ٢- الوصية الثانية للخليفة بعده هي: أوصاه بالمهاجرين الأولين وهو يعلم أن الخليفة لن يكون إلا واحداً من المهاجرين الأولين، لأن المرشحين كلهم من المهاجرين، ولهم سابقتهم وفضلهم. ومن تعامل عمر مع سابقة المهاجرين نفهم ما يريد من الخليفة بعده نحوهم.
- ٣- الوصية الثالثة في خطاب عمر هي قوله: (وأوصيك بالأنصار خيراً، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن سيئهم). وللأنصار المكانة الثانية بعد المهاجرين في الجملة، وإلا فقد يوجد أفراد من الأنصار أفضل من أفراد من المهاجرين، كسعد بن معاذ ومعاذ بن جبل، وأبي ابن كعب، وأنس بن مالك، وأبي طلحة... وغيرهم من أبطال وعلماء الأنصار الذين لم يصل إلى مستواهم كثير من المهاجرين.
- ٤- وصيته بأهل الأمصار البعيدة التي هي خارج الجزيرة، فقد قال في وصيته بهم: (وأوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم ردة من العدو وجباة الفيء؛ لا تحمل منهم إلا عن فضل منهم).

(١) تراجع الوصايا في الكامل في التاريخ (٢/ ٤٢٨) والطبقات الكبرى (٣/ ٢٥٨) والبيان والتبيين للجاحظ (٣١/٢) مراجع سابقة.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في السنن (٤/ ٣٥٥) رقم: ١٩٨٧.

وهذه الأمصار التي هي خارج الجزيرة العربية كان عمر هو الذي مصّرها فهو الذي فتحها كلها ما عدا قليلاً من العراق جنوباً كان قد بدأه أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- فجاء عمر ففتح العراق والشام ومصر، فأناهاها بنور الإسلام، وخلصها من ظلم الحكام، ثم قسمها تقسيماً إدارياً عجبياً واستحدث مدناً جديدة خططها بنفسه من المدينة أهم هذه المدن: البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر.

٥. وصيته بأهل البادية خيراً: ولقد كان لعمر جهود عظيمة للرفع من شأن أهل البادية في الجزيرة وغيرها؛ حيث إن عهد عمر كان عهد استقرار كامل للجزيرة العربية، تلاه استقرار خارج الجزيرة في الأقطار المجاورة بعد فتحها، ونشر الإسلام وإقامة العدل فيها.

٦- وصيته بأهل الذمة: وهم أناس غير مسلمين، من اليهود والنصارى، في الغالب، قبلوا نظام الدولة، وقبلوا أن يدفعوا ما يفرض عليهم من المال -جزية- كما يدفع المسلم زكاة، ويتمتعون بما يتمتع به المسلمون من رعاية الدولة وحمايتها، وكل خدمات الدولة العامة، لا يلزمهم جهاد، ولا دفاع عن البلاد.

ووصيته بأهل الذمة لها جانبان: الأول: أوصى بهم خيراً، وإن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفهم ما لا يطيقون. والثاني: أوصاه بحمايتهم، فقال له: (وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة -من لهم حق الإقامة الدائمة من أهل الكتاب والمجوس-) وأكد له هذه الوصية بهم فقال: (وقد أوصيتك وخصصتك ونصحتك، فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة).

٧- أوصاه أن يخشى الله في الناس، ولا يخشى الناس في الله: وهذه الوصية توجه الخليفة بعده أن يخشى في حكمه سياسة وإدارة من بيده ملكوت السماوات والأرض، من يطلع على خائنة الأعين وما تخفي الأنفس. فإذا استشعر الحاكم -أي حاكم- رقابة الله عز وجل وقوته وقدرته وبطشه الشديد فإنه لا يخاف في الله لومة لائم من الناس. أما إذا خاف الناس، وحرص على إرضائهم بسخط الله،

فإن الله سيكون له بالمرصاد، وسيسخط عليه الناس الذين حرص على رضاهم بما يغضب الله عز وجل، والواقع التاريخي يشهد على ذلك.

٨- الوصية التاسعة: العدل في الرعية: قال: (وأوصيك بالعدل في الرعية)، والعدل أمر جامع لمعان كثيرة أو أمور كثيرة تحقق المعنى العام للعدل ابتداءً بحق الله عز وجل فلا يكون عدلاً من لا يؤدي حق الله عز وجل عليه، (إنَّ لله عليك حقاً) ثم العدل في حق النفس (وإنَّ لنفسك عليك حقاً) فلا بد أن يؤدي حقها حتى تستقيم النفس إيماناً وسلوكاً وصحة وراحة نفسية لتؤدي سائر الفرائض، ثم العدل في الأهل والأقربين (وإنَّ لأهلك عليك حقاً) والأهل لهم حقوق كثيرة.

٩- وصيته للخليفة بعده بالتفرغ الكامل لما أسند إليه: قال: (وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرغ لحوائجهم)، وقد سبق الكلام- باختصار عن العدل وضرورته، وأفردت التفرغ هنا لأهميته، فقد تنبه لذلك نفسه قبل خلافته وفي خلافته كلها؟!، أما قبل خلافته فإنه حينما رأى الصديق الخليفة بعد رسول الله قد خرج يوم ثاني البيعة بثياب للبيع. فإنه كان تاجر ثياب قبل الخلافة فأنكر ذلك عمر، إذ رأى بثاقب رأيه أنه لا يمكن اجتماع الإمارة والتجارة، وانضم إليه أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، فأقنعه بالتفرغ للأمة، لكنَّه بين لهما أنَّ رزقه ورزق عياله من التجارة فحددا له راتباً يكفيه من بيت مال المسلمين، اعتبره ديناً عليه، وأوصى عند موته بقضائه.

١٠- وصيته للخليفة بعده بالتغور وحفظها: والتغور جمع ثغر وهو الحد الذي يخشى اختراق العدو منه، ولقد كان عمر هو أول من حصن التغور إذ تحددت حدود الدولة مع بقايا فلول الفرس والروم فكادت تقف الحملات الجهادية ريثما يرتب الوضع الداخلي ويستريح الجند ولا يغامر بهم بعيداً أو في أعماق البحار فكان يودُّ أن بينه وبين العدو البعيد جبال من نار، وإذا استأذنه أحد القادة العظام بغزو

البحر يجيبه بقوله: والله لرأس جندي واحد من جند الله أحب إلي من فتح الروم فلم يأذن لمعاوية لما أستأذنه، وألحَّ عليه فلم يأذن له حتى مات^(١).

١١. وصيته أن لا يؤثر غنيَّ الناس على فقيرهم: فكثيراً ما يستحوذ الأغنياء على الحكام والولاية بما يملكون وما يبذلونه من أموال؛ فالمظهر والمشاركة في الأعمال التي تحتاج إلى مال، والهدايا وغير ذلك تجعل الغني مقرباً، مسموعاً، مقدماً عند الحكام- في الغالب، حتى يصل الأغنياء أحياناً إلى المشاركة في القرارات المهمة، وتسلم لهم المناصب الكبيرة التي لا يصلحون لها. لكن هذا لم يحدث أبداً في عهد الخليفين، وإن وصل غني إلى مكانة المشورة والمشاركة في الأمر كما وصل إليه عثمان بن عفان وعبدالرحمن ابن عوف، وكانا أغني الأغنياء في ذلك العهد فإن ما وصلنا إليه ليس بسبب الغنى، وإنما للعلم والفضل والسبق وجودة الرأي.

١٢. وصيته أن يشتد في أمر الله وفي حدوده ومعاصيه: قال له: (وأمرك أن تشتد في أمر الله، وفي حدوده، ومعاصيه، على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحد رافة حتى تنتهك منه مثل جرمة، واجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم)

١٣. وصيته بعدم المحاباة فيما ولاه الله: فقال له في هذا: (وإياك والمحاباة فيما ولاك الله، مما أفاء على المؤمنين، فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة، فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط لك اقترفت به إيماناً ورضواناً، وإن غلبك الهوى اقترفت به غضب الله). ففي هذا حذره من المحاباة والمجاملة وتقديم من لا يستحق التقديم، وإعطاء من لا يستحق العطاء، وتولية من يوجد أولى منه للولاية.

(١) انظر في ذلك الكامل في التاريخ، مرجع سابق، (٢/ ٤٦٨)

١٤- وصيته بأن يتخذ الحق مركباً: فقال: (ثم اركب الحق وخض إليه الغمرات، وكن واعظاً لنفسك)^(١). وركوب الحق هنا يحتمل أحد معنيين: المعنى الأول: أن ركوب الحق للوصول إلى الحق يكون باتخاذ الوسيلة الشرعية الصحيحة للوصول إلى الحق أنى كان ذلك الحق معنوياً أم مادياً، فإذا أراد الوصول إلى النصر على العدو فلا بد أن يعد العدة المُستطاعة، ويخلص النية ويصدق اللقاء ويصبر على المجالدة إن كان هذا القائد للمركز، وإلا فليأمر بذلك بعد أن يختار القائد المناسب. والمعنى الثاني: أن يطلب الحق بالخوض في غمرات الجهاد والتضحيات والصبر والقدوة...

١٥- وصيته بالترحم على جماعة المسلمين: قال له في خاتمة الوصية: (وأناشدك الله إلا ترحمت على جماعة المسلمين، وأجلت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، ووقرت عالمهم، ولا تضربهم فيذلوا ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم، ولا تجمرهم في البعوث، فينقطع نسلهم، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم، هذه وصيتي إليك، وأشهد الله عليك. وأقرأ عليك السلام).

المطلب الرابع:

قيم وآداب وأمر بمعروف ونهي عن منكر

لعمر-رضي الله عنه- مواقف أخرى بعد أن أصيب وهو يعاني سكرات الموت على فراش الموت، في مجال القيم والآداب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يلهه هول الموت وآلام الطعنات عن التفكير والتدبير والنصح والإرشاد وتقويم المعوج مما يراه خارج القيم الإسلامية، ومن ذلك^(٢):

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٤٢٨) والبيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٣٣) مراجع سابقة.

(٢) هذه المواقف مذكورة في نص الوصية والأعمال التي قام بها، السابقة. وانظر: البخاري في الصحيح، مرجع

سابق، (٥/ ١٥) حديث رقم: ٣٧٠٠.

- ١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فقد جاء في رواية البخاري التي ذكرناها سابقا، أنه: جاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله (ﷺ) وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. فقال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي. فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام. قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك. فلم يشغله ما به من الإصابة والتعب عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٢- أخذه بالأسباب، ويدل لذلك أنه أمر باستدعاء طبيب لينظر في جرحه ولمعالجته إن أمكن^(١)
- ٣- احترام الحقوق الشخصية وعدم الوقوع في مصادرتها مهما كان الدافع، فقد كانت رغبته شديدة أن يدفن إلى جانب رسول الله والصديق، وكانت قد بقيت مساحة لقبر واحد في حجرة عائشة كانت قد حددته لنفسها لو ماتت تدفن إلى جانب أبيها وزوجها، فلم تدفع عمر رغبته الشديدة أن يأمر بدفنه في المكان المحدد وإنما استأذن من عائشة وقال: إن وافقت عن طيب نفس وإلا فيدفن مع المسلمين فأذنت وذلك كرم من عائشة وإيثار وتقدير لمكانة عمر.
- ٤- أمره بالاقتصاد في كفنه وقبره، فلا يبالغون في نوع الكفن ولا يزيدون في قبره عن حاجته^(٢).
- ٥- نهى أن يُمدح أو يركى بما ليس فيه^(٣).
- ٦- نهى أن تخرج النساء في جنازته^(١)، حرصا على التزام السنة، وهو يعلم أن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ملتزمون سنته، ولكن قد يذهلهم الحدث عن ذلك.

(١) انظر: الطبقات الكبرى، مرجع سابق، (٣/ ٢٦٣)

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، (ص: ١١٦)

(٣) انظر: المرجع السابق

٧- أمر أن يسرعوا في المشي في جنازته؛ امتثالاً لسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ذلك^(٢).

وهناك تساؤل تحسن الإجابة عنه هنا وهو: لم لم تدفن عائشة -رضي الله عنها- في حجرتها في المكان الباقي الذي كانت تسكنه بقية حياتها بعد دفن الثلاثة فقد كان يتسع لها ويزيد؟ وأوصت أن تدفن في البقيع إلى جوار من سبقنها من أمهات المؤمنين وبنات رسول الله زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة التي كانت أصغرهن وأحبهن إلى رسول الله؟

الجواب: هو ما قالته هي -رضي الله عنها- بعد دفن عمر إلى جانب صاحبيه في حجرتها: قالت: (كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنني واضعة ثوبي، وأقول: إنما هو زوجي، وأبي، فلما دفن عمر، والله ما دخلته إلا مشدودة على ثيابي حياء من عمر)^(٣)، كانت تتخفف من بعض ملابسها دون حرج قبل دفن عمر، فلما دفن عمر نظرت إلى قبره وكأنه فيه حي وهو أجنبي عنها هذا الجواب لا غيره، وكرمها دفعها للإيثار بتقديم عمر على نفسها يا لها من امرأة عظيمة لا تقاربها عظمة أخرى من النساء -رضي الله عنها-، وخسى شأنها.

(١) انظر: الصالحي، محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١١ / ١٨١)

(٢) كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «أسرعوا بالجنازة، فإن يكن خيراً تقدموها إليه، وإن يكن شراً تضعوه عن رقابكم» وهو حديث حسن صحيح، وصححه الألباني. سنن الترمذي، مرجع سابق، (٣ / ٣٢٦) رقم: ١٠١٥.

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٨ / ٢٦)

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على سيد الرسل والبشر جميعاً، تخرج في مدرسته أعظم جيل عرفته البشرية منهم عمر الفاروق عبقرى هذه الأمة... وبعد

ففي ختام هذا التجوال في ساحة الفاروق للنظر في أعمال وأقوال كانت له في ثلاثة أيام فقط، على فراش الموت، أيام آلام الطعنات المجوسية الحاقدة في عدة مقاتل من جسمه الشريف الطاهر. استطعت أن أجمع وأسجل على صفحات هذا البحث تلك الأعمال والأقوال النافعة، التي أراد بها تنظيم شأن الأمة لئلا تختلف بعده، ولا ينفرد عقدها، أعمال وأقوال عظيمة لو استعان بها الحكام لنجوا ونجت شعوبهم، وما أحوجنا إليها في عصرنا.

له أعمال وأقوال لم يستطع أي مقتول أن يعمل أو يقول مثلها، بل أن يفكر بغير سكرات الموت! لكن عمر الملهم القوي الأمين تغلب على الطعنات القاتلة. أعمال وأقوال جديدة بأن تُجمع وتُنشر، وتتخذ منهجاً للحاكم الذي يتوخى الرشد، والأمة التي لا تقبل من الحكام إلا الرشيد.

جمعت باختصار ما توصلت إليه من تلك الأعمال والأقوال متحريراً الدقة قاصداً النفع للناس وإظهار بعض فضائل عمر، ومع أنني قد كتبت حوله مجلدات حول أولياته في السياسة والإدارة والقضاء. (مطبوع) لكن هذا يأتي حول أعماله بعد مقتله.

ولا أريد في هذه الخاتمة أن أسرد نتائج توصلت إليها في هذا البحث فإنني لم ألتزم بأهداف أريد تحقيقها من البحث غير إبراز عبقرية عمر حتى بعد مقتله، والإفادة مما عمله ووصى به. وأعماله التي سجلناها ليست موضع بحث من حيث التحليل والتدليل، وإنما هي. في معظمها توجيهات وترتيبات كان ينبغي أن يستفاد منها.

بقي أن أقول في آخر المطاف في هذا البحث المرکز حول عنوانه: إن كل ما كتبه في هذا الشأن إنما هو موزون بالفقه السياسي الشرعي فلا نجد قولاً قاله أو عملاً عمله عمر بعد مقتله إلا محكوماً بالشرع قاصداً المصلحة العامة التي جاء لتحقيقها الشرع.

المصادر والمراجع

١. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، عز الدين ابن الأثير، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ط١)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، د.م.
٢. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، عز الدين ابن الأثير، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ط١) الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
٣. ابن حجر، أحمد بن علي، أبو الفضل العسقلاني الشافعي (١٣٧٩هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه و صححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت.
٤. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، المعروف بابن سعد، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ط١) الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
٥. ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، د.ط)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.م.
٦. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ط١)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شبري، دار إحياء التراث العربي، د.م.
٧. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، (١٤٢٢هـ، ط١)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، د.م.
٨. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر، (١٤٠٥هـ، ط١)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
٩. البيهقي، السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ط٣)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١٠. - الترمذي محمد بن عيسى بن سَؤْرَة بن موسى بن الضحاك أبو عيسى، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ط٢)، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

- ١١ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، (١٤٢٣ هـ، د.ط)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ١٢ - الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، ط٢)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٣ - السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ط١)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، د.م.
- ١٤ - الصالحي، محمد بن يوسف، (١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ط١)، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- ١٥ - الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، (١٤٠٧ هـ، ط١)، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ١٦ - العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الفروق اللغوية بترتيب وزيادة، (١٤١٢ هـ، ط١)، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم».
- ١٧ - الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، (١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م، د.ط)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة.
- ١٨ - شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، (١٩٩٧ م، د.ط)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت - لبنان.
- ١٩ - محب الدين الطبري، أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، (د.ت، ط٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار الكتب العلمية، د.م.
- ٢٠ - محمد سهيل أطفيش، (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ط١)، تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفائس، د.م.
- ٢١ - مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، (د.ت)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.



مجلة جامعة القران الكريم والعلوم الإسلامية

ISSN: ٥٨٩٤-٢٦١٧ (٢٠٢٠/٦) (١٧) اليمن العلوم الإسلامية - تصدر عن جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية -

السياحة من منظور السنة النبوية

مشروع بحثي لجامعة الجوف رقم

(٧٨٢/٣٩)

د. مالك سيف الدين القواسمي

أستاذ مساعد بقسم الشريعة - كلية الشريعة والقانون

جامعة الجوف - المملكة العربية السعودية

الملخص

تماشياً مع التوجهات العالمية بشكل عام، وتوجهات المملكة العربية السعودية بشكل خاص نحو تشجيع السياحة وتسويقها بشكل منظم ومؤطر، جاءت فكرة هذا البحث ليسلط الضوء على هذا الموضوع من منظور السنة النبوية. ولقد تم تناول الموضوع ضمن أربعة مباحث؛ تناول الأول منها التعريف بمصطلحات البحث ومشروعية السياحة في الكتاب والسنة، ثم تكلم المبحث الثاني عن أنواع السياحة، أما المبحث الثالث فقد جاء الحديث فيه عن آداب السياحة في السنة وضوابطها، وفي المبحث الرابع فقد تمّ من خلاله عرض آثار السياحة. وفي الخاتمة تمّ عرض نتائج البحث، ومنها وجود تنوع في أهداف السياحة، ويتمّ الحكم على كل منها وفق الضوابط الشرعية. ثمّ جاءت توصيات البحث التي ركزت على أهمية تشجيع السياحة وفق الضوابط الشرعية.

الكلمات المفتاحية: السياحة، السياحة في السنة، أنواع السياحة، آداب

السياحة، آثار السياحة

Abstract

Tourism from the Perspective of the Sunnah of the Prophet

The idea of this research came to shed light on Tourism from the perspective of the Sunnah of the Prophet Mohammad in line with global trends in general, and the Kingdom of Saudi Arabia in particular towards encouraging and marketing tourism in an organized and framed manner.

The research has been dealt with within four topics: The first of them dealt with the definition of research terms and the legitimacy of tourism in Alquraan AL Kareem and the Sunnah of the Prophet Mohammad, the second topic the types of tourism, the third topic tourism morals in the Sunnah and its controls, and in the fourth topic Tourism effects.

In the conclusion, the results of the research were presented, including the presence of diversity in tourism objectives, and each of them is judged according to the legal controls.

Then came the recommendations of the research that focused on the importance of encouraging tourism in accordance with the legal controls.

Key words: tourism, tourism in the hadith, types of tourism, etiquette of tourism, the effects of tourism

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد،،

فمن نافلة القول إن المملكة العربية السعودية تزخر بمواقع أثرية كثيرة، فهي الدولة العريقة التي عمرتها حضارات متعددة عبر القرون الماضية، مما جعل الأنظار العالمية تتجه نحو المملكة للتعرف على تلك الحضارات، وآثارها والوقوف عليها، خاصة من هواة السياحة والتجوال في العالم. مما جعل صانعي القرار في المملكة يتوجهون نحو تفعيل دور السياحة في المملكة، وإبراز تلك الحضارات العريقة التي كان لها أثراً بارزاً في المملكة.

أهمية البحث:

لأهمية موضوع السياحة في المملكة، وانسجاماً مع توجهات المملكة في تفعيل دور السياحة، أحببت أن أتناول هذا الموضوع في بحثي هذا، خاصة أن المملكة تحتضن الحرمين الشريفين أهم معلمين دينيين إسلاميين، فجدير بنا أن نلقي الضوء على ما ورد في السنة المطهرة وسيرة سلفنا الذين تركوا بصمات عديدة خلفهم، من عمارة للأرض أو الإنسان.

ومن المهم أيضاً الحديث عن أنواع السياحة وأهدافها، وآدابها، والتطرق إلى نماذج من رحلات السلف الصالح وسياحتهم في الأرض، ثم التعرّيج على آثارها الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. بيان مشروعية السياحة في الهدي النبوي.
٢. معرفة آداب السياحة من منظور السنة النبوية.
٣. بيان آثار السياحة التي دلت لها السنة النبوية.
٤. التعرف على أنواع السياحة.

مشكلة البحث:

تعد السياحة ميدانا واسعا من ميادين التسويق المتقدم للبلد المستضيف خارجيا وداخليا، بحيث تعطي للزائر انطبعا عن تقدم البلد اقتصاديا وثقافيا وعمرانيا. وانسجاما مع توجهات المملكة في التوجه نحو تفعيل الدور السياحي للمملكة، وجد الباحث أنه لا توجد دراسة وافية تناولت السياحة من منظور السنة النبوية، فكانت هذه الدراسة لتأصيلها والوقوف عليها من جوانب عدة.

منهج البحث:

سيعتمد الباحث المنهج الوصفي الاستنباطي، لاستخلاص الدلالات والمعاني التي تحقق أهداف البحث.

الدراسات السابقة:

لم يطلع الباحث على دراسة سابقة في هذا الموضوع.

خطة البحث:

سيتم تناول البحث- بإذن الله تعالى- ضمن مقدمة ومباحث أربعة وخاتمة، كما يلي:

المقدمة: وفيها أهمية البحث وأهدافه ومشكلته ومنهجه والدراسات السابقة والخطة.

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث ومشروعيتها السياحية.

المبحث الثاني: أنواع السياحة.

المبحث الثالث: آداب السياحة في السنة وضوابطها.

المبحث الرابع: آثار السياحة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول:

التعريف بمصطلحات البحث ومشروعية السياحة

المطلب الأول:

تعريف السياحة لغة واصطلاحاً

أولاً: السياحة في اللغة:

أصلها سَيَّحَ، قال ابن فارس: " (سَيَّحَ) السين، والياء، والحاء، أصل صحيح، يقال: سَاحَ في الأرض، قال تعالى: ﴿فَسَيِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾^(١)، والسَّيْحُ الماء الجاري ... ومما يدل على صحة هذا القياس، قولهم سَاحَ الظل إذا فاء. والسَّيْحُ العبادة المخططة، وسمي بذلك تشبيهاً لخطوطها بالماء الجاري"^(٢).

وعرفها ابن منظور فقال: " والسياحة: الذهاب في الأرض للعبادة والترهب، وقد سَاحَ، وفيه المسيح ابن مريم في بعض الأقاويل كان يذهب في الأرض فأينما أدركه الليل صف قدميه وصلّى حتى الصباح"^(٣).
وجاء في المعجم الوسيط: السياحة: " التنقل من بلد إلى بلد طلباً للتنزه أو الاستطلاع والكشف"^(٤).

١- التوبة /آية ٢

٢ - أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥)، المحقق: عبد السلام هارون، معجم مقاييس اللغة، اتحاد الكتاب العرب، ١٢٠/٣.

٣ - أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، جمال الدين بن منظور الأنصاري (ت ٧١١)، لسان العرب، دار صادر، بيروت ط ٣ ٤٩٣/٢.

٤ - مصطفى إبراهيم، الزيات، أحمد، عبد القادر، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة/ ٤٦٧/١.

من هذا نخلص إلى السياحة لغة جاءت بمعان ثلاثة: الأول: الانتشار في الأرض بغض النظر عن الهدف والغاية من الانتشار، والثاني: الذهاب في الأرض للعبادة والترهب، والثالث: قصر السياحة على التنقل من بلد إلى آخر طلباً للنزهة.

ثانياً: السياحة في الاصطلاح:

عرفت السياحة اصطلاحاً بناء على الغاية منها، سواء كان الغرض منها دينياً أو دنيوياً: الأول: قال صاحب المعجم الوسيط في معناها، هي: "التنقل من بلد إلى بلد طلباً للنزهة أو الاستطلاع والكشف" (١)، وهو يرجع إلى التعريف اللغوي. الثاني: "هو التنقل من مكان إلى آخر لغرض ديني أو دنيوي" (٢). والذي أراه أن التعريف الثاني أشمل وأدق من التعريف الأول، إذ يجمع بين التعريفين الديني والدنيوي.

المطلب الثاني:

تعريف السفر لغة واصطلاحاً

أولاً: السفر لغة:

قال صاحب المصباح المنير: " (س ف ر) : سَفَرُ الرَّجُلِ سَفْرًا مِنْ بَابِ ضَرَبَ فَهُوَ سَافِرٌ وَالْجَمْعُ سَفْرٌ مِثْلُ: رَاكِبٍ وَرَكْبٍ وَصَاحِبٍ وَصَحْبٍ وَهُوَ مَصْدَرٌ فِي الْأَصْلِ وَالْإِسْمُ السَّفَرُ بِفَتْحَتَيْنِ وَهُوَ قَطْعُ الْمَسَافَةِ يُقَالُ ذَلِكَ إِذَا خَرَجَ لِلِازْتِحَالِ أَوْ لِقَصْدِ مَوْضِعٍ فَوْقَ مَسَافَةِ الْعَدْوَى لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا يُسَمُّونَ مَسَافَةَ الْعَدْوَى سَفْرًا وَقَالَ بَعْضُ الْمُصَنِّفِينَ أَقْلُ السَّفَرِ يَوْمٌ كَأَنَّهُ أُحِذَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾^٣ [سبأ: ١٩]

وقال ابن منظور في معنى السفر لغة: " والسَّفَرُ: خِلاَفُ الْحَضَرِ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ كَمَا تَذْهَبُ الرِّيحُ بِالسَّفِيرِ مِنَ الْوَرَقِ وَتَجِيءُ،

١ - مصطفى إبراهيم، الزيات، أحمد، عبد القادر، المعجم الوسيط، مرجع سابق ١/٤٦٧.

٢ - الندوي، محمد شاهجهان، السياحة أحكامها وآدابها في ضوء القانون والشريعة، ص ١٤، دار الكتب العلمية.

٣- أبو العباس الحموي/ أحمد بن محمد الفيومي المتوفى نحو ٧٧٠ هـ / ٢٧٨/١، المصباح المنير، المكتبة العلمية

العلمية بيروت

وَالْجَمْعُ أَسْفَارٌ..... وَالسَّفَرُ جَمْعُ سَافِرٍ، كَمَا يُقَالُ: شَارِبٌ وَشَرِبٌ، وَيُقَالُ: رَجُلٌ سَافِرٌ وَسَفَرٌ أَيْضاً. الْجَوْهَرِيُّ: السَّفَرُ قَطْعُ الْمَسَافَةِ، وَالْجَمْعُ الْأَسْفَارُ. (١)
وفي المعجم الوسيط قال: " (السَّفَر) قطع المسافة " (٢)

ثانياً: السفر اصطلاحاً:

قال صاحب التعريفات: "السفر شرعاً: هو الخروج على قصد سير ثلاثة أيام ولياليها فما فوقها، بسير الإبل، ومشى الأقدام" (٣).
وعرفه الدكتور قلعجي فقال: " هو الخروج عن عمارة موطن الإقامة قاصداً مكاناً يبعد مسافة يصح فيها قصر الصلاة" (٤).
وقد جاء تعريف الجرجاني للسفر بناء على تعريف بعض الفقهاء له، بناء على فهمهم لأحاديث النبي ﷺ فيما قاله عن سفر المرأة.
ويظهر من خلال النظر في التعريفات العلاقة الوطيدة بين التعريفين اللغوي والاصطلاح، فالجامع بينهما قطع المسافة.

المطلب الثالث:

مشروعية السياحة

ورد لفظ السياحة في القرآن الكريم والسنة النبوية مرات عدة، وبالنظر إلى الآيات والأحاديث التي ذكرت فيها السياحة يتبين أنها أشارت إلى معاني ثلاثة، هم:
الأول: التنقل، وهو المعنى اللغوي للسياحة:

- ١ - ابن منظور /محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ، ٤/٣٦٧-٣٦٨.
- ٢ - مصطفى إبراهيم وآخرون/ المعجم الوسيط، ١/ ٤٣٣، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، مرجع سابق.
- ٣ - الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م التعريفات، ١/١٥٧.
- ٤ - قلعجي، محمد رواس، حامد صادق قنبيي /معجم لغة الفقهاء، ١/٢٤٥، دار النفائس /عمان، ط ٢، ١٩٨٨.

قال تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (١).

قال الحافظ الطبري في معناها: "قل لهم يا نبينا الكريم: سيحوا، أي سيروا مقبلين ومدبرين، وآمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا أسر" (٢).
وبهذا المعنى جاء الحديث النبوي عن سياحة الملائكة، ويقصد بها التنقل، فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي» (٣).

الثاني: الصوم، وظهر هذا المعنى في آيتين من كتاب الله عز وجل:

١. قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

قال ابن كثير في تفسيره: "وَمَنْ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ الصِّيَامُ، وَهُوَ تَرْكُ الْمَلَاذِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْجِمَاعِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالسِّيَاحَةِ هَاهُنَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿السَّائِحُونَ﴾ كَمَا وَصَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ [التَّحْرِيم: ٥] أَي: صَائِمَاتٍ (السائحون هم الصائمون)" (٥).

١ - التوبة / آية ٢

٢ - الطبري، محمد بن جرير (٣١٠) جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، القرطبي، الجامع لإحكام القرآن، ١٤٢/٨.

٣ - ابن حبان/ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان، ترتيب علاء الدين علي بن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة ١٤٠٨/١٩٨٨، ٣/١٩٥٠ ح (٩١٤)، أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) // مسند أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م / ح ٢٦٠/٤٢١٠، ٧.

٤ - التوبة آية ١١٢

٥ - ابن كثير، اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ٤/٢١٩.

٢. قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلَمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ

قَاتِنَاتٍ تَأْتِيَنَّاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾^(١).

قال الزجاج: "وقوله تعالى: (سَائِحَاتٍ) جاء في التفسير عن النبي ﷺ أن السائحين هم الصائمون، وهو مما في الكتب الأولى. وقال أهل اللغة: إنما قيل للصائم سائح لأن الذي يسبح متعبداً ولا زاد معه، فحين يجد الزاد يطعم، والصائم كذلك يَمْضِي النهار ولا يَطْعَمُ شيئاً فلشبهه به سَمِي سَائِحاً"^(٢).

وقال القرطبي في تفسيره: (معنى سائحات: صائمات).^(٣)

الثالث: الجهاد، ذكر هذا المعنى في حديث أبي أمامة: "أن رجلا استأذن رسول

الله ﷺ في السياحة، فقال: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله"^(٤).

ويقصد هنا بالسياحة التي طلب الرجل من النبي ﷺ أن يأذن له بها: الرهبانية، فكان رد النبي ﷺ، أنه لا رهبانية في الإسلام، بل الحركة والدعوة إلى الله، ووسيلتها الجهاد في سبيل الله.

قال العيني: " وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه من تعبد بمجرد السياحة في

الأرض، والتفرد في شواهد الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا أيام الفتن والزلازل"^(٥).

١ - التحريم اية ٥

٢ - الزجاج، ابراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده، الطبعة الأولى، عالم الكتب - بيروت. ١٩٨٨ (١٩٤/٥).

٣ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وابراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، ١٨/١٩٣.

٤ - أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا/بيروت، كتاب الجهاد/باب في النهي عن السياحة، ٥/٣، ح ٢٤٨٦.

٥ - العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)/عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي / بيروت، ١٤/٧٩.

المبحث الثاني:

أنواع السياحة

بينت في المبحث السابق أن التنقل هو من المعاني التي ذكرها القرآن الكريم في معنى السياحة، وهو قريب من المعنى الاصطلاحي للسياحة كذلك، وبالنظر إلى هذا المعنى، أرى أن السياحة تتعدد أنواعها، وقد تناولها غير واحد من المعاصرين تحت أكثر من مسمى فأطلقت عليها منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) مجالات السياحة^(١)، وأطلق عليها الندوي بعد أن قسمها إلى قسم قديم وآخر حديث: فروع السياحة^(٢)، وسأتناول أهمها في المطالب التالية:

المطلب الأول:

السياحة الدينية

تعد السياحة الدينية من أهم أنواع السياحة التي أشار إليها القرآن الكريم وتطرق لها لها السنة النبوية، وقد جاءت على نوعين:

النوع الأول: السياحة التي تعني السير في الأرض للعبادة والاعتبار:

وورد في هذا النوع آيات عديدة وأحاديث جمّة، حث فيها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الاعتبار والاعتاظ عند زيارة تلك الأماكن، كما جاءت آيات عديدة تحث الناس على التنقل والسير إلى آثار الأقاليم السابقة للاعتبار والاعتاظ وتعديل السلوك إلى ما يرضي الله عز وجل، وقد جاء هذا الحث على شكلين:

١ - إيسيسكو، استراتيجية تنمية السياحة الثقافية في العالم الإسلامي، ص ٩، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

٢- الندوي، محمد شاهجهان، السياحة أحكامها وآدابها في ضوء القانون والشرعة، ص ١٩. مرجع سابق.

الشكل الأول: الحث على السير في الأرض للنظر في آثار من هلك من الأمم، وكيف كان عاقبة أمرهم بعد تكذيبهم لأنبيائهم: وردت آيات كثيرة في هذا الشكل من السير في الأرض، منها:

١- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾.

٢- قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢﴾.

قال صاحب الكشاف: "فإن قلت: أي فرق بين قوله (فانظروا) وبين قوله (ثم انظروا) قلت: جعل النظر مسبباً عن السير في قوله (فانظروا) فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله (سيروا في الأرض) ثم انظروا) فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح".^(٣)

الشكل الثاني: السير في الأرض للتعرف على بديع صنع الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾. قال صاحب التحرير والتنوير: "وإنما أمر بالسير في الأرض لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جملة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها فيرى كثيرا من أشياء

١ - الروم: آية ٩

٢ - الأنعام: آية ١١

٣ - الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧، ٨/٢.

٤ - العنكبوت: ٢٠.

وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانا لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه، لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبا عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة. وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي لأن السائر ليس له من قرار في طريقه فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن وأنه قادر على إيجاد أمثالها فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها. والاستدلال بالأفعال التي مضت أمكن لأن للشيء المتقرر تحققا محسوسا^(١).

وفي الآية حث على السير في الأرض والتنقل فيها، والنظر في عظيم خلقه سبحانه وتعالى، وذلك للتعرف على عظمته.

النوع الثاني: السياحة التي يقصد بها التعبد المخصوص: ويقصد بهذا النوع من السياحة، التنقل إلى أماكن مخصوصة بقصد العبادة، كسفر المسلمين إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج أو مناسك العمرة، أو زيارة المسجد النبوي للصلاة فيه، وكسفر المسلمين كذلك إلى القدس للصلاة في المسجد الأقصى طلبا للأجر والمثوبة التي بشر بها النبي صلى الله عليه وسلم. هذا بالنسبة إلى المسلمين، أما بالنسبة للسياحة الدينية لغير المسلمين من الديانات الأخرى فمن أمثلتها زيارة النصرى إلى

١ - ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤، ٢٠ / ٢٣٠.

الفايكان، وزيارتهم إلى كنيسة القيامة في القدس، وكذلك زيارة النصارى السنوية إلى كنيسة المهدي في بيت لحم، مهد السيد المسيح عليه السلام.

وهذا النوع من السياحة الدينية بالنسبة للمسلمين يقصد به التقرب إلى الله تعالى وأداء فريضة الحج أو العمرة ولنيل أجور مضاعفة للصلاة لمن أراد زيارة الحرمين الشريفين، أو الأقصى الشريف. وغالبا ما ترتبط هذه السياحة بوقت معين كالحج بالنسبة للمسلمين، وكذلك بالنسبة للنصارى في أعيادهم. وقد لا ترتبط تلك السياحة الدينية بزمان معين، وذلك عندما يزور المسلم أحد المساجد الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ يقصد العبادة ومضاعفة الأجور بالصلاة أو الاعتكاف فيها.

وورد في هذا النوع من السياحة آيات وأحاديث عديدة، منها ما أمر الله عز وجل المسلمين بالحج إلى البيت الحرام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾^(١).

وقد بين النبي ﷺ أن الحج هو أحد أركان الإسلام الذي لا يقبل إسلام امرئ الا إذا آمن به وحرص على أدائه، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ »^(٢).

وهذا الركن العظيم من أركان الإسلام يعده المسلمون من السياحة الدينية لما يحدث فيه على مدار أيام، يتعرف فيها على كثير من شعائر الحج فيستحضر التاريخ

١- آل عمران: آية ٩٧

٢- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي / الصحيح، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، كتاب الإيمان، باب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» ح ٨، ١١/١.

البعيد والقريب من لدن إبراهيم عليه السلام الذي رفع قواعد البيت الحرام، إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم الذي حج البيت الحرام وأمر المسلمين بذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) وفي الحج يمر الحاج ببئر زمزم و والصفاء والمروة، فيستحضر قصة هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام وهي تبحث عن الماء لتسقي طفلها إسماعيل عليه السلام وتجأ إلى الله بالدعاء ليرحم طفلها من موت محقق إن لم يغيثها، وعندها تنزل رحمة الله بتفجر ماء زمزم، ثم يذهب الحاج إلى منى مقتفياً أثر النبي محمد صلى الله عليه وسلم متبعاً خطاه ومن بعدها يذهب إلى عرفة فيتخيل مشهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب بالناس في خطبة الوداع يوصي الأمة بوصايا تتبعها إلى يومنا هذا، ثم ينزل من عرفة إلى مزدلفة ويتبعها بمنى ليرمي الجمار، ولكل منسك من مناسك الحج قصة تروى فيعيش الحاج الماضي والحاضر مستذكراً فضل الله ورحمته .

ومن معالم السياحة الدينية أن تشد الرحال إلى المساجد الثلاثة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(٢) ، ويا لها من رحلة جميلة أن يزور المسلم تلك المساجد الثلاثة التي ارتبطت بتاريخ الأمة، تاريخ العز والفخر والسؤدد الذي حكم فيه المسلمون الدنيا وكان منطلقهم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى ما سجلته الحياة في هذه المساجد من تعاليم ديننا .

١- البقرة: ١٢٧

٢- البخاري/ الصحيح، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ح ١١٨٩، ٦٠/٢، مرجع سابق.

ولما كانت نساء الصحابة حريصات على مسابقة أزواجهن على الأجر، ورأين أن باب ذروة سنام الإسلام قد ضيق عليهن وذلك لضعفهن، لم يترددن في سؤال النبي ﷺ عن ذلك، ظهر ذلك في حديث عائشة أم المؤمنين قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ قَالَ: «عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ، الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ»^(١).

نعم فالحج والعمرة فيها بالإضافة إلى متعة العبادة تعب جسدي ومادي على من يقوم بتلك العبادة، وذلك لما فيه - عند أغلب الناس - من سفر طويل خاصة في العصور السابقة، فقد كان يمتد زمن المسير إلى الحج والعمرة إلى شهور، يمر فيها من قصد تلك العبادة بشتى الظروف الصعبة، من مرض وتعب، وغير ذلك، ومنهم من يموت في مسيره.

المطلب الثاني:

السياحة العلمية

تعد الرحلة في طلب العلم من الأمور العظيمة التي يقوم بها بعض أفراد الأمة، وذلك لما ينتج عنها من فوائد جليلة تعود على الأمة بالنفع، فإن كان العلم الذي أُرَاد الفرد أن يتعلمه لا يمكن تحصيله إلا بالرحلة، وجب عليه أن يرحل فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾^(٢).

^١ - ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ) / الصحيح،

تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، (٤ / ٣٥٩)، ح ٣٠٧٤، باب على أن جهاد النساء الحج والعمرة.

^٢ - التوبة: ١٢٢

ولأهمية الرحلة في طلب العلم سطر القرآن الكريم رحلة موسى إلى الخضر، واستشهد بها العلماء على أهمية الرحلة في طلب العلم، وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس، أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ فِي صَاحِبِ مُوسَى، فَمَرَّ بِهِمَا أَبُو بَنِي كَعْبٍ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى الَّذِي سَأَلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقَيْيهِ، هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ فَقَالَ أَبُو بَنِي: نَعَمْ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ يَقُولُ: «بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَتَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقَيْيهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، فَكَانَ مُوسَى ﷺ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى: (أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ)، قَالَ مُوسَى: (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا)، فَوَجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ»^(١). كان ذلك العلم الذي حصل عليه موسى عليه السلام بعد أن اتبع الخضر في رحلته البحرية، وكان فيها من الفوائد العظيمة التي نستشهد بها دوما في مواقف عديدة.

وفي الحديث الذي رواه الإمام الترمذي وحسنه، عن أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢)، قال المباركفوري شارح سنن الترمذي كلاما يؤكد على حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الرحلة في طلب العلم، قال: "وفيه استحباب الرحلة في طلب العلم، وقد ذهب

^١ البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، ح ٧٨، ٢٧/١، مرجع سابق

^٢ الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) / الجامع، تحقيق بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م، أبواب العلم / باب فضل طلب العلم، ح ٢٦٤٦، ٢٨/٥.

موسى إلى الخضر عليهما الصلاة والسلام وقال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا، ورحل جابر بن عبد الله من مسيرة شهر إلى عبد الله بن قيس^(١).

ولأهمية طلب العلم وتشجيع طلبته بين النبي ﷺ أن الخروج في طلبه له أجر عظيم كالجهاد في سبيل الله، وجعل كل خطوة من خطواته وكل ما يبذل من وقت في سبيل الله، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ حَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ»: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَرْفَعْهُ»^(٢).

وقد نقل الحافظ السيوطي عن المظهري قوله في تشبيه طلب العلم في الجهاد: "قال المظهري: "وجه مشابهة طلب العلم بالمجاهدة في سبيل الله أنه إحياء الدين، وإذلال الشيطان، وإتعاَب النَّفْسِ وكسر الهوى واللذة"^(٣).

كما أننا عند دراسة سيرة السلف الصالح نقرأ القصص العديدة التي تشير إلى حرصهم على طلب العلم وتكبدهم عناء السفر الطويل للتأكد من معلومة أو للتزود بالعلم، ومن ذلك ما حصل مع جابر بن عبد الله لما أراد أن يتأكد من صحة حديث، حيث قام بالرحيل إلى مصر، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقِصَاصِ، وَلَمْ أَسْمَعْهُ، فَأَبْتَعْتُ بَعِيرًا، فَشَدَدْتُ رَحْلِي عَلَيْهِ، ثُمَّ سِرْتُ شَهْرًا حَتَّى قَدِمْتُ مِصْرَ، فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَنَسٍ فَمُلْتُ لِلْبَوَابِ: قُلْ لَهُ جَابِرٌ عَلَى الْبَابِ. فَقَالَ: ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فَأَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ فَقَامَ يَطَأُ نَوْبَهُ حَتَّى حَرَجَ إِلَيْهِ فَأَعْتَنَقَنِي وَأَعْتَنَقْتُهُ فَمُلْتُ

^١ - المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية

- بيروت، تحفة الأحوذبي بشرح جامع الترمذي، كتاب العلم، باب فضل طلب العلم ٣٣٩/٧.

^٢ - الترمذي/ الجامع، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم، ح ٢٦٤٧، ٢٩/٥، مرجع سابق.

^٣ - الغريبي، ناصر بن محمد بن حامد الغريبي/ قوت المعتزدي على جامع الترمذي، رسالة الدكتوراة - جامعة أم

القرى، مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٢٤، (٢٠٩ / ٦٥٩)

لَهُ: حَدِيثٌ بَلَّغَنِي عَنْكَ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ أَسْمَعْهُ فِي الْقِصَاصِ، فَخَشَيْتُ أَنْ أَمُوتَ أَوْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعْهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ - أَوْ قَالَ: النَّاسَ - عُرَاءَ عُرْلًا بُهْمًا" (١).

ومن قصص التابعين في رحلة طلب العلم ما حدث مع الإمام الزهري، يروي ذلك صاحب حلية الأولياء:

"قال ابن شهاب الزهري-رحمه الله-: مكثت خمساً وأربعين سنة أختلف بين الشام والحجاز، فما وجدت حديثاً أستطرفه!-أستبعد مكانه- " (٢)، فقد كانت همم علماء سلفنا الصالح عالية، لا يمنعهم بعد أو مشقة عن الوصول إلى حديث رسول الله ﷺ .
وقيل لأحمد بن حنبل مرة: أيرحل الرجل في طلب العلم؟ فقال: " بلى والله شديداً، لقد كان علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، - وهما من أهل الكوفة بالعراق - يبلغهما الحديث عن عمر، فلا يقنعهما حتى يخرجوا إليه - إلى المدينة المنورة - فيسمعانه منه" (٣).

^١- الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) // المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفی عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠، ح ٣٦٣٨، وقال صحيح علي شرطهما ولم يخرجاه، ٤٧٥/٢.

^٢- ابو نعيم الاصفهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر دار السعادة، مصر، ١٩٧٤، (٣/٣٦٢).

^٣- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ) /فتح المغيب، علي حسين علي، مكتبة السنة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ٢٧٦/٣.

وقال الخطيب البغدادي: قال أبو العالية-رحمه الله:- "كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ بالبصرة فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناهم من أفواههم" (١).

ومن أعظم علماء الحديث الذين أفنوا أعمارهم في الرحلة في طلب العلم: أبو حاتم الرازي رحمه الله، يقول ابنه عن رحلة أبيه رحمه الله في طلب الحديث: "سمعت أبي يقول: أول ما خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ -الفرسخ مسير ساعة ونصف، لم أزل أحصي فلما زاد على ألف فرسخ تركته، وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصى كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، خرجت من البحر من قرب مدينة (سلا) إلى مصر ماشيا، ومن مصر إلى الرملة ماشيا، ومن الرملة إلى بيت المقدس ماشيا، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية إلى طرسوس ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي علي شيء من حديث أبي اليمان، فسمعته ثم خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت إلى الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيا هذا في سفري الأول، وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ٢١٣هـ، في شهر رمضان، ورجعت سنة ٢٢١هـ" (٢).

١- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) / الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، (٢٢٤/٢)

٢- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي (المتوفى: ٣٢٧هـ) / الجرح والتعديل، الناشر: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٢٧١ هـ ١٩٥٢ م، (١/٣٥٩).

ما أعظم هذه القمم الشاهقة في العلم والتي ما فتئنا نسبر أغوار حديثهم الرصين الذي سطروه في كتبهم فكان مرجعا عريقا يشرب منه كل من جاء بعدهم من العلماء.

المطلب الثالث:

السياحة العلاجية^(١)

هذا النوع من السياحة هو إضافة جديدة لأنواع السياحة في هذه الأيام، مع وجود الاختلاف بين المفهوم السابق والمعاصر للسياحة العلاجية، وذلك لتباعد الأزمان وتقدم الحضارات، ففي القرون الماضية بقي هذا النوع من السياحة في أرض الوطن ولا يكاد يذكر أن أحدا من السلف الصالح سافر من بلد إلى آخر لغرض العلاج، فإن اضطر إلى ذلك، كان يؤتى بالطبيب إلى المريض، وذلك لصعوبة التنقل في تلك الأزمنة.

ومن أهم عناوين السياحة في هذه البلاد المباركة ماء زمزم المبارك، فقد كان وما زال هو أحد عناوين السياحة العلاجية في هذه البلاد المباركة، سواء بالذهاب إلى مكة للاستشفاء بماء زمزم أم بإحضاره إلى المريض ليكون علاج سقم عنده، وقد قال حبيبنا محمد ﷺ في ذلك أحاديث عديدة، ووردت آثار عن سلفنا الصالح تشير إلى أثر ماء زمزم على المرضى، كما سمعنا غير قصة تذكر أثر ماء زمزم على مرضى طوفوا بالبلاد على أطباء كثيرين، ثم كان علاجهم بشرب ماء زمزم والاعتسال به. فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في ماء زمزم: «إِنَّهَا مَبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامٌ طَعِمَ»^(٢).

١ - انظر، إيسيكو، استراتيجية تنمية السياحة الثقافية في العالم الإسلامي، ص ٣٣، الندوي، محمد شاهجهان، السياحة أحكامها وآدابها في ضوء القانون والشريعة، ص ٠٠، مرجع سابق.

٢ - مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) / الصحيح، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر، ح ٢٤٧٣، ١٩١٩/٤.

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي ذرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُنْدُ كَمْ أَنْتَ هَاهُنَا؟» قَالَ: قُلْتُ: مُنْدُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، قَالَ: «مُنْدُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا كَانَ طَعَامُكَ؟» قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، وَلَقَدْ سَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنُقُ بَطْنِي، وَمَا أَحِذُ عَلَى كَبِدِي سَحْفَةَ جُوعٍ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، وَهِيَ طَعَامٌ طُعِمَ، وَشِفَاءٌ شُفِيَ»^(١). فأبو ذر الغفاري رضي الله عنه لبث في مكة المكرمة شهرًا كاملاً لم يكن له طعام ولا شراب سوى ماء زمزم، أي أنّ شرب ماء زمزم المبارك يغني عن الطعام، ويشفي من المرض والسقم.

وفي مستدرک الحاكم ذكر المصنف حديثاً عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ، فَإِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ شَقَاكَ اللَّهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ مُسْتَعِيدًا عَادَكَ اللَّهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِيَقْطَعَ ظَمَأَكَ قَطَعَهُ» قَالَ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِذَا شَرِبَ مَاءَ زَمْزَمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا وَاسِعًا، وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ»^(٢).

وهذا بالمجمل الحديث عن أهم معلم يقوم المسلم بزيارته والتبرك به للاستشفاء وهو ماء زمزم، وإن كان الناس بعامة يقصدون أماكن كثيرة في العالم بقصد الاستشفاء بالمياه المعدنية الحارة وغيرها، والله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

كما تعد الرياض وجدة والخبر من أبرز الوجهات السياحية العلاجية لما تتميز به مستشفياتها من امتلاكها لأحدث الأجهزة الطبية على مستوى الشرق الأوسط مما يجعلها محجاً لكثير من المرضى. و من أبرز أشكال السياحة العلاجية في المملكة

١- أبو داود الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (المتوفى: ٢٠٤هـ) / مسند أبي داود الطيالسي، ح ٤٥٩ (١/ ٣٦٤)

٢- الحاكم النيسابوري/ المستدرک على الصحيحين، ح ١٧٣٩، ٦٤٦/١، مرجع سابق.

٣- الأنبياء: ٣٠.

الأماكن الطبيعية للاستشفاء كالينابيع الساخنة المنتشرة في أنحاء المملكة، كمحافظة الليث والحارث والاحساء والدائر^(١).

المطلب الرابع:

السياحة الترويحية^(٢)

وهي من أنواع السياحة المعاصرة، خاصة بعد توفر المواصلات وسهولة التنقل بشكل عام، ولم يكن هذا النوع من السياحة منتشرا في زمن سلفنا الصالح، بل كانت حدوده ضيقة وتقتصر على المنطقة التي يعيش فيها الإنسان.

تعريف الترويح لغة:

أراح، كما قال ابن منظور^(٣) "هي الارتياح وزوال التعب، ورجوع النشاط إلى الإنسان، ودخول السرور على النفس بعد العناء، يقال أراح الرجل واستراح إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء. وفي الحديث قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا بَلَاءُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرْخَنَا بِهَا»^(٤)، ففي إقامة الصلاة راحة من تعب الدنيا ومعراج إلى خالق النفس وبث الهموم إليه.

وبما أن السياحة في الأرض والتعرف على ملكوت الله، وعلى الحضارات الأخرى تدخل السرور إلى النفس وتروح عنها، فهي مشروعة إذا لم يخالفها ما لا يرضى الله عنه، وذلك إذا علمنا أن النبي ﷺ كان حريصا في مواقف عديدة على إدخال السرور إلى الناس، وقد مارس ألوانا من الترفيه واللهو والترويح المباح، فكان يخرج ويداعب ويسابق، ويجالس أصحابه وهم يروحون عن أنفسهم بما أتاح لهم ذلك الزمان من ألوان الترويح.

١ - الموسوعة العربية الشاملة، موقع الكتروني.

٢ - انظر، الندوي، محمد شاهجهان، السياحة أحكامها وآدابها في ضوء القانون والشرعية، ص ١٩

٣ - لسان العرب، ابن منظور، ٤/٦١١، مرجع سابق.

٤ - أبو داود السجستاني / السنن، كتاب الأدب / باب في صلاة العتمة / ح ٤٩٨٥، ٤/٢٩٦، مرجع سابق.

ومن أبرز الأحاديث الدالة على حرص النبي صلى الله عليه وسلم أن يروح عن أهل بيته ما ذكرته عائشة، رضي الله عنها، "أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ قَالَتْ: فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلِي، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ: «هَذِهِ بَيْتُكَ السَّبَقَةُ»^(١)، وفي الحديث إشارة على تفقده صلى الله عليه وسلم حال أهله في السفر، ومن المعلوم أنه مع طول السفر قد يمل المسافر لذا يحتاج الى من يروح عنه ويزيل متاعب السفر، وهذا ما فعله صلى الله عليه وسلم مع زوجته عائشة رضي الله عنها.

ومنها ما قاله جابر بن سمرة رضي الله عنه لما سئل: أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، كان طويل الصمت، وكان أصحابه يتناشدون الشعر عنده ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون، فيبتسم معهم إذا ضحكوا^(٢). وأذن ﷺ للحبشة أن يلعبوا بسهامهم وحرابهم على عاداتهم في مسجده الشريف، وأذن لعائشة رضي الله عنها أن تنظر إليهم وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة»^(٣). هذه الأدلة وأخرى غيرها تشير إلى الروح المرحية التي كان يعيشها نبينا محمد ﷺ مع أصحابه رضوان الله عليهم عندما يجلسون ويتسامرون معا، أو ينظرون إلى مشاهد جميلة تجلب السعادة إلى النفس.

ومن الأمور التي تجلب الراحة والسعادة للنفس البشرية ما حرص القرآن الكريم على بيان جماله وإشباع الجانب المعنوي عند الإنسان، ففي الآية الآتية تحفيز على

١ - سليمان بن أشعث، أبو داود السجستاني / السنن، كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل، ح ٢٥٧٨، مرجع سابق.

٢ - مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، رقم (٢٨٦)، مرجع سابق.

٣ - البخاري/ الصحيح، في كتاب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد رقم (٩٤٩)، ومسلم/الصحيح، في كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، مرجع سابق.

السير في الأرض والنظر في خلق السموات والأرض للترويح عن النفس، قال تعالى: ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للنظرين ﴾^١ ، وقال عزّ من قائل: ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾^٢. وقال أيضاً: ﴿ آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إلا مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾^٣.

هذه المشاهد التي أشار إليها القرآن الكريم هي ما كان متوفراً عند الناس في مناطقهم التي يعيشون فيها، فيذهبون للنظر في ملكوت السموات والأرض كل في محيطه الذي يعيش فيه، وذلك لصعوبة التنقل في تلك الحقب، فالزينة والبهجة والنضارة المشار لها في هذه الآيات هي أغراض أساسية مقصودة لله سبحانه في خلق السموات والأرض على أتم صورة وأبهى هيئة.

وخلاصة القول: إنّ النظر في نصوص الإسلام ومقاصده لا تدع مجالاً للشك بأنه يشجع كل الأنشطة التي تبعث على السرور وتبعث على الحيوية والراحة النفسية والجسدية، وتساهم في رفع الكآبة والقلق والتوتر.

١- الحجر: ١٦

٢- ق: ٧

٣- النحل: ٦

المبحث الثالث:

آداب السياحة في السنة وضوابطها

المطلب الأول:

آداب السياحة في السنة النبوية

لم تترك الشريعة الإسلامية ناحية ما بدون تنظيم، ووضع الآداب، التي تكفل السير في الطريق الصحيح التي تضمن للمسلم ان يكون في محياه ومماته وحركاته وسكناته ضمن إطار التعليمات الشرعية التي تؤدي به إلى رضوان الله وجنته، ومن الآداب التي وضعت للسائح قبل وأثناء وبعد سياحته:

١- الاستخارة؛ فقبل اختيار المكان المراد التوجه إليه ينبغي أن يستخير في ذلك، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: « مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِحَارَتُهُ اللَّهَ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ، وَمِنْ شَقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِحَارَةَ اللَّهَ، وَمِنْ شَقْوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ »^(١).

فالاستخارة سبب في تحقيق السعادة للإنسان، فهو بموجبها يطلب توجيه الله وإرشاده له في هذه الوجهة، فالإنسان بطبعه عاجز عن فعل ما يحقق السعادة لنفسه عوضاً عن غيره، ذلك لأنه لا يدرك ما خفي من الأمور.

٢- الاستشارة، والمقصود بذلك استشارة أصحاب الخبرة من أهل الصلاح والتقوى في المكان والعمل الذي ينوي السفر من أجله، فهم يدركون كنه المكان وتفصيله، سلبياته وإيجابياته، ما عليه أن يفعل وما عليه أن لا يفعل، فهو بذلك يأخذ حصاد ونتاج خبرتهم في هذا المجال فهم أخبر منه، وهذا ما أرشدنا الله

^١- أحمد بن حنبل / مسند الإمام أحمد بن حنبل، مرجع سابق، ج ٣ ص ٥٤ رقم ١٤٤٤ . إسناده ضعيف

تعالى إليه بقوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾^(١) فلاستشارة من مبادئ الإسلام العظيم، وفي ذلك جاء قول النبي ﷺ: «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»^(٢) ، فدل ذلك كذلك على ضرورة الصدق والإخلاص في المشورة حتى يتحقق المقصود منها، وفي هذا المعنى روى أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال: «مَنْ اسْتَشَارَهُ أَحْوَهُ الْمُسْلِمُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ ، فَقَدْ حَانَهُ»^(٣) .

٣- السفر يوم الخميس، إن كان هناك مجال للاختيار في السفر بين الأيام، فمن المستحب أن يختار السفر صبيحة يوم الخميس، فهذا اتباع لسنة المصطفى ﷺ وقد جاء في صحيح البخاري : وَعَنْ يُونُسَ، عَنِ الرَّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يَقُولُ: «لَقَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ، إِذَا حَرَجَ فِي سَفَرٍ إِلَّا يَوْمَ الْحَمِيسِ»^(٤) .

٤- وأما التبكير في السفر فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»^(٥)، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً، أَوْ جَيْشًا، بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ" ^(٦) .

٥- اختيار الأصحاب والرفقة في السفر: مما يستحب للسائح أن يختار لسفره رفقة طيبة صالحة ممن يعينوه على الخير والصلاح، ويكونوا له عوناً إذا احتاج إليهم،

^١- سورة آل عمران: ١٥٩.

^٢- الترمذي، الجامع، أبواب الأدب، بَابُ أَنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ، ج ٤ / ٤٢٢، رقم ٢٨٢٢ . حسن، مرجع سابق.

^٣- أبو داود السجستاني/ السنن، كتاب العلم، باب التوقي في العلم، ح ٣٦٥٧، ٣/٣٢١، مرجع سابق، حديث حسن.

^٤- البخاري / الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فوري بغيرها، رقم ٢٩٤٩. مرجع سابق

^٥- أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، المتوفى: ٣٠٧هـ، مسند أبي يعلى، المحقق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ رقم ٥٤٠٩ [حكم حسين سليم أسد] : إسناده ضعيف ج ٩ ص ٢٨١ باب مسند عبدالله بن مسعود .

^٦- الترمذي، جامع الترمذي، ٥٠٨/٢، أبواب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة رقم ١٢١٢ . صححه الألباني، مرجع سابق.

فهو مسافر إلى أرض لا يعرفها غالباً، أو لا يعرف فيها أحد، فربما احتاج لمن يساعده أو يعينه، فتكون الرفقة الطيبة الصالحة من وسائل السعادة للسائح، روى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْوَحْدَةِ، أَنْ يَبِيَّت الرَّجُلُ وَحْدَهُ أَوْ يُسَافِرَ وَحْدَهُ» (١).

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ» (٢). كما ثبت عن النبي ﷺ النهي عن ذلك في أحاديث، منها: ما روي عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُوا، مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ» (٣). ولما سئل الإمام أحمد عن الرجل يبيت وحده؟ قال: أحب إلي أن يتوقى ذلك (٤). وهذه الأحاديث تدل على كراهة الوحدة فيما يخشى المرء فيه على نفسه، من ضعف وهلكة ومشقة، أو ما يخشاه من إغواء الشيطان وإضلاله، فإن الفائدة من وجود الرفقة والصحبة الصالحة لا تقتصر على الإعانة والمساعدة، بل الأهم أنها تثبت على الخير والتقوى، فإن الشيطان من الاثنين أبعد.

وقد نهى ابن حجر عن سفر أقل من الاثنين وأن ما دون الثلاثة عصاة، وقال الطبري: " هذا الزجر زجر أدب وإرشاد لما يخشى على الواحد من الوحشة والوحدة وليس بحرام فالسائر وحده في فلاة وكذا البائت في بيت وحده لا يأمن من الاستيحاش لا سيما إذا كان ذا فكرة رديئة وقلب ضعيف (٥)".

^١ - أحمد بن محمد بن حنبل /المسند، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، م رقم ٥٦٥٠ ج ٩، ص ٤٦٦ باب مسند عبدالله بن عمر، مرجع سابق.

^٢ - الترمذي، جامع الترمذي، أبواب الجهاد، باب ما جاء في كراهية ان يسافر وحده، ج ٤، ص ١٩٣، رقم ١٦٧٤، قال الالباني حديث حسن، مرجع سابق.

^٣ - البخاري / الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب السير وحده، ج ٤، ص ٥٨، رقم ٢٩٩٨ . مرجع سابق.

^٤ - نقلا عن "الآداب الشرعية" ج ١/ص ٤٢٨.

^٥ - ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي /فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، ٥٣/٦

والظاهر من الحديث أن النهي وارد على من يسافر في الطرق الخالية الموحشة، أما الطرق الآهلة، والتي يأمن فيها المرء ألا تنقطع به السبيل، ولا يعدم معنا ولا أنيسا، فلا يرد الكراهة ولا النهي عنه، ومثله السفر في أيامنا هذه في الطائرات أو السفن أو الحافلات، لأن من فيها كلها يعتبرون رفقة، فلم يتحقق وصف الوحدة المنهي عنه. يقول الشيخ ابن عثيمين " : هذا يدل على الحذر من سفر الإنسان وحده، ولكن هذا في الأسفار الذي لا يكون طريقها مسلوفاً بكثرة" (١).

ويقول الشيخ الألباني في تعليقه على هذا الحديث: " ولعل الحديث أراد السفر في الصحارى والفلوات التي قلما يرى المسافر فيها أحدا من الناس، فلا يدخل فيها السفر اليوم في الطرق المعبدة الكثيرة المواصلات . والله أعلم" (٢).

٦- صلاة ركعتين قبل الشروع بالسفر، يتخللها الدعاء بأن ييسر الله الأمر ويحفظه وأهله، ويستودع الله أهله، وهذا من الأمور التي استحبه الفقهاء (٣)، و ذلك يضفي على سفره التوفيق والسداد، فهو بذلك يطلب أن يكون الله معه.

فعن المطعم بن المقدم رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « مَا خَلَّفَ عَبْدٌ عَلَيَّ أَهْلَهُ أَفْضَلَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ يَرْكَعُهُمَا عِنْدَهُمْ حِينَ يُرِيدُ سَفَرًا » (٤).

١- في "فتاوى نور على الدرب" (متفرقات/الآداب

٢- <https://islamqa.info/ar/answers/105280/%D8%AD%D9%83%D9%80-%D8%B3%D9%A1%D8%B1-%D8%A7%D9%A4%D8%A7%D9%A6%D8%B3%D8%A7%D9%A6-%D8%A8%D9%A0%D9%A1%D8%B1%D8%AF%D9%A7>

٣- قال في الشرح الكبير على مختصر خليل في الفقه المالكي: قال عياض ذوات السبب الصلاة عند الخروج للسفر وعند القدوم منه وعند دخول المسجد وعند الخروج منه والاستخارة والحاجة وبين الأذان والإقامة وعند التوبة من الذنب ركعتان. انتهى.

٤- ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خوستي العسبي (المتوفى: ٢٣٥هـ/ الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩، ١/٤٢٤، ح ٤٨٧٩، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦، رقم ١١٨٣٤. قال الألباني: حديث ضعيف .

وقد ورد أن الرسول ﷺ قال: « مَنْ أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ فَلْيُثَلِّمْ لِمَنْ يُحَلِّفُ: أَسْتَوْدِعُكُمْ اللَّهَ الَّذِي لَا تَضِيْعُ وَدَائِعُهُ»^(١). فهو بذلك يستودع أهله بحفظ الله ورعايته، فلا يبقى مشغول البال عليهم، وهذا يزيد في سفره سرورا وتوفيقا وانصرافا لما هو ذاهب من أجله، وهذا ما أكدته حديث مُجَاهِدٍ، حيث قَالَ: حَرَجْتُ إِلَى الْعَزْوِ فَشَيَّعَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَلَمَّا أَرَادَ فِرَاقَنَا قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ مَعِيَ مَا أُعْطِيَكُمْهُ وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا اسْتَوْدِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ " وَأَنَا اسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكُمْ وَأَمَانَاتِكُمْ وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُمْ»^(٢).

وورد عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد أحدكم سفرا فليودع إخوانه، فإن الله تعالى جاعل في دعائهم خيرا»^(٣).

كما أنه يستحب أن يدعو مَنْ كان في وداع المسافر بما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما حيث يقول للرجل - إذا أراد سفرا - أدن مني أودعك، كما كان رسول الله ﷺ يودعنا، فيقول: «استودع الله دينك، وأمانتك وخواتيم عملك»^(٤).

١- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ) الدعاء، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣، ٢٦٠/١، ح ٨٢٣، قال الالباني: حديث حسن، انظر: الجامع الصحيح للسنن والمسانيد المؤلف: صهيب عبد الجبار، ج ٣٣، ص ٩٩.

٢- أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجْردي الخراساني، (المتوفى: ٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ٢٩١/٩، رقم ١٨٥٧٨.

٣- أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (المتوفى: ١٣٧٨ هـ)، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، ج ٥، ص ٦١.

٤- الترمذي/ الجامع، أبواب الدعوات، باب ما يقول إذا ودع إنسانا، ج ٢٧٦/٥، رقم ٣٤٤٣. قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وقال الألباني: صحيح . مرجع سابق.

المطلب الثاني:

ضوابط السياحة في السنة النبوية

يعتقد بعض الناس أن السائح لا بد أن يقع في الفسوق والفجور والمنكرات، وذلك لما ترسخ في ذهنهم من ارتباط السياحة بالمخالفات الشرعية والمنكرات التي يقوم بها كثير من الناس، فالسياحة التي عرفوا هي للترفيه فقط، وما عرفوا أن سلفنا الصالح ساحوا في الأرض وانتشروا فيها، كل واحد منهم سار لتحقيق هدف ما في حياته، إثمًا هدف ديني، أو علمي، أو غير ذلك، كما أنه فاتهم الإنسان الذي يخاف الله، يظهر عليه ذلك الخوف أينما حل أو ارتحل، وفي أي موقف يعيشه، وذلك لما تعلمه المسلم من الضوابط الشرعية في حياته، ومن الآداب التي تحلى بها.

لما أجاز الشارع السياحة، أجازها ضمن ضوابط شرعية، ولم يتركها متحررة مما يجعلها تدور في فلك الشريعة ولا تخرج عن مسارها، ومن هذه الضوابط:

أولاً: السياحة تكون -غالباً- للترفيه عن النفس وتغيير الجو الروتيني من ضغط الحياة، وهذا مباح ولا بأس به، ولكن إن كان هناك ضررٌ كبير سيلحق بالسائح أو من معه أو من خلفه، يتحول الحكم من الإباحة إلى الحرمة، فنفس الإنسان أو عرضه أو ماله، ليست ملكه ليتسبب في إلحاق الأذى بها، فهي من مقاصد الشرع التي راعاها الشارع، وشرع من الأحكام ما فيه حماية لها، بل وديمومتها، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»^(١).

^١ ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)/سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، كتاب الأحكام، باب مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بِنَايِهِ، رقم ٢٣٤١، ج ٢، ص ٧٨٤. قال الالباني: صحيح لغيره

أما إن كان الضرر المتوقع يلحق مشقة كبيرة بالسائح أو من معه أو من خلفه فيكره عندئذٍ للسائح أن يكمل طريقه في هذا الاتجاه، وهذا يقتضي أن الأولى أن يختار وجهة سفره لبلد إسلامي، فهو أكثر من غيره التزاما بضوابط الشرع، وأكثر إعانة للسائح على الإنضباط.

فمصالح الانسان تقسم الى ضرورية وحاجية وتحسينية، فالضرورية ما لا يمكن التفریط بها، ولا الاستغناء عنها، والحاجية ما كانت أقل من مرتبة الضرورة، بحيث نلحق مشقة كبيرة بالإنسان.

ثانياً: أن يكون هدف السائح من وراء سياحته هدفا مشروعاً^(١)، يدخل في دائرة الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة كحد أدنى، لأن الحكم الشرعي للسياحة مرتبط بالهدف من ورائها، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ حَارِجٍ يَخْرُجُ - يَعْنِي مِنْ بَيْتِهِ - إِلَّا بِبَابِهِ رَايْتَانِ: رَايَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ، وَرَايَةٌ بِيَدِ شَيْطَانٍ، فَإِنْ حَرَجَ لِمَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، اتَّبَعَهُ الْمَلَكُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الْمَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ، وَإِنْ حَرَجَ لِمَا يُسْخِطُ اللَّهُ، اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ»^(٢).

ثالثاً: المحافظة على الواجبات الدينية، بالالتزام بما شرع الله والانتهاز عما حرم الله، فيحافظ على صلاته، ويتعد عن أكل أو شرب ما هو محرم عليه، ويغض البصر، فالرقيب على ذلك لا يغفل عنه سواء كان في بلاده أو في بلاد الغربية، والتشريعات الإسلامية لا فرق في الالتزام بها بين مكان وآخر، كما أنه لو تعارض واجبات الشرع مع

١ - د. أشرف محمد زيدان و د. فخر الأدب بن عبد القادر، بحث بعنوان حقيقة مفهوم السياحة في القرآن الكريم وضوابطها الشرعية ص ٨٣، مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، المجلد ٣، العدد ٤، تشرين الأول، أكتوبر، ٢٠١٧.

٢- أحمد بن حنبل/مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١٤، ص ٤٢ رقم ٨٢٨٦ . اسناده حسن، مرجع سابق

متعلقات السياحة، تقدم واجبات الشرع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وما ألهى وشغل عما أمر الله به فهو منهي عنه، وإن لم يحرم جنسه كالبيع والتجارة، وأما سائر ما يتلهى به الباطلون من أنواع اللهو وسائر ضروب اللعب، مما لا يستفاد به في حق شرعي فكله حرام.^(١)

ولا ينبغي للسائح أن ينسى أنه على ثغرة من ثغر الإسلام، فهو يمثل الإسلام في تعامله وأخلاقه، ولذا عليه أن يكون مؤثراً لا متأثراً - إلا بما هو مباح - فهو داعية في أي مكان يذهب إليه ففي الحديث الذي رواه البخاري قال صلى الله عليه وسلم: « فَإِنَّ لِحَسْبِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرُؤُوجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا »^(٢).

رابعاً: المحافظة على نظام وقانون البلد التي سيزورها، ويحترم عاداتهم وتقاليدهم بما لا يناقض الشرع ولا يصطدم به.

خامساً: المحافظة على معالم البلد السياحية، وعدم الاعتداء عليها، واحترام تاريخ تلك المنطقة.

سادساً: إظهار عزة المسلم وكرامته، خاصة إذا كان البلد المزار بلداً غير إسلامي، وعدم التنازل عن معتقدات أو ثوابت الدين من أجل إرضاء الآخرين، أو التماشي معهم، ومنها عدم التشبه بغير المسلمين فيما يخص السياحة، نحو اللباس أو السباحة المختلطة، أو طريقة الأكل أو الشرب أو غير ذلك.

سابعاً: المحافظة على ترتيب الأولويات، فالضرورة أولاً ثم الحاجيات ثم التحسينيات، والسياحة المباحة تقع في دائرة التحسينيات، فلا يقدم التحسينيات على الحاجيات، ولا على الضروريات من باب أولى، فهل لإنسانٍ تقصر به النفقة على نفسه

١ - <http://almomenoon.com/tr712-topic>

٢ - البخاري/ الصحيح، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، ح ١٩٧٥، ج ٣، ص ٣٩.

وعلى من تجب عليه نفقته، أو مثقل بالديون، أن يقتصر ليخرج سياحة مباحة؟ و قد جاء عن الفقهاء قولهم (لا اقتراض إلا لضرورة معتدة شرعاً).

فالإسراف مرض اجتماعي كان سببا في الهلاك العاجل والآجل للأفراد والشعوب
 (١)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٣)، وقال ﷺ: « مَا عَالَ مِنْ أَقْتَصَدَ (٤) » وقال الطبري: "أصل الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبح، وربما كان ذلك في الإفراط، وربما كان في التقصير، مما سبق يمكن القول بأن الإسراف هو مجاوزة الحد في النفقة المباحة لدرجة الزيادة على حد الحاجة المعتدلة. فما زاد عن ذلك يعتبر إسرافا، ومرد ذلك إلى العرف والعادة، العرف العام للبلد، والعرف الخاص للشخص. ولقد جاءت النصوص الشرعية الدالة على تحريم الإسراف في النفقة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (٥).

ثامناً: "المحافظة على الوقت الذي يعتبر من أهم النعم التي أنعمها الله على الإنسان، ولا يشعر الإنسان بأهميته إلا إذا فقد أو كاد أن يفقده، ولك أن تتخيل طالب ضيع الوقت تلو الوقت في الملذات والسهرات، حتى إذا قيل له إن وقت

١- خالد منصور وخالد شجاع العتيبي، الضوابط الشرعية للسياحة الترويحية في الفقه الإسلامي، بحث منشور بمجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلد ٣٦، ملحق، ٢٠٠٩ - ٧٦١ - ص ٧٧٤.

٢- سورة الإسراء: ١٦

٣- سورة النحل: ١١٢

٤- أحمد بن حنبل/ مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج، ٧، ص ٣٠٢، رقم ٤٢٦٩. إسناده ضعيف،

٥- سورة الأعراف: ٣١

الاختبار يوم غدٍ، فعندئذٍ سيدرك أهمية الوقت الذي أضاعه بلا فائدة. ولذا كان لا بد من استغلال الوقت قبل أن يطلبه الإنسان فلا يجده فلا افراط ولا تفريط (١).

تاسعاً: تجنّب الأماكن التي حدث فيها عذابٌ لأممٍ سابقة، ونهى صلى الله عليه وسلم عن زيارتها (٢)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» (٣)، وذكر في رواية أخرى أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» ثُمَّ تَفَنَعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ» (٤).

عاشراً: أن لا تكون السياحة من أجل تعظيم مكان أو معلمٍ معيّن، وقد نصت الأحاديث النبوية الشريفة على حرمة شد الرحال الا الى المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى» (٥)، وقد يكون ذلك دليلاً على حرمة الترويج لما يسمى السياحة الدينية التي يكون الهدف منها

١- خالد منصور وخالد شجاع العتيبي، الضوابط الشرعية للسياحة الترويحية في الفقه الإسلامي ص ٧٧٤.

٢- المرجع السابق، ص ٧٧٤.

٣- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم ٤٣٣، ج ١، ص ٩٤، مرجع سابق.

٤- المرجع السابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: " والى ثمود أخاهم"، رقم ٣٣٨٠.

٥- البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ح ١١٨٩، ج ٢، ص ٦٠، مرجع سابق.

المبحث الخامس:

آثار السياحة

المطلب الأول:

الآثار الإيجابية للسياحة

تتنوع الآثار الإيجابية التي تنتجها السياحة؛ منها ما هو ديني، وآخر اقتصادي، وثالث سياسي، وتفصيلها على النحو الآتي:

الفرع الأول: الآثار الدينية

- انتشار الدين والعلم:

تشكل السياحة وسيلة هامة لنشر الدين الإسلامي، وذلك إما مباشرة باستغلال الوقت في الدعوة الى دين الله تعالى، وإظهار محاسنه ومزاياه، منتهزاً المكان المناسب والوقت المناسب لذلك، وهذا ما يفسر انتشار صحابة رسول الله ﷺ في كافة البقاع، ناشرين الدين، وداعين إليه، قال ﷺ «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(١)، وقال في أهمية نشر العلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(٢) كما يمكن أن يكون ذلك بطريقة غير مباشرة وذلك بالتحلي بالأخلاق الإسلامية، والتعامل بالمعاملة الإسلامية، وهذا - بلا شك- يترك الأثر الكبير في نفوس من يتعامل معهم هذا السائح، فلا كذب، ولا غش، ولا استغلال، ولا مماطلة، والمحافظة على النظام، والأدب، والنظافة، إلى غير ذلك من الآداب والأخلاق الإسلامية، -وكما نعلم- فقد

^١ البخاري/ الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٤٦١، مرجع سابق.

^٢ أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، ج ٣، ص ٣٢١، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم ٣٦٥٨. قال اللبناني: حسن صحيح، مرجع سابق.

كان للأخلاق الإسلامية للتجار المسلمين أكبر الأثر في انتشار الإسلام في كثير من البلاد^(١).

- كما أنّ للسياحة دورا كبيرا في نشر العلوم الإسلامية بين المجتمعات التي يزورها السائح، وبذات الوقت تشكل السياحة وسيلة هامة لتلقي علوم الآخرين، فالمسلم يفيد ويستفيد في كل مكان يذهب إليه، وهذا ما جعل من رحلات العلم التي جابها كثير من علماء السلف الصالح الأثر الكبير في نشر وتلقي العلوم.

الفرع الثاني: الآثار الاقتصادية

لا شك أن للسياحة آثارا اقتصادية كبيرة تعود بالنفع والفائدة للبلد الذي يتم زيارته، ومن هذه الآثار:

- ١- توفير فرص وظيفية، فكلما كثر عدد السياح كان هناك حاجة لمن يقوم على رعايتهم وتوفير ما يلزمهم، وهذا يؤدي إلى تشغيل الأيدي العاملة ابتداءً من موظفي المطارات، فسائقي المواصلات، وموظفي الفنادق، والأماكن العامة، وضرورة توفر أدلاء سياحيين.... الخ.
- ٢- جلب العملة الصعبة للبلد الذي يتم زيارته، فالسائح يجلب معه عملة لكي يقوم بإنفاقها في البلد، وهذا يشكل رافدا مهما من روافد العملة للبلد، وهذا يؤدي إلى رفع الناتج القومي للبلد.

^١ انظر: حسام الدين بن موسى محمد بن عفانة، فقه التاجر المسلم، الطبعة: الأولى، بيت المقدس ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

توزيع: المكتبة العلمية ودار الطيب للطباعة والنشر ص ٢١٣، و ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (المتوفى: ٨٥٢هـ)، شرح بلوغ المرام، الشارح: عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حمد الخضير ج ٤٧، ص ١٧، و أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميسو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بدوي - محمود إبراهيم بزال، (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٣- توفير ما يحتاجه السائح من مواصلات ومأكولات وملبوسات وأماكن سكن، كل هذا يساهم في رفع العوائد الاقتصادية للبلد مما يساهم إيجابا في تحسن مستوى البلد الاقتصادي (١).

- ٤- العمل بإنشاء المنشآت التي يحتاجها السائح في مناطق زيارته، وهذا من شأنه تشجيع وجلب الاستثمارات الخارجية، ولا يخفى ما في ذلك من آثار إيجابية على الاقتصاد (٢)
- ٥- استفادة البلد من حيث تحسين البنية التحتية له، كوسيلة من وسائل تشجيع السياحة، وهذه التحسينات يستفيد منها أبناء المجتمع كما يستفيد منها السائح (٣)
- ٦- السياحة تؤدي إلى وجود السلام بين المجتمعات، مما يكون له الأثر الكبير في الانصراف نحو التنمية والاقتصاد بدل من الانشغال بالتمسح والحروب (٤).
- ٧- انتعاش التجارة، فالسائح سيقوم بشراء مستلزماته من البلد المضيف، وهذا يؤدي إلى تحريك العملية التجارية مما يؤثر إيجابا على الناحية الاقتصادية (٥).

الفرع الثالث: الآثار السياسية والاجتماعية

تشكل السياحة وسيلة هامة من وسيلة التعايش بين المجتمعات على اختلاف أعراقها وأديانها، وهذا يؤدي إلى أن يسود الأمن والسلام بين المجتمعات، الذي بدوره

^١ هاشم بن محمد بن حسن نافور، أحكام السياحة وآثارها (دراسة شرعية مقارنة)، نوع الدراسة: Masters resume، البلد: المملكة العربية السعودية، الجامعة: أم القرى، الكلية: الشريعة والدراسات الإسلامية، التخصص: دراسات إسلامية، المشرف: الأستاذ الدكتور/ نزار بن عبد الكريم بن سلطان الحمداني، العام: ١٤٢٢ هـ.

^٢ مشروع تنمية السياحة الوطنية للمملكة العربية السعودية ١٤٤١ هـ - ١٤٢٢ (ص ١٦).

^٣ المرجع السابق، ص ١٦.

^٤ قسم الارشاد والتطوير السياحي الجامعة الأردنية، كلية الآثار والسياحة، مقدمة في علم السياحة.

^٥ الياس عياشي، الاجتماع الخدمات السياحية الفندقية والتنمية الحضرية في جيجل، الجمهورية الجزائرية جامعة منتوري قسنطينة رسالة ماجستير ٢٠٠٨، ص ٧٩.

ينعكس على السلم بين الدول، وبذلك تكون السياحة من وسائل التآلف والتقارب ونبذ العنف بين الدول^(١).

كما تعمل السياحة على ازدهار العلاقات الدولية وتنمية الروابط، وتبادل الثقافات والعلوم والمعارف، وهذا يؤدي إلى تخفيف التوترات بين الدول والانصراف إلى تحقيق التنمية ورفاهية الشعوب.

ويمكن للسياحة كذلك أن تلعب دوراً بارزاً في نقل وجهات النظر من خلال زيارة بعض المناطق والاطلاع على واقع الحال فيها، وتكوين وجهة نظر واقعية بعيدة عن النقل غير المباشر.

ويمكن للسياحة أن تلعب دوراً هاماً في تبادل الثقافات بين الشعوب، وهذا من شأنه أن يعزز الثقافات الإيجابية، ويطرح الثقافات السلبية^(٢).

المطلب الثاني:

الآثار السلبية للسياحة

لا شك أنّ للسياحة آثاراً سلبية تعود على السائح أو على المجتمع أو الدولة، ومعرفة هذه السلبيات تجعل تجنب هذه السلبيات أكثر فاعلية، ومنها:

- التأثيرُ بعادات وسلوكيات الكفار، وهذا قد يؤثر في بعض السّياح الذين لا يكون لديهم المخزون الكافي من الوعي الديني والثقافي، ولذا كان لا بد من تحصين السائح وتثقيفه دينياً واجتماعياً وصحياً حتى يكون مؤثراً لا متأثراً.

^١ مشروع تنمية السياحة الوطنية للمملكة العربية السعودية ١٤٤١ هـ - ١٤٢٣، ص ١٦. الهيئة العليا للسياحة، السعودية.

^٢ دليل الحد من الفقر من خلال السياحة ص ٢٣، منظمة العمل الدولية.

- صعوبة الالتزام بأوامر الشريعة، من حيث عدم توفر أماكن العبادة، أو عدم توفر الطعام الحلال أو غير ذلك، ولذلك فإن دراسة المنطقة المراد السياحة فيها أمر مهم للسائح.
- تساعد على ازدياد نسبة السرقة والغش وخاصة في دول معينة فقيرة أو يسودها الجهل، ومن هنا كان لا بد من الحرص الجيد من السائح في هذا الموضوع.
- في بعض الحالات يتولد الحقد والكراهية من قبل أهل البلد إلى السواح وخاصة في الدول الفقيرة، مما قد يعرضهم للخطر، وتجنّب هذا الأمر يكون بإظهار التودد والتحبب لأهل البلد، والابتعاد عن التعالي عليهم، وإظهار غناهم على حساب فقرهم.
- ومن السلبيات كذلك السياحة التي يصحبها فسق ومجون، وخروج عن الضوابط الشرعية، مقلدين للغير في سياحتهم الشهوانية وقد قال ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبِّ تَبِعْتُمُوهُمْ. قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: فَمَنْ؟» (١). ومن هنا ننبه الآباء والأمهات إلى الانتباه إلى مثل هذه الأمور محافظة عليهم وعلى أولادهم من الوقوع في برائث الرذيلة، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢).
- قد تساعد على انتشار الأمراض والأوبئة ولكن أغلب الدول عالجت هذه المشاكل بطلب من السواح الحصول على تلقيح ضد أمراض معينة عند الحصول على تأشيرة الدخول (الفيزا). (٣)

١ - البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لتبعن سنن من قبلكم، رقم ٧٣٢٠، مرجع سابق.

٢- الملك: ١٠

٣- علي بن نايف الشحود، السياحة بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الجاهلي، ص ١٧. المكتبة الشاملة.

- وقد تساعد على تغيير عادات وتقاليد المجتمع المحافظ وبعض الحالات تساعد على انتشار الدعارة، ولكن هذه المشكلة تمكنت كثير من الدول من معالجتها عن طريق تشديد الرقابة والوعي في المجتمع، وتحسينه دينياً وثقافياً وصحياً.
- ومن تلك الآثار الخوف من تعرض الأهل والأولاد لمخاطر المنصرين، الذين يهدفون الى الدعوة إلى عقيدتهم النصرانية، وإلى زيارة كنائسهم والتعرف على معتقداتهم، إضافة إلى ما يقيمونه من برامج ترفيهية مجانية على أنغام الموسيقى، والأناشيد الكفرية، ولكن نتمثل قوله تعالى ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(١)، ومن السلبيات كذلك ما ينتشر بين أولئك في تلك البلاد من الأمراض المعدية و الخطيرة.^(٢)

ويجب إعطاء تعليمات للسواح عند دخولهم البلد بعادات وتقاليد المجتمع الذين يزورونه لغرض تطبيقها واحترامها حتى لا يتم المساس بعادات وتقاليد البلد وحتى لا تنشأ كراهية وحقد من قبل سكان البلد المضيف تجاه السواح^(٣).

لهذه الأسباب التي ذكرت يجب على الدول المحافظة التي تفتح أبوابها للسواح مراعاة نوعية السواح الذين يدخلون البلد واستبعاد قدر المستطاع المراهقين والشباب وممكن التركيز على السياحة الثقافية وعلى أعمار معينة ومراكز معينة في عمليات التسويق والترويج.

^١- البقرة: ١٢٠

^٢- علي بن نايف الشحود، السّياحةُ بينَ المفهومِ الإسلاميِّ والمفهومِ الجاهليِّ، ص ١٧، مرجع سابق.

^٣- ندى الروابدة، مقدمة في علم السياحة، الجامعة الأردنية، كلية الآثار والسياحة، قسم الارشاد والتطوير

السياحي، ص ٢٠

الخاتمة

بعد أن من الله علي بإكمال صفحات هذا البحث المتواضع، فقد توصلت إلى النتائج والتوصيات التالية:

أولاً: النتائج:

- السياحة مشروعة في الكتاب والسنة.
- هناك أنواع للسياحة منها الديني والعلاجي والعلمي والترويحي.
- حكم كل نوع من أنواع السياحة يأتي ضمن ما يتقيد به من ضوابط شرعية.
- يجب على السائح التقيّد بآداب السياحة وضوابطها.
- هناك آثار إيجابية للسياحة، وأخرى سلبية.

ثانياً: التوصيات:

- على الدول الاهتمام بالسياحة وفق الضوابط الشرعية.
- عمل دليل سياحي منظم ومرتب للمواقع السياحية.
- تدريب أدلاء سياحيين على درجة من الوعي والانضباط الديني.

المصادر والمراجع

١. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي (المتوفى: ٣٢٧هـ) / الجرح والتعديل، الناشر: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٢٧١ هـ ١٩٥٢ م.
٢. ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) / الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩.
٣. زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦.
٤. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان، ترتيب علاء الدين علي بن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة ١٤٠٨/١٩٨٨.
٥. ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
٦. ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ) / الصحيح.
٧. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤.
٨. ابن كثير، اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩.
٩. ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) / سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
١٠. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ.

١١. أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجْردي الخراساني، (المتوفى: ٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
١٢. أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
١٣. أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، (المتوفى: ٣٠٧هـ)، مسند أبي يعلى، المحقق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ .
١٤. أبو نعيم الاصفهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر دار السعادة، مصر، ١٩٧٤ .
١٥. أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) / مسند أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة
١٦. أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (المتوفى: ١٣٧٨ هـ)، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية .
١٧. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي / الصحيح، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة تقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ .
١٨. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
١٩. الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) / المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠ .

٢٠. حسام الدين بن موسى محمد بن عفانة، فقه التاجر المسلم، الطبعة: الأولى، بيت المقدس ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢١. حسين حسين شحاته، الضوابط الشرعية للسياحة، المكتبة الشاملة.
٢٢. خالد منصور وخالد شجاع العتيبي، الضوابط الشرعية للسياحة الترويحية في الفقه الإسلامي ، بحث منشور بمجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلد ٣٦، (ملحق)، ٢٠٠٩ .
٢٣. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) / الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض .
٢٤. دليل الحد من الفقر من خلال السياحة ص ٢٣، منظمة العمل الدولية.
٢٥. الرازي، أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين (ت ٣٩٥)، المحقق: عبد السلام هارون، معجم مقاييس اللغة، اتحاد الكتاب العرب .
٢٦. الزجاج، ابراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده، الطبعة الأولى، عالم الكتب - بيروت. ١٩٨٨ .
٢٧. الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.
٢٨. السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ) /فتح المغيث، علي حسين علي، مكتبة السنة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
٢٩. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ) الدعاء، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا
٣٠. الطبري، محمد بن جرير (٣١٠) جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد شاکر، دار المعارف، مصر، القرطبي، الجامع لإحكام القرآن، .
٣١. العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفى بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ) / عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي / بيروت، ٧٩/١٤ .
٣٢. الغريبي، ناصر بن محمد بن حامد الغريبي / قوت المغتذي على جامع الترمذي، رسالة الدكتوراة - جامعة أم القرى، مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٢٤ .

٣٣. . القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤ .
٣٤. . مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، الموطأ، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي - الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ج، ٢، ص ١٥٠ .
٣٥. . المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، كتاب العلم، باب فضل طلب العلم ٣٣٩/٧ .
٣٦. . مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)/ الصحيح، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر، ح ٢٤٧٣، ٤/١٩١٩ .
٣٧. . مشروع تنمية السياحة الوطنية للمملكة العربية السعودية ١٤٤١ هـ - ١٤٢٢، ص ١٦ . الهيئة العليا للسياحة، السعودية .
٣٨. . مصطفى إبراهيم، الزيات، أحمد، عبد القادر، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة .
٣٩. . من فتاوى اللجنة العلمية هل السفر على وجه السياحة محرم، ١٣٣٤، تاريخ النشر: ٠٢ - ٠٧ - ٢٠٠١ .
٤٠. . ندى الروابدة، مقدمة في علم السياحة، الجامعة الأردنية، كلية الآثار والسياحة، قسم الارشاد والتطوير السياحي .
٤١. . هاشم بن محمد بن حسن ناقو، أحكام السياحة وآثارها (دراسة شرعية مقارنة)، نوع الدراسة: Masters resume ، البلد: المملكة العربية السعودية، الجامعة: أم القرى، الكلية: الشريعة والدراسات الإسلامية، التخصص: دراسات إسلامية، المشرف: الأستاذ الدكتور/ نزار بن عبد الكريم بن سلطان الحمداني، العام: ١٤٢٢ هـ .
٤٢. . الياس عياشي، الاجتماع الخدمات السياحية الفندقية والتنمية الحضرية في جيجل، الجمهورية الجزائرية جامعة منتوري قسنطينة رسالة ماجستير ٢٠٠٨ .

 الروابط الالكترونية

- <http://almomenoon1.wn.com/t3712-topic>
- <https://islamqa.info/ar/answers/10280/%D8%AD%D9%83%D9%80-%D8%B3%D9%81%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%87-%D8%A8%D9%85%D9%81%D8%B1%D8%AF%D9%87>
- <https://islamqa.info/ar/answers/87846/%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%AD%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%80-%D9%88%D8%A7%D8%AD%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%87%D8%A7-%D9%88%D8%A7%D9%86%D9%88%D8%A7%D8%B9%D9%87%D8%A7>



مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

مجلة علمية-حكمة-تصدر عن جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية- اليمن (١٧) (٢٠٢٠/٦) ٢٦١٧-٥٨٩٤-ISSN:

تناصر أهل الباطل في ضوء القرآن الكريم

(حقيقته ووجوهه ومنطقاته ووسائله)

د/ هيفاء صالح طاهر بوقس
أستاذ التفسير المساعد بقسم القراءات
كلية أصول الدين - جامعة أم القرى

ملخص البحث

تناصر أهل الباطل في ضوء القرآن الكريم (حقيقته ووجوهه ومنطلقاته ووسائله) يهدف هذا البحث إلى: بيان حقيقة التناصر بين أهل الباطل وبيان وجوهه ومنطلقاته وإلى ذكر وسائله.

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي الاستنباطي، وقد جاء هذا البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة. وتوصلت من خلاله إلى عدد من النتائج، منها: أن التناصر يطلق على معنى التعاون على النَّصر بوسائل وأساليب متنوعة وليس بالضرورة أن يبني على الموالاة الكاملة، وقد يقع التناصر بين أهل الباطل ظاهراً في الدنيا، ولكنه في الحقيقة يحتوي على خلل في بنينه؛ لأنه لا يقوم على أسس تضمن له الاستمرار والصدق والدوام، والجامع لأهل الباطل هو الحرب على الحق أو المصلحة. وأما في الآخرة فلا يقع التناصر بين أهل الباطل البتة.

وهناك وجوه من التناصر بين أهل الباطل في الدنيا، كالموالاة والتعاون ودعم المواقف والتكاثر والتعزز.. وغير ذلك، وتلك الوجوه من التناصر بينهم تتفاوت في مستوياتها وشمولها ومجالاتها.. وتتنوع إلى نظرية وعملية ولها أبعاد استراتيجية وتكتيكية. وترتبط بمعطيات متنوعة يملئها الواقع والتخطيط.

كما أن التناصر بين أهل الباطل له منطلقات ثابتة ومتغيرة، فالثابتة: لها أبعاد دينية وفكرية ثقافية، وأخلاقية وسلوكية تربوية، ومنهجية تخطيطية. والمتغيرة: مرجعها النفاق والمصالح الآنية. وللتناصر بينهم وسائل نظرية وعملية متنوعة، ذات مستويات متفاوتة.

كلمات مفتاحية: التناصر وجوه التناصر الباطل منطلقات التناصر

وسائل التناصر.

Abstract

This research: The support of the people of falsehood in the light of the Noble Qur'an (its truth, its faces, its starting points and its means). It aims to: To clarify the reality of the victory among the people of falsehood and to explain its faces and its starting points and to mention its means. In this research, I followed the descriptive deductive approach, and reached through it a number of results, including: That advocacy calls the meaning of cooperation over victory by various means and methods and is not necessarily based on complete loyalty, and victory may occur between the people of falsehood apparently in the world, but in fact it contains a defect in its structure, because it is not based on foundations that guarantee its continuity, honesty, permanence, and inclusion for the people of falsehood is war on the right or the interest. As for the hereafter, there is no victory between the people of falsehood. There are aspects of rivalry between the people of falsehood in the world, such as loyalty, cooperation, support for situations, reproduction, reinforcement, etc., and those aspects of rivalry between them vary in their levels, coverage, and fields .. and they vary into theory and practice and have strategic and tactical dimensions. And it relates to various data dictated by reality and planning. Likewise, the sympathy between the people of falsehood has fixed and variable starting points, for it is fixed: it has religious, intellectual, cultural, ethical, educational and behavioral dimensions, and a planning methodology. And the variable: reference to hypocrisy and immediate interests. And among the people there are various theoretical and practical means, of varying levels. This research came in the introduction and four investigations and a conclusion.

Key words: Victory, object of invalid objection, premise of victory, means of victory

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، أما بعد:

فإن من حكمة الله تعالى من خلق الحياة الدنيا أن جعل فيها الابتلاء والامتحان للبشر بوجوه من الامتحانات والابتلاءات؛ لأهداف وحكم عديدة، ومن موارد ذلك الامتحان: بقاء الصراع بين الحق والباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويتخذ ذلك الصراع صوراً شتى على المستوى الديني والحياتي.

أهمية البحث:

مما يخفى في هذا الصراع وجود دوافع ترتبط بمعتقدات وأفكار وأهداف، سواء من جانب أهل الحق أو أهل الباطل. وقد بين القرآن الكريم ذلك بمستويات متفاوتة من البيان، وبوجوه عديدة.

ودوافع أهل الحق وأهدافهم تكاد أن تكون معروفة عند المؤمن القارئ لكتاب الله تعالى، ولكن قد تخفى الدوافع التي عند أهل الباطل، أو تخفى جوانب منها على الكثير من الناس، فجاء البحث لتلبية جانب من هذا النقص المعرفي.

والبحث فيه أيضاً عون للدعاة والمصلحين؛ فقد يعينهم في طرقهم وأساليبهم في الدعوة والإصلاح، وكذلك طلبة إعداد الدعاة في الجامعات والمعاهد العلمية قد يجدون مادة علمية في هذا البحث لبحوثهم ودراساتهم العليا. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث.

ولكل ذلك فقد أردت الإسهام في بيان حقيقة التناصر بين أهل الباطل مع جانب من دوافعهم للتناصر، من خلال هذا البحث الذي سميته: تناصر أهل الباطل في ضوء القرآن الكريم (حقيقته ووجوهه ومنطلقاته ووسائله).

أهداف البحث:

وقد هدفت من خلال هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. بيان حقيقة التناصر بين أهل الباطل.
٢. بيان وجوه التناصر ومنطلقاته عند أهل الباطل.
٣. ذكر وسائل التناصر بين أهل الباطل.

تساؤلات البحث:

تتمثل مشكلة هذا البحث في الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما حقيقة التناصر بين أهل الباطل؟ وما هي وجوهه؟
٢. ما هي منطلقات ودوافع التناصر بين أهل الباطل؟
٣. ما هي وسائل التناصر بين أهل الباطل؟

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي الاستنباطي، من خلال تتبع الآيات التي تدل للموضوع واستنباط المعاني والدلالات التي تخدم جوانب الموضوع، مع الاستفادة من كلام العلماء وتحريراتهم، مع ملاحظة عدم استقصاء كل الآيات الدالة لمفاهيم البحث؛ فالمقصد التمثيل والتدليل.

الدراسات السابقة:

موضوع تناصر أهل الباطل موضوع مطروق في كتب السابقين وتفاسيرهم، ولكن ليس كببحث مستقل، بحسب علمي، كما أنني لم أجد بحثاً بنفس المعطيات التي قصدت إليها في بحثي.

خطة البحث: وقد قسمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، كما يلي:

المبحث الأول: حقيقة التناصر بين أهل الباطل .. وفيه مطلبان

المطلب الأول: مفهوم التناصر في اللغة والاصطلاح

المطلب الثاني: حقيقة تناصر أهل الباطل في القرآن

المبحث الثاني: وجوه التناصر بين أهل الباطل ومستوياته في القرآن .. وفيه

مطلبان

المطلب الأول: وجوه التناصر بين أهل الباطل

المطلب الثاني: مستويات التناصر بين أهل الباطل

المبحث الثالث: منطلقات ودوافع التناصر بين أهل الباطل في القرآن وفيه

مطلبان

المطلب الأول: منطلقات ودوافع منهجية للتناصر بين أهل الباطل

المطلب الثاني: منطلقات ودوافع متغيرة للتناصر بين أهل الباطل

المبحث الرابع: وسائل التناصر بين أهل الباطل في القرآن .. وفيه مطلبان

المطلب الأول: الوسائل النظرية الفكرية والثقافية للتناصر بين أهل الباطل

المطلب الثاني: الوسائل العملية السلوكية للتناصر بين أهل الباطل

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول:

حقيقة التناصر بين أهل الباطل

المطلب الأول: مفهوم التناصر في اللغة والاصطلاح

التناصر في اللغة:

هو مصدر من باب نصر، يقال: تناصر تناصرا وناصرة، ويأتي لعدة معان متقاربة:

١. التعاون: "يقال: تَنَاصَرُوا: تَعَاوَنُوا عَلَى النَّصْرِ. وَنَصَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا"^١.
٢. التصديق والتأييد: "وَمَنْ مَجَّاز: تَنَاصَرَتِ الْأَخْبَارُ: صَدَّقَ بَعْضُهَا بَعْضًا"^٢.
٣. التوالي والتواتر، أي التابع المستمر: يقال: "توالت أنباء الحادث: تناصر"^٣.
٤. الموالاتة^٤، وهو معنى يرجع إلى المعنى السابق (من حيث اللغة)، ولكن الموالاتة ربما أشمل من التوالي والتواتر، من حيث مؤداها العملي الاصطلاحي.
٥. التعاضد: "وَفِي الْحَدِيثِ: (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَنِ الْمُسْلِمِ مُحَرَّمٌ، أَحْوَانُ نَصِيرَانِ)^٥، أي هما أَحْوَانٌ يَتَنَاصَرَانِ وَيَتَعَاضَدَانِ. وَالنَّصِيرُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٌ أَوْ مَفْعُولٌ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَنَاصِرِينَ نَاصِرٌ وَمَنْصُورٌ"^٦.

هذه المعاني للتناصر هي معان لغوية وضعية عامة، ولا تختص بجماعة معينة أو فرد أو صفة. ولكنني هنا أبحث في التناصر بين أهل الباطل، ولذلك فإن المعاني والدلالات جميعها ستطبق عليهم.

١ - الزبيدي، تاج العروس (١٤ / ٢٢٥)

٢ - نفس المرجع والموضع

٣ - أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة (٣ / ٢٢٢٠)

٤ - انظر: وزارة الأوقاف الكويتية، الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٩ / ٢٣٧)

٥ - الحديث أخرجه أحمد في المسند، (٣٣ / ٢٣٧) رقم: ٢٠٠٣٧، وغيره، وقال محققه: إسناده حسن.

٦ - تاج العروس، مرجع سابق (١٤ / ٢٣٤)

التناصُر في الاصطلاح:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للتناصر عن معانيه اللغوية، كما عرفه أهل الاصطلاح، فبعضهم عرفه بكلمة واحدة، فقال: "التناصر: التعاون"^١. والتعاون من مقتضيات التناصر أو أحد وجوهه.

وذكر بعضهم أن التناصر: هو الولاء أو الموالاتة^٢. ولكن التناصر أوسع من الموالاتة من جهة أسبابه وأنواعه، وقد يفترقان من حيث إن التناصر ليس بالضرورة أن يقوم على أساس من المحبة والألفة والقرب بخلاف الموالاتة.

والتناصر من باب التفاعل^٣، ومعنى ذلك أنه يحدث من جانبيين، سواء على مستوى الأفراد أو المجموعات أو الدول^٤.

ولذلك فيمكن تعريف التناصر اصطلاحاً بأنه: التَّعاون على النَّصر بوسائل وأساليب متنوعة، وليس بالضرورة أن يبنى على الموالاتة الكاملة.

المطلب الثاني: حقيقة تناصر أهل الباطل في القرآن

ذكر الله التناصر بين أهل الباطل في كتابه، وبين أنهم يخططون ليكون ذلك التناصر مستمرا في الدنيا والآخرة - وإن كانوا لا يؤمنون بالآخرة حقيقة، ولكنهم يفترضون ذلك-، وبين القرآن أيضا حقيقة هذا التناصر بينهم، ويمكن أن نعرض حقيقة هذا التناصر كما يلي:

أولاً: التناصر بين أهل الباطل في الدنيا:

بين القرآن أن التناصر بين أهل الباطل يقع ظاهراً في الدنيا، فتراهم يتعاونون ويوالي بعضهم بعضاً ويؤيد بعضهم بعضاً، ويكون بينهم وجوه عديدة من التناصر،

١ - المناوي زين الدين، التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١١٠)

٢ - انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، مرجع سابق (٣٩/ ٢٣٧)

٣ - نشوان الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (١٠/ ٦٦٣٠)

٤ - أنظر: مجموعة من الباحثين، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٤/ ١٢٣٢)

بل قد يظهر ذلك التناصر في أقصى قوة له. ومن هنا حث الله المؤمنين على التناصر فيما بينهم بتقرير وجود التناصر بين أهل الباطل، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفَعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] وقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، فالتناصر موجود واقعا بين أهل الباطل، كما تثبتته هذه الآيات وغيرها.

ولكن في الحقيقة أن هذا التناصر بين أعداء الله في الدنيا يحتوي على خلل في بنيته؛ لأنه لا يقوم على أسس متينة تضمن له الاستمرار والصدق والدوام؛ ذلك أنه إنما يقوم على مبادئ فاسدة أو على المصالح الدنيوية التي تتبدل وتتغير، ولذلك إذا خافوا فواتها أو اشتد عليهم الكرب تخلى بعضهم عن بعض. وهذا ما يقرره القرآن الكريم في مواضع، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

قال أبو حيان - رحمه الله - : " نزلت في عبد الله بن أبي ورفاعة بن التابوت وقوم من منافقي الأنصار كانوا بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله: {يقولون}، والأخوة التي بينهم أخوة الكفر ومولاتهم، {ولا نطيع فيكم} أي في قتالكم أحداً من الرسول والمؤمنين، أو لا نطيع فيكم: أي في خذلانكم، وإخلاف ما وعدناكم من النصرة، {والله يشهد إنهم لكاذبون} أي في

مواعيدهم لليهود، وفي ذلك دليل على صحة النبوة؛ لأنه إخبار بالغيب، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بنوا النضير، بل أقاموا في ديارهم^١.

والتناصر بين أهل الباطل أيضا لا يقوم على محبة وألفة حقيقية، إنما يجمعهم الحرب على الحق، وقد بين الله حقيقة أمرهم الداخلي الذي يمثل قمة التنافر والتباعد، فقال: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]. قال ابن كثير: " {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أي عداوتهم فيما بينهم شديدة، كما قال تعالى: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]؛ ولهذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف^٢. فليس بينهم ألفة ولا تناصر حقيقي، "وهذه حالة الجماعة المتخاذلة: أنّ بينهم إحنًا وعداوات، فلا يتعاضدون حقّ التناصر ولا ينصرون أبداً. واجتماع النفوس مع تنافر القلوب أصل كل فساد، وموجب كل تخاذل، واتفاق القلوب، والاشتراك في الهمة، والتساوي في القصد، يُوجب كلّ ظفرٍ وسعادة. وما وُصِفَ به الحق تعالى المنافقين واليهود كله تجسير للمؤمنين، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم^٣."

وقد يكون التناصر الظاهري بسبب طمع أو عطاء أو ما شابه ذلك، مثلما يفترض في أصحاب قارون وأنصاره، فقد كان له أتباع وأنصار وحشم وخدم عندما كان يعطي ويملك وليس به بأس، فلما أخذه الله تفرقوا عنه ولم ينتصروا له، كما

١ - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط (٢٤٨/٨)

٢ - ابن كثير، تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) (٤ / ٣٤٠)

٣ - ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١٣ / ٧)

قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١]، أي فما نصره أنصاره ولا حصل له النصر بنفسه^١.
ومن هذا الباب: بيان الله بأن المبطلين اتخذوا آلهة لينصروهم عند حاجتهم لهم، أي رجاء نصرهم لهم، قال تعالى: ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [يس: ٧٤]، ولكنهم يتخلون عنهم أحوج ما يكونون إليهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٧]. و"تقديم المفعول في (ولا أنفسهم ينصرون) للاهتمام بنفي هذا النصر عنهم، لأنه أدل على عجز تلك الآلهة.. والمعنى: أن الأصنام لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنصرهم ولا ينصرون أنفسهم إن رام أحد الاعتداء عليها. والظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم، إذ كان النصر أشد مرغوب لهم"^٢.

وأخبر الله تعالى عن عدم نفع الكفار آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله عند حاجتهم لها للنصرة، فلم تنصرهم عندما أهلكتهم الله تعالى في الدنيا، بل لقد غابت عنهم عمدا وقصدا، فزعم الكفار بنصرة الآلهة لهم زعم باطل، ولكنه من تلبس الشيطان عليهم، قال الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧، ٢٨]. قال أبو حيان: "فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ": أي فهلا نصرهم حين جاءهم الهلاك، الذين اتخذوهم من دون

١ - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٦) والمرافي، تفسير المراغي (٢٠/ ١٠٠)

٢ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (٩/ ٢١٧)

الله قرباناً: أي في حال التقرب، وجعلهم شفعاء آلهة، {بل ضلوا عنهم} أي: غابوا عن نصرتهم^١. ف"ما نصرورهم بل ضلوا عنهم أي غابوا فلم يعثروا عليهم بالكلية"^٢.

ثانياً: التناصر بين أهل الباطل في الآخرة:

من الحقائق القاطعة في القرآن الكريم أن التناصر في الآخرة ينقطع بين الناس جميعاً، مؤمنين وغير مؤمنين، يقول تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]. لأنه عند ذلك تنقطع الأسباب والصلوات التي تكون بين الناس في الدنيا، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١]. ولا يبقى سبب ولا ولاية إلا لله تعالى وحده، يقول تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]. قرئ: (هنالك الولاية لله الحق)، برفع الحق، على أن الحق نعت للولاية، أي: هنالك الولاية الحق، وهنالك الملك والسلطان لله وحده، وهنالك المناصرة والتعزيز والتأييد، فالحق لله وليس لأحد سواه^٣. "أي في مثل ذلك الوقت وفي مثل ذلك المقام تكون الولاية لله يوالي أوليائه فيغلبهم على أعدائه ويفوز أمر الكفار إليهم"^٤.

وأيضاً لأن الناس كلٌّ مشغول بنفسه ويريد لها النجاة ولا يستطيع نصر نفسه فكيف سينصر غيره.

واستثناء الشفاعة بين المؤمنين في ذلك الموقف، وهي نوع من التناصر، إنما يكون بإذن الله تعالى ورحمته لهم، كما هو مقرر في أكثر من آية، ومنه قوله

١ - تفسير البحر المحيط، مرجع سابق (٦٦/٨)

٢ - أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير (٦٣/٥)

٣ - انظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣٠٣/٢)

٤ - الرازي، مفاتيح الغيب (٤٦٦/٢١)

تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الدخان: ٤٠-٤٢]. أي في ذلك اليوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً، وذلك يعم جميع الموالي من القرابة والعناقة والصلة، ولا هم ينصرون، {إلا من رحم الله}، أي لا يغني قريب إلا المؤمنين، فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم البعض^١.

وأما أهل الباطل فلا يقع بينهم تناصر في الآخرة البتة، ولا يأذن الله بذلك، كما يخبر الله تعالى عن ذلك فيقول: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٣، ٢٤]. يبين الله تعالى أن الكفار إذا رأوا ما يوعدون، من العذاب في الدنيا أو في الآخرة، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾ أي من هو أضعف جنداً ينتصر به وأقل عدداً، أهم أم المؤمنون^٢. وليس في الآية دلالة على أن لهم ناصرين ضعافاً في الآخرة، فالكافر ليس ناصر في الآخرة البتة^٣، كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَخُ مَا كُنْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ﴾ [سورة الجاثية: ٣٤]. أي: ليس لهم من ينصرهم ويمنع عنهم العذاب^٤. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٦٤) خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦٤، ٦٥] فالله عز وجل يبعد هؤلاء الكفار عن رحمته، ويدخلهم النار؛ ليدوقوا العذاب، ولا منقذ لهم ولا نصير من عذاب الله تعالى، ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]، "أي هم في عذاب دائم لا يجدون منه نصيراً، وهو رد

١ - انظر: تفسير البحر المحيط، مرجع سابق (٣٩/٨)

٢ - انظر: الشوكاني، فتح القدير (٣٧٢/٥)

٣ - انظر: مفاتيح الغيب، مرجع سابق (٦٧٧/٣٠)

٤ - انظر: فتح القدير، مرجع سابق (١١/٥)

لمزاعمهم أن آلهتهم تنفعهم عند الله. وجملة ينصرونهم صفة لأولياء للدلالة على أن المراد هنا ولاية خاصة، وهي ولاية النصر^١.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥]. يخبر تعالى عن مصير المنافقين بأنهم في أسفل دركات النار؛ وذلك لأنهم شاركوا الكفار في الكفر بالله تعالى، ومعاداة رسله، وزادوا على ذلك المكر والخديعة على وجه لا يشعر به ولا يحس؛ وذلك بانضمامهم في صفوف المسلمين حيث تجري عليهم أحكام الإسلام، ولذلك ليس لهم نصير ومنقذ يدفع عنهم عذاب الله تعالى^٢.

وليس هذا فحسب بل إن أهل الباطل يحجمون عن التناصر الذي كانوا قد تحالفوا أو توافقوا وركنوا عليه، فيخذل بعضهم بعضاً أشد ما يكونون حاجة لبعضهم، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (٢٢) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٤﴾ وَقَفُوهُمْ إِلَى يَوْمِ مَسْئُولِهِمْ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٦﴾ [الصافات: ٢٠-٢٥]. يخبر تعالى عن ندم الكفار يوم القيامة وحسرتهم عندما يعاينون أهوال ذلك اليوم العظيم، فيقال لهم: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر، فيخذل بعضهم بعضاً، ثم ينقادون ويستسلمون لأمر الله تعالى.

وليس ذلك تخل عن منهجهم في التناصر بالحق والباطل طواعية، وإنما هو إلجاء ألجأهم إليه الضعف والهوان الذي تملكهم وأحاط بهم، فقلوه: (مالكم لا تناصرون) فيه دليل على ثبات ذلك في منهجيتهم وتصرفاتهم بحق وباطل.. ولذلك استثنى فقال: (بل هم اليوم مستسلمون) بمعنى أنهم تخلوا عن ذلك

١ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (١٣٠ / ٢٥)

٢ - انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢١١)

لسبب أكبر. "والاستفهام في (ما لكم لا تناصرون) مستعمل في التعجيز مع التنبيه على الخطأ الذي كانوا فيه في الحياة الدنيا. وجملة (لا تناصرون) حال من ضمير (لكم) وهي مناط الاستفهام، أي أن هذه الحالة تستوجب التعجب من عدم تناصركم.. والإضراب المستفاد من (بل) إضراب لإبطال إمكان التناصر بينهم، وهو تأكيد لما دل عليه الاستفهام من التعجيز. والاستسلام: الإسلام القوي، أي إسلام النفس وترك المدافعة فهو مبالغة في أسلم^١.

ولا يكتفي أهل الباطل في الآخرة بالتخاذل فيما بينهم، بل إنهم يجهرون بالعداء بعضهم لبعض في ذلك اليوم، فبدل ما كان يرجى منهم من التناصر، انعكس الأمر فعاد عداوة، وكل إنسان يشكو من الذي أضله ويتمنى لو ينتقم منه. وقد قرر القرآن هذا بقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۗ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۗ﴾ [مريم: ٨٢، ٨١]. أي سيكونون أعداء لهم متعاونين عليهم في خصومتهم وتكذيبهم^٢. وبقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۗ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۗ﴾ [فاطر: ١٤]. وبقوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الكَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۗ﴾ [النور: ١٥]. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراء منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم^٣ وما هم بخارجين من النار^٤. [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

فهذه هي حقيقة التناصر بين أهل الباطل في الدنيا والآخرة، بينى في الدنيا على التعاون المشترك، وتدعمه المبادئ الفاسدة أو المصالح المتغيرة، وفي الآخرة يخذل بعضهم بعضا ويرجع بهم الحال إلى العداوة والتقاطع.

١ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (١٠٢/٢٣) بتصرف واختصار

٢ - مجمع البحوث، التفسير الوسيط (٦/٩٩٤)

المبحث الثاني:

وجوه التناصر بين أهل الباطل ومستوياته في القرآن

المطلب الأول: وجوه التناصر بين أهل الباطل

يقع التناصر بين أهل الباطل في الدنيا، ويتجلى ذلك في وجوه عديدة، يمكن تصنيفها إلى صنفين عامين: الأول: الوجوه النظرية من التناصر، والثاني: الوجوه العملية من التناصر. ويصعب الفصل الكامل بين هذه الوجوه لتداخلها ولأن كلا منها قد يكون وجهاً للأخر أو نتيجة له، ولذلك سأسردها سرداً متتابعاً وإن أشرت إلى تصنيف بعضها أحياناً. وذلك كما يلي:

١. الموالاة أو الولاية، وهي وصف جامع لكثير من وجوه التناصر، وتطلق لغة: على الحب والصداقة والمباينة بالأسرار، وتطلق: على النصرة^١ تنبني على الوفاق والوثام والصلة^٢. و"الولاية" مصطلح قرآني تردد في القرآن الكريم، ومعناه: القيام بأمور الآخرين^٣.

وعلى هذا فإن الموالاة أو الولاية هي أعلى وأوثق وجوه التناصر بين أهل الباطل. وقد ذكر الله وجود هذه الولاية بين المبطلين فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، " فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين، وإن كانوا شيعاً يعادي بعضهم بعضاً، ولم يكن في الحجاز

١ - التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (١/ ٥٤٩)

٢ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (٦/ ٢٢٨)

٣ - الكيلاني، ماجد عرسان، أهداف التربية الإسلامية (ص: ٣٤١)

حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود، وكان اليهود يتولون المشركين وينصرونهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين^١.

ومن صور الولاية: الخضوع لسلطة المتولَّى، كما يدل له قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، المراد الشيطان، "أي ما سلطانه وتأثيره وهيمنته وولايته إلا على أتباعه الذين يطيعونه ويستجيبون لإغرائه ووسوسته إلى درجة الشرك، وهم بمعزل في غوايتهم هذه عن القهر والإكراه"^٢، وهذا يعني أن دافعهم للخضوع له هو محبتهم وانتصارهم له وليس قوة تسلطه عليهم، كما يبينه قوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٢. التعاون، وله أيضا صور متنوعة، ومستويات متفاوتة، والتعاون بين أهل الباطل هو أن يعين بعض الناس بعضا على فعل الشر وترك الخير والتعدي على الغير.

والله سبحانه نهى عن التعاون على الباطل، فقال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، يعني: ولا يعن بعضكم بعضا "على الإثم"، يعني: على ترك ما أمركم الله بفعله "والعدوان"، يقول: ولا على أن تتجاوزوا ما حدَّ الله لكم في دينكم، وفرض لكم في أنفسكم وفي غيركم"^٣. وهذا التعاون على الباطل إنما هو من أعمال الفجار وأهل الباطل، والقرآن يذكر ذلك في مواضع منه.

١ - تفسير المراغي، مرجع سابق (١٠ / ٤٤)

٢ - التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (٥ / ٦٧٩)

٣ - وانظر: الطبري، أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩ / ٤٩٠)

وقد يكون التعاون بينهم بالفعل، كما في قول الله سبحانه: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، "أي تحالفوا وتعاهدوا وتبايعوا"^١، على القيام بتنفيذ الأمر جميعاً.

ومن التعاون بينهم على الباطل التعاون من خلال دعم مواقف بعضهم أو تصرفاتهم، وأحياناً يكون بالإيجاب أي الوقوف والدعم الظاهر بالقول والتأييد، وأحياناً يكون بالسلب، أي بالتغاضي والسكوت عن أهل الباطل وتصرفاتهم، وربما الرضا بأفعالهم. كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، الآية تشير إلى أن هذا الفعل جماعي وليس فردياً؛ وإن فعله فرد أو البعض منهم إلا أن رضا الآخرين وتأبيدهم يجعلهم مشاركين في الفعل الإجرامي، "وعبر عن جرائمهم بصيغة الفعل المضارع- يكفرون ويقتلون لاستحضار صورة أفعالهم الشنيعة في أذهان المخاطبين، وإفادة أن أفعالهم هذه متجددة كلما استطاعوا إليها سبيلاً، وللإشعار بأن اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم كانوا راضين بفعل آبائهم وأسلافهم،.. وقد وردت آثار متعددة تصرح بأن اليهود قد دأبوا على قتل الأنبياء والمصلحين"^٢.

ويؤكد القرآن هذا المعنى فيقول: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، أي أن الإنسان منهم كان يرى زميلاً له يتهيأ لارتكاب منكر أو يقع فيه فلا ينهاه^٣، وهذا جعلهم مشتركين في الفعل الإجرامي جميعاً. وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان فيمن كان قبلكم من

١ - سعيد حوى، الأساس في التفسير (٧/ ٤٠٢٠)

٢ - طنطاوي، التفسير الوسيط (٢/ ٦٣)

٣ - انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي (٦/ ٣٣٢٧)

بني إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة نهاه الناهي تعذيراً، فإذا كان من الغد جالسه وأكله وشاربه كأنه لم يره على الخطيئة بالأمس، فلما رأى الله تبارك وتعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض، وجعل منهم القردة والخنازير، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفية ولتأطرنه على الحق أطراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، ويلعنكم كما لعنهم»^٢.

والتعاون بينهم قد يصل إلى الاشتراك في القتال ضد خصومهم، كما في قوله الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلٌّ مِّنْ جَمِيعٍ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، فهذه دعوة منهم للاتحاد الذي قدروا أنه سببا لنصرهم. ومن ذلك ما وقع من المنافقين الذين قاتلوا مع المشركين ضد المسلمين يوم أحد.

ويكون التعاون بينهم في الإمداد بالعدة والدعم المادي، وغير ذلك، كما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

والتعاون باب كبير من التناصر أكتفي بما ذكرته من مضموناته هنا.

٣. التعزيز لهم والتعزز بهم، فهم يعزز بعضهم بعضاً ويتعززون ببعضهم، أي يتقوّون ببعضهم ويقوي بعضهم بعضاً، والله سبحانه ذكر هذا المقصد عندهم، فقال عن مقصدهم من اتخاذ آلهة باطلة من دون الله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا

١ - التعذير كالتقصير، والمعنى يهونهم نهياً لا يبالغون فيه، انظر: ابن الجوزي، غريب الحديث (٢/ ٧٦).

٢ - انظر: الهيتمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧/ ٢٦٩) رقم: ١٢١٥٣، وقال: زَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

هُمْ عِزًّا ﴿[مریم: ٨١]، وقال عن المنافقين: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَغُّونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

ومن التعزز والتقوي الذي ينشده المبطلون: نشدانهم ذلك يوم القيامة، كما يفيد قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]، فقد كانوا يتوقعون النصر من أنفسهم أو ممن هو معهم، والآية تنفي حصول ذلك، أي ليس للإنسان قوة تدفع عنه، سواء من نفسه أو من غيره، بحسب ما كان يتوقع منهم، والظاهر أن المراد بالإنسان هنا الكافر؛ لأن المؤمن ينصره الله في الدنيا والآخرة^١.

٤. تكاثر بعضهم ببعض، كما هو في جانب من معنى قوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، "ومنه تكاثر في العدد من الأولاد والأحلاف للاعتزاز بهم، وقد فسرت الآية بهما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾ [سبأ: ٣٥]^٢. والشاهد هنا هو قبولهم أن يتكاثر بعضهم ببعض، وهذا هو وجه النصر، وفيه معنى تكثير السواد والعدد والعدة، ليكون في ذلك مهابة لهم وترغيبا في اتِّباعهم.

ويدخل في هذا ما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آلَافًا مِمَّا كَفَرْنَا لَنَّا [الأنعام: ١٢٨]، فمعنى استكثرتهم من الإنس أكثرتم من اتخاذهم، أي من جعلهم أتباعا لكم، أي تجاوزتم الحد في استهوائهم واستغوائهم، فطوعمتم منهم كثيرا جدا^٣. وصورة التناصر هنا أن بعضهم يفيد بعضا في أهدافه ومقاصده.

١ - الأساس في التفسير (١١/ ٦٤٦٩)

٢ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (٣٠/ ٥١٩)

٣ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (٨-أ/ ٦٧)

٥. استمتاع بعضهم ببعض، كما في الآية السابقة أيضا، في قوله: ﴿رَبَّنَا أَسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ فالاستمتاع هنا إعانة كل من الطرفين صاحبه على تحقيق مآربه ومقاصده^١، ويتجلى ذلك بتبادل المنافع فيما بينهم، وهي منافع تشمل كثيرا من وجوه التناصر، كتقديم الطاعة والولاء والخدمات المتنوعة^٢.

٦. أن بعضهم لبعض فئة ومرجع للآخر يرجع إليه عند الحاجة، وهذا من أعظم أبواب التناصر، وقد حكى الله عن تقدير المبطلين لذلك وذهابه أحوج ما يكونون إليه، كما في قوله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ [الكهف: ٤٣]، "أي لم تكن له فئة أي منعة وقوم ينصرونه، من دون الله أي يقدر على نصرته من دون الله، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه، وما كان منتصرا أي ممتنعا بنفسه وقوته عن انتقام الله"^٣. وفي هذا دلالة على أن صاحب الجنة كان يعد الفئة والقوم للانتصار بهم، ولكن الله لم يجعل لذلك سبيلا عند إهلاكه له.

ومثل هذا جاء في قوله تعالى عن قارون: ﴿فَنَسَفْنَا بِيَهُ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]، فقد "كان قارون معترزا على موسى بالطائفة التي كانت شايعته على موسى وهم كثير من رؤساء جماعة اللاويين وغيرهم، فلذلك قال الله تعالى فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، إذ كان قد أعدهم للنصر على موسى رسول الله فحسب بهم معه وهو يراهم، وما كان من المنتصرين كما كان يحسب"^٤.

١ - انظر: تفسير الشعراوي، مرجع سابق (١٠/ ٥٨٩٢)

٢ - انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي، مرجع سابق (١٧٧/ ٥)

٣ - القاسمي، محاسن التأويل (٣٦/ ٧)

٤ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (٢٠/ ١٨٦)

فهذا التناصر بهذه الطريقة وإن كانت الآيات تنفي وقوعه إلا أنها لا تنفي أن التخطيط له كان واقعا من جهة المبطلين.

٧. التثبيت والوعد بالنصر، والدعم المعنوي، كما هو في قوله تعالى: ﴿لِيَنْ أَخْرِجُوا لَا

يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلِيَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلِيَنْ نَصْرُوهُمْ لِيُوَلِّبُوا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾

[الحشر: ١١]، فهذه الآية تصور نوعا من النصر والدعم قاله المنافقون لإخوانهم من أهل الكتاب، واللام في قوله: {لإخوانهم} للتبليغ، أي بلغوهم، والمراد بأخوتهم: إما توافقهم في الكفر أو صداقتهم وموالاتهم^١. وعدوهم بالنصر والمعاونة وعدم الخذلان لهم، ليثبتوهم على مقاومة المسلمين.

ومن التثبيت بينهم: تثبيتهم على المبادئ الباطلة، وتعزيز الثقة بها، ليكون في ذلك

صلة بينهم وإعطاء ثقة للآخرين بما هم عليه، كما قد يفيد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى

الَّذِينَ كَفَرُوا وَتَوَّابِعُوا كَيْدَهُمْ فَيُنَادُوا الْمُشْرِكِينَ لَا يُخْرِجُوا الْكُفْرَانَ فَخُذْ عَلَيْهِمْ الْعِقَابَ وَأَعِزِّ لِمَنْ كَفَرَ

أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] وفي سبب نزول هذه الآية ما يفيد معنى

التناصر بين اليهود وكفار قريش^٢، فهم "إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين. وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم"^٣.

وأكتفي بهذه الوجوه من وجوه التناصر بين أهل الباطل، وفيما سيأتي بيان لبعض

مستويات ومنطلقات التناصر فيما بينهم.

١ - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٣٠ / ٨)

٢ - انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مرجع سابق (٦ / ٧) رقم: ١٠٩٣١، ومقبل الوادعي، الصحيح المسند من أسباب النزول (ص: ٦٨)، وقال: الحديث ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (١ / ٥١٣) فقال قال الإمام أحمد حدثني محمد بن أبي عدي به وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمان ص ٤٢٨، ورجاله رجال الصحيح. إلا أن الراجح إرساله كما ذكر في تخريج تفسير ابن كثير.

٣ - سيد قطب، في ظلال القرآن (٢ / ٦٨١)

المطلب الثاني: مستويات التناصر بين أهل الباطل

مما يبين أن التناصر له مستويات متفاوتة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَاعِمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأنفال: ٧٢]، فالآية تثبت الولاية الكاملة بين المؤمنين المهاجرين المجاهدين ﴿أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ﴾، ثم تنهى عن الولاية الشاملة للمؤمنين الذين لم يهاجروا: (مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا)، ولكنها تسمح بنصرتهم بشروط - والنصرة جزء من الولاية- إذا استنصروهم.. ومن أحسن البيان في تفاوت مستويات التناصر القائم على الولاية، ما ذكره ابن عاشور عند قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، قال ما ملخصه: من يتولاهم يصير واحدا منهم. جعل ولايتهم موجبة كون المتولي منهم، وهذا بظاهره يقتضي أن ولايتهم دخول في ملتهم؛ لأن معنى البعضية هنا لا يستقيم إلا بالكون في دينهم. ولما كان المؤمن إذا اعتقد عقيدة الإيمان واتبع الرسول ولم ينافق كان مسلما لا محالة كانت الآية بحاجة إلى التأويل، وقد تأولها المفسرون بأحد تأويلين:

إما بحمل الولاية في قوله: (ومن يتولاهم) على الولاية الكاملة أي بالمعتقد والدين.. وإما بتأويل قوله: (فإنه منهم) على التشبيه البليغ، أي فهو كواحد منهم في استحقاق العذاب. قال: "وقد اتفق علماء السنة على أن ما دون الرضا بالكفر وممالاتهم عليه من الولاية لا يوجب الخروج من الريقة الإسلامية ولكنه ضلال عظيم،

وهو مراتب في القوة بحسب قوة الموالاة وباختلاف أحوال المسلمين^١. وهناك آيات أخرى تشهد لهذا المعنى.

وقد ذكر القرآن وجوها من التناصر بين أهل الباطل، كما قد أسلفت القول، وبالنظر إلى تلك الوجوه نجد أنها ليست على مستوى واحد من القوة ولا من الشمول، بل تتفاوت في ذلك، وهو أمر طبيعي بين أناس تقوم الروابط بينهم على مرتكزات مختلفة ومتنوعة وغير ثابتة، ولذلك فالتناصر بينهم له مستويات من عدة جوانب بحسب منطلقاته ومرتكزاته وإطاراته الفكرية والثقافية والمصلحية، ويمكن عرض مستويات من التناصر بين أهل الباطل فيما يأتي:

أ) تناصر شامل وتناصر جزئي (غير شامل): وبيان ذلك كما يلي:

١- التناصر الشامل: وأعني بذلك أنهم يتناصرون على كل المستويات وبدون موارد، والسبب في ذلك هو الإطار الذي يجتمعون عليه من المناهج أو الأهداف والغايات والاتفاقات والمخططات، وهذا المستوى تشير إليه بعض الآيات، مثل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ لَا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَن يُغْنَوْنَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩]. هذه ولاية فيما بينهم في المناصرة والمؤازرة يتحدون في هذه الولاية عندما يكون لهم عدو مشترك يخافون منه على مصالحهم وسلطاتهم^٢. وهذه الولاية هنا تتضمن أن مبادئهم واحدة ومرتكزاتهم الفكرية والمصلحية واحدة؛ لأنهم من صنف واحد، فتناصرهم فيما يوصلهم إلى مصالحهم وأهدافهم جميعا. وشمول هذا التناصر يدخل فيه المساندة الظاهرة والخفية، بما في ذلك الرضا

١ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (٦/ ٢٣٠)

٢ - انظر: تفسير الشعراوي، مرجع سابق (٥/ ٣١٩٦)

والانسجام والمحبة الدافعة للتناصر؛ لأن التعبير بالولاية يدل على ذلك، كما ذكرته في تعريف الولاية سابقا.

٢- **التناصر الجزئي**، أو غير الشامل، وهو قد يقع في بعض الجوانب المتفق عليها، أو التي تتحقق فيها مصالح أو أهداف محدودة لدى الجميع، ومن هذا ما يدل له قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، فالولاية هنا بين اليهود والنصارى لا يدخل فيها ولاية الدين، وإنما يقصد بها ولاية التحالف والتناصر، لأن لكل منهم دين خاص، وأيضا القرآن قد قرر في مواضع أخرى أنهم لا يتفقهون في الدين^١، وهذا الوضع من التناصر بينهم قد تحكمه المصلحة، وسياق الآية يشهد لهذه الدلالة؛ فهو في مخاطبة المؤمنين ونهيهم وتحذيرهم من موالات الكافرين^٢، فالولاية قد تكون في مستويات محددة، إما متفق عليها أو قد تفرضها طبيعة الأعمال والقضايا التي يكون فيها التناصر أو غير ذلك من المعطيات.

ويشهد لهذا المعنى: نهى المؤمنين في الآية عن ولاية اليهود والنصارى، فلا يقصد به الولاية الكاملة، فعدم اتباعهم في الدين - وهو من الولاية - خارج هنا من المفهوم؛ لأن المؤمنين إذا تبعوهم في دينهم صاروا منهم ولا يكونون مؤمنين، ولا يلتبس ذلك على المؤمنين حتى ينهوا عنه، "فالمراد إنما هو ولاء التحالف والتناصر، الذي كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم، بحكم ما كان واقعاً من تشابك

١ - كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

٢ - انظر: تفسير المراغي، مرجع سابق (٦/ ١٣٤)

المصالح والأوصار، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام، وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله^١.
ومن الولاية غير الشاملة بين أهل الباطل: ما ذكره القرآن من ولاية المنافقين بعضهم لبعض، في قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، فالمنافقون بعضهم يشبه بعضا في الشك والنفاق والارتياح وفي صفات معينة، ولكن لا صلة بينهم ولا تآلف ولا أخوة تامة، "وانظر في وصف المؤمنين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وفي وصف المنافقين (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) ترى أن المنافقين لا ولاية بينهم ولا أخوة تبلغ درجة الإيثار والنصرة في الحروب، ولكنها أخوة كلام فقط"^٢، فتناصرهم ومناصرتهم في مستويات مصلحية، ولكن قوتها قد تستمد من جوانب أخرى: كمستويات المصالح وأنواعها، وكالجوانب الثقافية أو الفكرية أو الأهواء والإلف للفسق...

والتعبير في الآية بقوله: {بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} وإن كان لا يعكس شمولية الولاء والتناصر، لكنه يبين تشابه صفاتهم وبنية تفكيرهم وطبيعتهم الثابتة وطبيعة الجو الذي يألفونه ويحبونه، فهم متشابهون متداخلون متشابكون فيما بينهم، لا يحسون بالانسجام والطمأنينة وهدوء البال في ذواتهم إلا إذا كانوا يتنفسون في جو النفاق الخاص بهم^٣. وهذا لا يعني المحبة والتآلف بينهم، إنما هو جامع مصلحي. "فيشبه بعضهم بعضا في

١ - في ظلال القرآن، مرجع سابق (٢/ ٩٠٩)

٢ - الحجازي محمد محمود، التفسير الواضح (١/ ٩٠٥)

٣ - انظر: تفسير الشعراوي، مرجع سابق (٩/ ٥٢٦٧) ومحمد المكي، التيسير في أحاديث التفسير (٢/ ٤٠٦)

الشكوك والذبذبة وما يتبعها من الجبن والبخل وهما يمنعان من التناصر ببذل النفس والمال، وقصارى أمرهم التعاون بالكلام وما لا يشق من الأعمال^١.

وقال القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: (بعضهم أولياء بعض) أي قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف. وقال في المنافقين "بعضهم من بعض" لأن قلوبهم مختلفة ولكن يضم بعضهم إلى بعض في الحكم"^٢. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، بيان أن المصلحة تقيم نوعاً من الولاء، فالولاء بين الظالمين هنا بسبب ما كانوا يكسبون من أعمال الظلم المشتركة بينهم، فيكونون أنصاراً وأصدقاء لبعض بسبب ذلك^٣.

ومن التناصر الجزئي: ما ذكره الله عن المنافقين ووعدهم لليهود بالنصرة والعون، في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ ﴿[الحشر: ١١، ١٢]. فوعد المنافقين لليهود بالنصرة أكذبه الله، لأنهم يعلم دخيلة نفوسهم وجبنهم، فكانت نصرتهم كلاماً فقط.. وهو نوع من التناصر يمكن أن يهدف إلى التثبيت والتقوية..

(ب) تناصر ظاهر وتناصر خفي (غير ظاهر)، وبيان ذلك كما يلي:

١. التناصر الظاهر، وذلك بإظهار النصرة والولاء، ولو بوجه من الوجوه، ومن ذلك

ما بيّنه قوله تعالى: ﴿كَرِهَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ

١ - تفسير المراغي، مرجع سابق (١٠ / ١٦٠)

٢ - القرطبي، تفسير القرطبي (٨ / ٢٠٣)

٣ - التفسير الواضح، مرجع سابق (١ / ٦٦٤)

أَنفُسَهُمْ أَن سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿ [المائدة: ٨٠]، أي: "من جرائمهم التي نراها: أن كثيرا منهم يناصرون الكافرين، ويؤيدونهم، ويتوددون إليهم. والمقصود بالكفار هنا: المشركون، وقد أعلن كعب بن الأشرف أن المشركين {أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}. وقيل: المراد بالذين كفروا - هنا المنافقون وكان زعيم المنافقين بالمدينة: عبد الله بن أبي، يوالي اليهود ويوالونه^١.

ومن التناصر الظاهر ما ذكره قوله تعالى: ﴿ قَتَرَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيمًا ﴾ [المائدة: ٥٢]، "قوله تعالى: {يسارعون فيهم} حال من الموصول والرؤية بصرية، وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والأول هو الأنسب بظهور نفاقهم، أي تراهم مسارعين في موالاتهم^٢. وقوله في نهاية الآية: {فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيمًا}، يحتمل أنهم أسروا قولهم: (نخشى أن تصيبنا دائرة) أي هو قول نفسي، ويحتمل أن المقصود بما أسروه المرض وهو عدم الثقة بنصر المسلمين، أو الخشية من انتفاض المسلمين على المنافقين^٣. فالإسرار هو بما في النفوس من المعتقدات والدوافع وليس بالسلوك الذي قد ظهر منهم رأي العين.

٢- التناصر غير الظاهر، أي الذي يكون في الخفاء، أو يكون بوسائل خفية، يكشف الله وجوها من هذا المستوى من التناصر، فيقول: ﴿ وَإِذَا الْقَوْمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمْنَا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنَّ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، (شياطينهم أصحابهم من المنافقين والمشركين، وتكون الشياطين من الإنس والجن، وضمَّن (خلوا)

١ - التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (١١٣٥ / ٢) وتفسير الشعراوي، مرجع سابق (٦ / ٣٣٣١)

٢ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق (٣ / ٤٨)

٣ - انظر: التحرير والتنوير، مرجع سابق (٦ / ٢٣٢)

معنى انصرفوا؛ لتعديته بـ (إلى) ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به^١. والخلوقة تشير إلى أن لقاءهم سرى ويتفقون فيه على التناصر بالسرى.

قال السعدي - رحمه الله - : " فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: كبرائهم ورؤسائهم بالبشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله"^٢. أي الظاهرة للمؤمنين والباطنة الخفية لشياطينهم.

ومن تناصرهم الخفي الإبحاء بالكلام المزين المزخرف: كما في قوله

تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢] " لأن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض، لكن الناس المحققين في قضية يتحركون في علانية. ولا يستخفون من الناس"^٣.

ومن التناصر غير الظاهر: الاستماع المقترن بالطاعة، والتسمع لحساب الباطل،

كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْزِفُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَأَحْذَرُوا ﴾ [المائدة: ٤١] الشاهد في الآية هنا، هو قوله (سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ)، وهو يدل على ثلاثة معاني: الأول: ما قاله السعدي - رحمه الله - : " أي : مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على

١ - انظر: أحمد شاكر، عمدة التفسير (١/ ٨٦)

٢ - تيسير الكريم الرحمن، مرجع سابق (ص: ٤٣)

٣ - تفسير الشعراوي، مرجع سابق (٧/ ٣٨٧٨)

الكذب، والضلال والغي، وهؤلاء الرؤساء المتبعون (لم يأتوك) بل أعرضوا عنك^١. والثاني: يعني: "سماعون لأجل الكذب، أي: يسمعون منك ليكذبوا عليك، وذلك أنهم كانوا يسمعون من الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يخرجون ويقولون سمعنا منه كذا ولم يسمعوا ذلك منه". والثالث: يعني: التجسس ونقل الأخبار، ويدل له قوله: (سماعون لقوم آخرين لم يأتوك)، أي: هم جواسيس^٢، لغيرهم ينقلون لهم الأخبار. وكل المعاني فيهما دلالة على التناصر الخفي بين المذكورين من أهل الباطل، وهو مشهد يتكرر في الواقع.

ومن هذا أيضا قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوُا خَلْقًا لَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]. فقوله (وفيكم سماعون لهم) "أي نامون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم، أو فيكم قوم ضعفه يسمعون للمنافقين أي يطيعونهم"^٣.

(ج) تناصر ثابت ومبدئي، وتناصر مصلحي، وسأتكلم عن ذلك بإجمال كما يلي:

فمن التناصر بين أهل الباطل ما يكون ثابتا مستمرا دائما، ومنه ما يكون بحسب المصلحة فينقطع أحيانا أو لا يتم لأسباب موضوعية، يرون معها ألا يجازفوا بكشف أوليائهم أو لتقديرات أخرى لديهم.

ومما يدل على أن التناصر بين أهل الباطل مبدأ ثابت، يتواصلون به ويعتمدون عليه في مناوأتهم للحق وفي تأييد بعضهم بعضا في المواقف، قول الله تعالى موبخا لهم في الآخرة: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصفات: ٢٥]. فهذا السؤال هو توبيخ لهم بالعجز عن

١ - تيسير الكريم الرحمن، مرجع سابق (ص: ٢٣١)

٢ - البغوي، تفسير البغوي (معالم التنزيل) (٢/ ٥٠)

٣ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق (٤/ ٧١)

التناصر^١، "فالسؤال ليس على حقيقته وإنما أريد به لازمه وهو التعجب من عدم تناصرهم، وجملة (لا تناصرون) حال من ضمير (لكم) وهي مناط الاستفهام، أي أن هذه الحالة تستوجب التعجب من عدم تناصرهم، لأن التناصر بينهم ثابت من ثوابتهم، ولم يتركوه إلا لسبب أعظم من قدرتهم، والإضراب المستفاد من (بل) في قوله: ﴿بَلْ هُرِّدُوا إِلَىٰ آلِيهِمْ مَّا هُمْ بِلَهُمْ بِرِئَاسَةٍ﴾ [الصافات: ٢٦]، إضراب لإبطال إمكان التناصر بينهم^٢ بسبب عجزهم عن ذلك، وهو ما دل عليه قوله (مستسلمون) "فالاستسلام: معناه الإسلام القوي، أي إسلام النفس وترك المدافعة، فهو مبالغة في أسلم"^٣، وهذا العجز هو الذي منعهم من التناصر وليس عدم الإرادة. وقد ذكر المفسرون أن هذا السؤال (مالكم لا تناصرون) يشير إلى قول أبي جهل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، ومعناه: أنهم باجتماعهم واتحادهم منتصرين على أصحاب الحق أو أنهم متناصرون ينصر بعضهم بعضا ويعاونه، أي هذا حالهم متحدين متناصرين متعاونين^٤.

إذا فالتناصر بينهم مبدأ ثابت لولا بعض المعوقات التي قد تجعلهم يستسلمون ويعجزون عنه أحيانا.

ومما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْحِكُوا عَلَيَّ مَا أَسْرَوْنَا فِي أَنفُسِهِمْ نَدْمِيرٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، فهذه الآية تدل على مدى اعتماد المبطلين على التناصر فيما بينهم، كمبدأ ثابت في منهجهم، وتدلل أيضا على أن دافع التناصر هو المصلحة في بعض الحالات، كما في الآية، فقوله: "(فيهم) مبالغة في بيان رغبتهم في المسارعة وتهالكهم عليها، وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) للدلالة على أنهم مستقرون في الموالاة وإنما

١ - انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، مرجع سابق (١٢٠ / ٣)

٢ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (١٠٣ / ٢٣)

٣ - المرجع السابق نفس الموضوع.

٤ - انظر: التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (١١٨٩ / ٩)

مسارعتهم من بعض مراتبها إلى بعض آخر منها^١. وهذا يدل على أن ذلك منهجا لهم يمارسونه ويظهرونه كلما سنحت لهم الفرصة لتوثيق ولائهم وتأكيد^٢، وفيه دلالة على أنهم ينتقلون بين مراتب التناصر حيث هم مستقرون فيها^٣.

ثم ذكر السبب الذي حداهم إلى ذلك فقال: (يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)، "أي يقولون بألسنتهم: نحن نخشى أن تقع بنا مصيبة من مصائب الدهر فنحتاج إلى نصرتهم لنا، فعلينا أن نتخذ لنا أيادي عندهم في السراء، ننتفع بها إذا مستنا الضراء"^٤. وهذا هو الوجه المصلحي للتناصر، فالتناصر بينهم تناصر منهجي ثابت كمبدأ، ولكن قد يقع بحسب المصلحة أو كلما سنحت الفرصة لذلك.

وحتى التناصر بين الفرقة الواحدة من أهل الباطل فيه جانب واسع من المصالحة الحاكمة، فمع أنهم متفقون على التناصر عند هجوم الخطر عليهم، وتناصرهم مبدئي لضمان بقائهم واستمرار مصالحهم، إلا أنهم فيما بينهم ليسوا على ألفة ولا محبة خالصة، فالمنافقون ذكر الله أنهم (بعضهم من بعض) وهذا التعبير يدل على تشابك مصالحهم ووحدة منطلقاتهم ولكنه لا يدل على الانسجام ولا المحبة، ولذلك فليس ولاؤهم وتناصرهم كاملا من هذه الحيثية. وكذلك اليهود يقول الله عنهم: ﴿لَا يُقْنِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، أي أن حقيقة ما بينهم أنهم "مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق"^٥، و"لا يقع بينهم اتفاق، ولا تعاضد إلا ظاهري"^٦.

١ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق (٤٨ / ٣)

٢ - انظر: تفسير المراغي، مرجع سابق (١٣٧ / ٦)

٣ - التفسير الواضح، مرجع سابق (٥٢٥ / ١)

٤ - تفسير المراغي، مرجع سابق (١٣٧ / ٦)

٥ - تفسير القرطبي، مرجع سابق (٣٦ / ١٨)

٦ - الأساس في التفسير، مرجع سابق (١٤٣٧ / ٣)

المبحث الثالث:

منطلقات ودوافع التناصر بين أهل الباطل في القرآن

المطلب الأول: منطلقات ودوافع منهجية للتناصر بين أهل الباطل

كما أسلفت القول بأن التناصر بين أهل الباطل هو مبدأ ثابت منهجي في الأصل، وقد تطرأ عليه من حيثيات معينة بعض التغيرات الظرفية، الواقعية أو المخطط لها أحياناً.

والتناصر بين أهل الباطل لاشك أن له دوافع ومنطلقات منهجية تبعث عليه وتحدد نوعيته ووسائله الآنية، ومن تلك الدوافع والمنطلقات المنهجية، ما يلي:

١. المنطلقات الدينية والفكرية، فالأساس في التناصر والموالاة بينهم هو الدين والفكر والعقيدة التي يحملونها والتي تجعلهم يتناصرون انطلاقاً منها. وقد بينت كثير من الآيات القرآنية هذه المنطلقات لأهل الباطل، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَشْفِقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة: ٢]، فهذه الآية تكشف عن سبب العداوة من الكفار للمسلمين، وهو الدين. ولما كان السياق في بيان أن الدين هو الذي ينبغي أن تقوم عليه الموالاة والمعاداة، فكما أن ذلك ينبغي أن يحصل بين المؤمنين فهو حاصل بين الكافرين، فمفارقة المؤمنين لهم في الدين جعلتهم أعداء لهم، وهذا يدل على أن تناصر المبطلين منطلقه ديني في الأصل، وتلك العداوة الشديدة للمسلمين توجبها شدة الحنق على ما لقوا من المسلمين من إبطال دين الشرك وتحقير أهله وأصنامهم^١. ولذلك فإن قوله: (وودوا لو تكفرون) يعني: أنهم يريدون إبطال دينهم بأي وجه وفي كل حال^٢. ولما كان فريق من المؤمنين لا

١ - انظر: التحرير والتنوير، مرجع سابق (١٣٩ / ٢٨)

٢ - انظر: المرجع السابق (١٤٠ / ٢٨)

يزالون متأثرين ببعض القرابات بينهم وبين المشركين بين الله لهم أن قرابة الدين هي أعظم قرابة ينبغي أن تقوم بين المؤمنين، فقال: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [المتحنة: ٣]، فلمحت هذه الآية إلى أن اختلاف الدين يقطع الأنساب ويميت الصلات بين الأهل والأقارب^١.

ومما يبين المنطلق الديني للتناصر بين أهل الباطل، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، والمعنى: أن الموالاتة من بعضهم لبعض لاتحادهم بالكفر، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام^٢. والتعبير بالولاية لبعض في الآية للإيدان بأن النسبة بينهم بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتعبة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك^٣. وفيه أيضا: تنبيه إلى وجود التضامن التام بين أعداء الإسلام، يجمعهم عليه دينهم وملتهم الباطلة^٤.

ومن هذا المنطلق يأتي ما قاله البعض في سبب تسمية النصارى بهذا الاسم، قال: لتناصرهم فيما بينهم^٥.

٢. خبث الطوية المنطوية على الفسق والفجور، والحسد المنطوي على الحقد والجحود، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْتُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]. معنى الآية: هل تقتُمون منا إلا مجموع هذه الحال من أنا مؤمنون وأنتم فاسقون^٦، وقيل إن التعليل للنقمة بقوله

١ - التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (١٠/ ١٣٧٤)

٢ - انظر: محاسن التأويل، مرجع سابق (٤/ ١٦٧) وتفسير الشعراوي، مرجع سابق (٨/ ٤٨٢٢)

٣ - انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق (٤/ ٨٢)

٤ - انظر: التيسير في أحاديث التفسير، مرجع سابق (٢/ ٣٤٩)

٥ - انظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق (١/ ١٨٣)

٦ - ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب (٧/ ٤٠٦)

(إلا أن آمنة بالله..) هو بيان أن دافعهم هو خبث إيمانهم واعتقادهم الذي لا يماثل إيمان واعتقاد المؤمنين، والتعليل بقوله: (وأن أكثركم فاسقون) بيان أن الحسد لديهم هو داعي النعمة^١. ووجه التناصر هنا أنهم تماثلوا على تلك الحال جميعا أو أكثرهم الذين أشارت لهم الآية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤، ٦٨]، لأنه ليس في نفوسهم بذرة خير، فلذلك تزداد شراستهم وحقدهم على الإسلام، فالشرير يصعد من الشر ويتجدد لديه الشر كلما رأى الخير يتنزل على أصحاب الحق، فبسبب خبث نفوسهم وحسدتهم وحقدهم يزداد لديهم الطغيان على المؤمنين والكفر بالحق، ولن يتوقف ذلك عند درجة معينة أو مستوى معيناً؛ ذلك أن لديهم مددا لا ينضب يمد ذلك الطغيان والكفر^٢.

ولما ذكر الله سببا لعدم اتباع الكفار للرسول قال: ﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِجَحْدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فبين أن الجحود أمر شديد لا يمكن معه اتباع الحق، بل إنه من منطلقات التناصر المنهجية بين أهل الباطل، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

٣. الموروثات المنهجية، في التخطيط والتربية والسلوك والثقافة، جيلا عن جيل وجماعة عن جماعة، فهم يتوارثون الخطط والمنهجية التي يتبعونها في التناصر ضد أعدائهم، بل قد تتكرر وسائلهم ذاتها، ومن هنا نجد أن كثيرا من الوسائل والمنطلقات والشبهات تتكرر عندهم من جيل إلى جيل، والآيات العديدة تدل لذلك، ومن أوضح تلك الآيات على هذا المعنى، قوله تعالى: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ

١ - انظر: التحرير والتنوير، مرجع سابق (٦/ ٢٤٥)

٢ - تفسير الشعراوي، مرجع سابق (٦/ ٣٢٩٢) والأساس في التفسير، مرجع سابق (٣/ ١٤٥٩)

قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿[الذاريات: ٥٣]﴾، فالآية من دلالتها أنهم لشدة تشابه أفعالهم وأقوالهم التي يتناصرون بها ضد الحق وأهله كأنهم يسيرون وفق مخططات موحدة، تواصلوا عليها، وكان بعضهم أوصى بعضا بذلك^١، وكان ذلك التواصي قائم بينهم عبر الأجيال بنفس الادعاءات، إذ يرددون على ألسنتهم دائما نفس الاتهامات، وإلى هذه الظاهرة الغريبة يشير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿[الذاريات: ٥٢. ٥٣]﴾. وإلى هذا المعنى نفسه يشير قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿[فصلت: ٤٣]﴾^١.

ولما كان منشأ ذلك التشابه إنما هو التماثل الفكري والتوافق المنهجي، أضرب القرآن عن إثبات التواصي الحقيقي بينهم عبر الأجيال وأثبت وحدة المنهجية الفكرية والتربوية كمنطلق منهجي يقوم التناصر بينهم ويتحد على أساس منه، فقال: (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ) فالذي جمعهم هو تشابه القلوب، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان^٣.

وفي بيان تأثير الموروثات قال الله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَأَبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَعْدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿[الأعراف: ٧٠]﴾.

وقال الله أيضا عن تماثلهم في الدوافع وتوارثهم للمنهجية الباطلة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿[البقرة: ١١٨]﴾، وقال أيضا: ﴿وَقَدْ

١ - انظر: مكي ابن أبي طالب، الهداية الى بلوغ النهاية (١١ / ١٠٦ / ٧١)

٢ - التيسير في أحاديث التفسير، مرجع سابق (٦ / ٩٥)

٣ - التفسير الوسيط لطنطاوي، مرجع سابق (١٤ / ٢٨)

﴿الرعد: ٤٢﴾، وقال: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٣]، والآيات كثيرة في بيان تأثير الموروثات ووسائلها وسبلها.

المطلب الثاني: منطلقات ودوافع متغيرة للتناصر بين أهل الباطل

هناك منطلقات ودوافع متغيرة وغير ثابتة تدفع للتناصر بين أهل الباطل، وقولنا متغيرة لا يعني أنها غير مبدئية، فهي وإن كانت متغيرة إلا أن آثارها تظهر في الأحوال والسياقات المناسبة ظهوراً مبدئياً متكرراً، فتكون من هذه الحثيثة ثابتة ومنهجية، والتغير وعدم الثبات فيها يعني المرونة والمواءمة للواقع والوقائع ضماناً للفائدة الذاتية من جهة ومن جهة أخرى ضماناً لبقاء الصلة مع من يناصرون، ومن أهم منطلقات التناصر المتغيرة بين أهل الباطل، النفاق والمصلحة الذاتية الآنية.

والنفاق - في جانب منه - من الدوافع المتجددة والمتلونة التي قد تنطلي على

كثير من الناس، يقول الله تعالى في ذلك: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنفُسِهِمْ

نَدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]، فالآية أثبتت أن من دواعي المسارعة للنصرة المرض الذي في قلوبهم، وهو النفاق في الأصل، كما قرره القرآن^١ والمفسرون^٢، وقد يطلق على ما هو أوسع من النفاق، من الحقد والشك وضعف اليقين^٣، وهو دافع ثابت مبدئي من جهة كونه خلقاً وطبعاً للنفاق، وهو دافع متغير من جهة كونه مرتبطاً بالمصلحة المتغيرة. والتعبير بالمسارعة فيه دليل على سرعة الوقوع وعلى الرغبة المستكنة في النفوس^٤

١ - في قوله مثلاً: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

٢ - انظر: محمد محمد الخطيب، أوضح التفاسير (١/ ١٣٦) وغيره..

٣ - انظر: التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (٢/ ١٠٩٣).

٤ - انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق (٣/ ٣٦).

وإذا اجتمع مع النفاق دوافع الحقد والشك والمصلحة أيضا، كان ذلك سببا لعمق الولاء والتناصر مع أهل الباطل، ليس عن محبة ووثام وإنما عن كره للخصم وانتقاما منه وحقدا عليه.

والآية تفيد وتؤكد أيضا أن التناصر بين أهل الباطل ليس على مستوى واحد فقد يكون عميقا وشديدا، وقد يكون مصلحيا ليس إلا، ولذلك فإن التعبير بقوله: (يسارعون فيهم) في هذه الآية، والتعبير بقوله: (يسارعون في الكفر) في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، في التعبير اختلاف مع أن المعنيين هم أنفسهم في الآيتين، فتارة يسارعون في مبدأ الكفر نفسه، وتارة يسارعون في أشخاص الكافرين، وفي ذلك دلالة عميقة على ذبذبة المنطلق الذي ينطلقون منه للمسارعة، كما أنه يدل على اختلاف المؤثرات المصاحبة، كالأهداف والجو المصاحب.. وأيضا هناك دلالة على تفاوت مستويات التناصر؛ حيث قد يصل إلى قبول المبدأ والفكر، وقد يكون على المستوى الشخصي لا الديني. بل قد يقف التناصر عند مستوى الكلام والقول فقط، ولا يتجاوزه، كما ذكرت آية سورة الحشر عن نصره المنافقين لليهود.

وقد عبر الله أيضا عن تغير التناصر وتذبذبه تبعا للمصلحة والنفاق، فقال: ﴿الَّذِينَ

يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ

نَسْتَوْذِعْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فالآية تبين قدرة هؤلاء المذكورين على التأقلم وإزجاء النصره لإخوانهم الذين يوالونهم من أهل الباطل، فمعنى الآية: "يقول المنافقون للكفار ألم نغلبكم على رأيكم ومنعكم، ونصرفكم من المؤمنين، أي: عن الدخول في

جملتهم. وقيل: معناها ألم نستول عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين، أي: ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأمورهم" ، وهذه وجوه من التناصر قد يخفونها أو يتوقفون عنها في بعض المواقف، وذلك عندما لا يكون الجو مهيباً لهم أو ليس في صالحهم، بل إنهم يظهرون مناصرة الفريق الضد، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ ، فكلامهم هذا مع المؤمنين يقولونه لبيان نصرتهم وتأييدهم لهم توددا ومصانعة عندما يكونون في وضع القوة والنفوذ^٢.

وهذا السلوك من المنافقين ما هو إلا تكتيك تمليه عليهم المصلحة الآنية والواقع غير المواتي لإظهار نصرتهم لإخوانهم أهل الباطل، والله سبحانه يبين ذلك التوجه عندهم في آية أخرى فيقول في وصفهم: ﴿ وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَاطِئِنِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤] .

١ - تفسير البغوي، مرجع سابق (١/ ٧١٤)

٢ - انظر: الأساس في التفسير، مرجع سابق (٢/ ١٢١١)

المبحث الرابع:

وسائل التناصر بين أهل الباطل في القرآن

المطلب الأول: الوسائل النظرية الفكرية والثقافية للتناصر بين أهل الباطل

للتناصر بين أهل الباطل وسائل نظرية متنوعة، وهي ذات مستويات متفاوتة في الأهمية والأخذ بها، ومنها ما هو استراتيجي ومنها ما هو تكتيكي، وقد تؤثر الوقائع والأحداث والواقع في اتخاذ الوسائل الموائمة منها. وأقصد بالوسائل النظرية التي تكون في مستوى التنظير والثقافة والفكر، وتأتي خطورتها وأهميتها من كونها تعزز فكر وثقافة الولاء والنصرة فيما بين أهل الباطل أو الولاء لهم.

واتخاذ هذه الوسائل الفكرية والثقافية من أهم المرتكزات التربوية البنائية، كما أنها من أهم ركائز تثبيت الأفكار والمبادئ، بصورة عامة.

وقد بين القرآن جانبا من تأثير الوسائل الفكرية والثقافية على الأتباع، وبين مدى خطورتها في الواقع، لأنها تغير من التوجهات وتغذي القناعات وتعزز الولاءات، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: 78]، فالمعنى هنا: أن "من هؤلاء اليهود، عوام جهلة: لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، فلا يقرءون التوراة، لا يتحققون مما فيها. ومدى علمهم بها أمانى مدسوسة وأكاذيب باطلة، تلقوها عن رؤسائهم وأخبارهم، وعملوا بها تقليداً لهم" ^١. ويقول تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ۖ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَمْرٍ وَسْمٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 102]، وهذه الآية

١ - التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (١/ ١١٩)

تبين مدى تأثير الوسائل الثقافية على الناس، فالناس تأثرت وتأثر بتلاوة وقراءة الشياطين - من الإنس أو من الجن- لكلام كاذب مفترى أضافوه لسليمان وللملكين ببابل ليروج على الناس ويتبعوه -وهو ما حصل-، ونفس الوسيلة لا تزال يؤخذ بها: وهي تكرار القراءة على الناس وإغراقهم بالأفكار والثقافة الباطلة التي قد ينسبوننها إلى الفضلاء أو إلى من يحبهم الناس ويحترمونها ليقبلها الناس ويأخذون بها ويتبعونها، والاتباع في الأصل هو المشي وراء الغير ويكون مجازا في العمل بقول الغير وبرأيه وفي الاعتقاد باعتقاد الغير^١، والتعبير بالفعل (تتلوا) وهو مضارع يدل على الاستمرار ليبين أن هذه الوسيلة لا تزال معتمدة في كسب الناس وولائهم، ولا يزال مثل هذا العمل يروج على أتباع الباطل ويؤثر فيهم^٢.

ويصل التأثير الفكري والثقافي إلى أن يكون عائقا عن قبول الحق الواضح، كما يبينه -مثلا- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فهذه الآية تبين مدى التأثير بالموروثات العقدية والفكرية والعادات والسلوك الموروث أيضا.

وهذه الوسائل الفكرية لا يقتصر المبتطلون على العمل بها في أوساط أتباعهم فقط إنما يعتمدونها أيضا لاستهداف أصحاب الحق، بالتأثير السلبي وكسب المواقف والولاءات والأشخاص، ولا يملون ولا يفترون عن ذلك، حتى لقد عبر القرآن عن غايتهم من ذلك فقال: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتَّبَعْتَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وهذه الآية تدل على أنهم يستهدفون أرفع قيادة في صف أصحاب الحق، ويريدون

١ - التحرير والتنوير، مرجع سابق (١/ ٦٢٨) وانظر: (١/ ٦٢٩)

٢ - انظر: تفسير الشعراوي، مرجع سابق (١/ ٤٨٨)

التأثير عليهم وكسبهم إلى صفهم وعقيدتهم، وبالتالي فإن استهدافهم لمن هم دون الصف القيادي سيكون أولى وأحرى، والتأثير فيهم أسهل، خصوصا ذوي المستويات الفكرية والثقافية المحدودة، فتأثر أفكارهم وربما أحدث ذلك بلبلة واخلخلة لولائهم للحق، ولذلك حذر القرآن من الاستماع لأفكارهم أو الاعتقاد بها وأكد على البعد عن مواردها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقوله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، والآيات في هذا كثيرة. وهي تدعو إلى التحصين الفكري فهو أخطر من أي شيء آخر يمكن أن يستهدف صف الحق.

وعند النظر إلى الوسائل الفكرية والثقافية التي يتناصر بها أهل الباطل، نجد أن القرآن أوضح جانبا منها، أو من أصولها، وأشار إلى تنوعها وتجدها عندهم. وأنا هنا سأذكر بعضا منها، ومن تلك الوسائل ما يلي:

١. الترويج للباطل بأنواع من الضلالات، تمجيدها له أو تسفيها للحق وتقليلها لشأنه:

ومن هذا: ترويجهم للآلهة الباطلة وتخويفهم منها، ما ذكر الله عن قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَجَكَ بِعُضِّ آلِهَتِنَا بِسُوءِ مَا قَالُوا لِوَالِدِهِمْ لَسَاءَ مَا يَشْكُرُونَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، أي أن بعض آلهتنا قد أصابك بسوء لأنك سببتها، فصرت مجنوناً، وفي هذا مدح وتريخ بأن آلهتهم تنفع وتضر.

ومن هذا: أنهم يفرضون لآلهتهم اعتقادات باطلة لا تقوم بها ولا تنبغي لها، ويعطونها أشياء لا تستحقها: كما بينه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَّىٰ لِمَا كُفِّرُوا تَفَرُّونَ﴾ [النحل: ٥٦]. وهذا مما يقوم به المنتفعون بتلك

١ - انظر: تفسير البغوي، مرجع سابق (٢/ ٤٥٣)

الآلهة، فهم ينصرون الآلهة بمثل هذا الوجه ليضمنوا استمرار السيطرة على الأتباع بواسطة الآلهة التي يثبتون اعتقاد الناس بنفعها وضررها، ومن هنا قال في نهاية الآية: (تَاللَّهِ لَشَأَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتُرُونَ) ليبين أن فعلوا ذلك افتراء وكذبا متعمدا، وهو بُعد من أبعاد التناصر الحاصل بينهم ينصرون الآلهة وينتصرون بها، جحودا واستكبارا، وتحطيما لعقيدة التوحيد^١.

ومن هذا أيضا: أنهم يتنادون للتناصر بعذر نصره الآلهة، كما فعلوا مع إبراهيم عليه السلام، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، "أي قال بعضهم لبعض: حرقوا إبراهيم وانصروا بذلك آلهتكم، فقد سخر منها ونالها بالتحطيم ولم يرع قدسيتها وتعظيمها عندكم. {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}: أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرنا مبينا فهذا سبيله، وإلا تفعلوا كنتم مفرطين في حقها"^٢.

ومن هذا أيضا: أنهم أحيانا ينتصرون لآلهتهم بما لا مدخل فيه للانتصار، فمثلا: عندما ذكر الله أن المعبودات من دون الله حطب جهنم، قال بعض قريش أن النصارى تعبد عيسى فسيكون من حطب جهنم، وقالوا إذا كان عيسى في النار فنحن وآلهتنا لا بأس أن نكون معه، فرد الله عليهم ذلك. وسجل عليهم أنهم يجادلون لأجل الجدل والخصام والغلبة في القول لا لطلب الحق..، فهم لُدُّ شداد الخصومة، مجبولون على المكابرة وحب المغالبة بحق أو بباطل^٣. فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا آءِ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

١ - وانظر: الأساس في التفسير، مرجع سابق (٦/ ٢٩٥٠)

٢ - التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (٦/ ١١٣٥)

٣ - المرجع السابق (٩/ ٨٢٣)

ومن هذا الباب: إشاعة الخوف والرغبة من اتباع الحق.. وهم بذلك يقصدون العكس: أي أن بقاء الناس على ما هم عليه أنفع لهم، ومن هذا ما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَبِئْسَ اتَّبَعْتُمْ شُعْبًا إِتَّكَمُوا إِذَا لَحِخِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠]، هنا التخويف من الخسارة، أي خسارة أموالهم وممتلكاتهم، "سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حقهم حين يطففون الكيل ويخسرون الميزان، والقوي يأخذ من الضعيف؛ فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل وبخس وخسران الميزان. وهذه هي الخسارة في نظرهم المنحرف"^١.

والترويج للباطل ونصره له أبعاد كثيرة ولست هنا بصدد ذكرها، فنكتفي منه بما ذكرت.

٢. التوعية الخاصة وبث روح المصابرة فيما بينهم، ليثبتوا ويقاوموا الحق، كما يشير له قوله تعالى: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٢].

والمقصود من كلامهم هذا: تفاخرهم بتصلبهم في دينهم.. وبيان أنهم تريتوا فكان في الريث أن أفاقوا من غشاوة أقواله وخلافة استدلاله واستبصروا مرآه فانجلى لهم أنه لا يستاهل أن يكون مبعوثا من عند الله، فقد جمعوا من كلامهم بين تزييف حجته وتنويه ثباتهم في مقام يستفز غير الراسخين في الكفر ليرسخوا فيه^٢.

٣. كتمان المعرفة الصحيحة من أجل تضليل الناس، ومن: يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]. فمع معرفتهم للحق معرفة واضحة ليس فيها لبس، إلا أنهم لا يبينونه للناس عند حاجتهم إليه، بل قد يزيفون الحقائق نكاية بالخصوم وانتصارا لباطلهم.

١ - تفسير الشعراوي، مرجع سابق (٧/ ٤٢٤٨)

٢ - انظر: التحرير والتنوير، مرجع سابق (٣٣/ ١٩) باختصار وتصرف يسير.

٤. تحريف الحقائق وعدم عرضها عرضاً صحيحاً سليماً، كما في قول تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكَذِبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكَلْبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكَلْبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨]. يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والتنقيص من مكانة الإسلام والطنن في الرسول، ورغبة في التلبيس والتدليس^١.

٥. المحاجة والمجادلة بالباطل: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ

لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ^٢ فَإِنْ أَسَلَّمْتُمْ^٣ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ^٤ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، هذه الآية تبين أنهم يحاجون أهل الحق في أمور كثيرة، ولكن الله علمه بهذه الآية أن يحسم الأمر معهم فلا يلتفت إلى أباطيلهم، لأن هدفهم هو صرف أصحاب الحق إلى أمور جانبية تشغلهم عن الدعوة والمجاهدة في الله^٢.

ومما يبين قصدهم للمجادلة قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا ءَأَلْهَمْنَا خَيْرًا^٥ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً^٦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

٦. التأويل الفاسد، ليفتنوا به الناس ويصدوا به عن الحق، كما بيّنه قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧]، فقله: " {فيتبعون ما تشابه منه} أي: معرضين عن المحكمات ويتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحرياً للحق بل {ابتغاء الفتنة} أي: طلب أن

١ - انظر: تفسير الشعراوي، مرجع سابق (٣/ ١٥٥٨، ١٥٥٩)

٢ - انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي، مرجع سابق (٢/ ٥٩)

يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه، {وابتغاء تأويله} أي: وطلب أن يؤلوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة"١. وأكتفي بهذا القدر من وسائل التناصر النظرية بين أهل الباطل..

المطلب الثاني: الوسائل العملية السلوكية للتناصر بين أهل الباطل

أهل الباطل لا يكتفون بالتناصر من خلال الوسائل النظرية والفكرية فقط، وإنما يتناصرون أيضا من خلال وسائل عملية يؤيد بعضهم بعضا بها، ويؤيدون بها باطلهم أيضا، ويجب النظر إلى تلك الوسائل بنفس النظر الذي أشرت إليه في الوسائل النظرية، وهو أن من هذه الوسائل ما هو تكتيكي مرحلي وما هو استراتيجي بعيد المدى، ولكل ذلك مقتضيات مرحلية أو واقعية تفرض نوعا من الممارسات أو وسيلة من الوسائل، ومن تلك الوسائل العملية ما يلي:

١. اللقاءات والاجتماعات للتخطيط والإعداد، وهذا عمل لا بد منه من أجل تنظيم الأعمال وتوزيع المهام، وقد أشار إليه اجتماع إخوة يوسف عليه السلام قبل تنفيذ خططهم لإبعاد يوسف عن أبيه^٢، وقد أثبت القرآن ذلك في سورة يوسف من (الآية ٧ إلى الآية ١٨)، وفيها يتبين مدى دقة التخطيط الذي قاموا به وتشاوروا عليه.
٢. وضع هدف وغاية يمتنون بها أنفسهم وأتباعهم يتناصرون عليها، ومن ثم الاجتهاد والتجملد والمصابرة والبذل من أنفسهم وأموالهم في سبيل ذلك، فهم يبذلون في سبيل باطلهم ويضحون من أجله، وقد حفز الله المؤمنين على البذل والتضحية في سبيل الحق بذكر بذل وتضحية أهل الباطل، فقال: ﴿وَلَا تَهْجُرُوا فِي آيَاتِنَا الْقَوْمَ إِن

١ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق (٢ / ٨)

٢ - إخوة يوسف وإن تابوا فيما بعد إلا أن إثبات موقفهم هذا في القرآن يشير إلى ما قاموا به من تخطيط لعملهم الباطل.

تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿[النساء: ١٠٤]﴾، فأهل الباطل يبذلون ويألمون في سبيل باطلهم، ولهم رجاء وهدف يهدفون إليه، وذلك الرجاء والهدف هو الدافع والوسيلة التي يتناصرون لها والتي يتجمعون عليها.

وفي قوله الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقِنُونَ فِي سَبِيلِ الْأَطْغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، فيه بيان أنهم يجتمعون حول الطاغوت ويقاتلون في سبيله، وهذا يدل أنه وسيلة اجتماعهم، والناس مجبولون على الاجتماع حول غاية واضحة أو شيء ملموس معلوم، يكون فيه توجيه لهم وباعث على التناصر والولاء والاندفاع^١. والآيات في هذا كثيرة..

٣. قتال أهل الحق وبذل نفوسهم في سبيل باطلهم، وهذا ما ذكرته الآية السابقة وغيرها..

٤. إنفاق الأموال وبذلها في دعم مشاريع الباطل والصد عن سبيل الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. "نزلت هذه الآية في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً، يطعم كل منهم يوماً يذبح فيه عشرة من الإبل، والآية عامة الحكم وإن نزلت بسبب خاص"^٢.

٥. الشهادة للباطل ضد الحق، كما يبينه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ

١ - انظر: في ظلال القرآن، مرجع سابق (٢/ ٧٠٩) والتيسير في أحاديث التفسير، مرجع سابق (١/ ٣٥٩)

٢ - التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (٣/ ١٦١٧)

ءَامَنُوا سَيِّئًا ﴿ [النساء: ٥١]، الآية في سياق تناصر الكفار واليهود ضد الإسلام، وكيف شهد اليهود للكفار بأن دينهم أفضل من دين الإسلام، و"كون اليهود أوتوا نصيبا من الكتاب يقتضي لهم أن لا يقعوا فيما وقعوا فيه، ولكن الحامل لهم على ذلك هو الحسد"١. وقد لعنهم الله تعالى وأخبر عن خذلانهم يوم يحتاجون

للتناصر، جزاء ما قصدوه بفعلهم هذا، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدَلَهُ نُصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]، "وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك، ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب"٢.

٦. التشكيك بالحق من خلال السلوك العملي، لخلخلة عقيدة الصف المؤمن، كما

بيّنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. فقد تأمر اليهود أن يظهر بعضهم الإيمان برسالة محمد بداية النهار ويكفرون آخر النهار، "والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشك وزراعة البلبلة في نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين، فقد يقول بعض من الأميين: لقد اختبر أهل الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهل علم بمناهج السماء ولم يجدوه مطابقا لمناهج السماء"٣، فيكون في ذلك تشكيك وخلخلة للمؤمنين.

٧. الإرجاف لخلخلة صف الحق لينتصر إخوانهم، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله:

﴿لَٰئِن لَّمْ يَنهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ

١ - تفسير البحر المحيط، مرجع سابق (٣/ ٦٧٦)

٢ - تفسير ابن كثير، مرجع سابق (٢/ ٢٩٥)

٣ - تفسير الشعراوي، مرجع سابق (٣/ ١٥٣٩)

بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿[الأحزاب: ٦٠]﴾، الإرجاف هو نشر الأخبار الكاذبة، وهؤلاء المذكورون في الآية: "هم أناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين"^١.

ومن الإرجاف: بث الشائعات والشبهات الكاذبة للتشكيك في الحق وإشغالهم بقضايا جانبية، كما حدث عند تغيير القبلة إلى الكعبة، وأنزل الله تعالى بيان ذلك: فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ ۖ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد أثبت القرآن أنهم تكلموا في هذا الفعل واستغلوه للتشكيك في دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]. فالآية تبين أن هذه العملية ستحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون^٢.

ومن هذا الباب: بث التهم وتلفيقها ضد الحق وأهله، كما جرى في حادثة الإفك، وكما اتهموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه درس القرآن أو تعلمه على بشر، أو تدارسه معه^٣، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهْمُ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

١ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل، مرجع سابق (٤٥ / ٣)

٢ - انظر: تفسير الشعراوي، مرجع سابق (١ / ٦٢٣)

٣ - انظر: التفسير الوسيط - مجمع البحوث، مرجع سابق (٣ / ١٣٠٣)

٨. التظاهر والتعاون لمضارة المؤمنين، والتظاهر بمعنى المعاونة والتناصر، من المظاهرة، كأن كل واحد منهم يسند ظهره للآخر ليتقوى به، فيكون له كالظهور^١، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: ٨٥]، في قوله (تظاهرون) خمس قراءات كلها بمعنى التعاون والتناصر^٢.

والله سبحانه يقول أيضا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، "الظهير: المعين، فتكون الآية بمعنى تويخهم على ذلك، من أن الكفار يعينون على ربهم غيرهم من الكفرة والشيطان بأن يطيعوه ويظاهروه^٣. والتظاهر فيه تكثير للسواد ودعم حسي ومعنوي.

٩. مضاهاة ومماثلة الأقوال والأفعال وتشبه بعضهم ببعض، وفي ذلك تمكين لثقافتهم وسلوكاتهم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرَ بْنَ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكُونُوا﴾ [التوبة: ٣٠]، أي: "ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان، ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم"^٤.

١٠. نقل أخبار وأسرار الصف المؤمن، وتخذييل المؤمنين وتثبيطهم ومحاولة تفريقهم لإضعافهم خدمة للعدو، وغير ذلك من وجوه الإفساد والخبال وبث روح الهزيمة في صفوف المؤمنين^٥، كما بينه قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا

١ - اللباب في علوم الكتاب، مرجع سابق (٢/ ٢٤٩)

٢ - انظر: تفسير البحر المحيط، مرجع سابق (١/ ٤٥٩) والهروي، تفسير حقائق الروح والريحان في رواي علوم القرآن (٢/ ٦٤) وغيرهما..

٣ - ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٢١٥)

٤ - التفسير الوسيط لطنطاوي، مرجع سابق (٦/ ٢٦٠)

٥ - انظر: ابن القيم، تفسير القرآن الكريم (ص: ٣٠٤)

خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿ [التوبة: ٤٧].

١١. التناصح والتواصي بوسائل وخطط المكر والكيد للمؤمنين، ومن ذلك تبادل التجارب والخبرات، وتزيين الباطل والتواصي بالثبات عليه، ومن ذلك مثلاً: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، فالآية تقرر تواصيتهم وبذلهم النصح لبعضهم لنصرة باطلهم، وقد ثبت أن قريشا كانت بعضهم بعضاً بذلك^١. وهكذا أهل الباطل من سلوكهم النصح لبعضهم والتواصي على صد الحق.

وهم إنما يحسنون باطلهم بيزخرف القول، ولهم من يزخرف لهم، ويجعل باطلهم في صورة الحق كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ويزخرف القول، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين، فيزينون الشهوات والشبهات^٢، وبفعلهم ذاك يتبادلون التجارب في الإفساد ويعطي بعضهم بعضاً آفاقاً يكسب من خلالها أتباعاً وأنصاراً، ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿ وَلِيَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَادُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣]، قال السعدي - رحمه الله - : "أي : يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعو إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات، حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني"^٣.

١ - انظر: مفاتيح الغيب، مرجع سابق (٢٧ / ٥٥٩) وتيسير الكريم الرحمن، مرجع سابق (ص: ٥٥٥)

٢ - انظر: مفاتيح الغيب، مرجع سابق (٧ / ٣٨٧٩)

٣ - تيسير الكريم الرحمن، مرجع سابق (ص: ٢٦٩)

إلى هنا وأصل إلى نهاية هذا البحث، فما كان فيه من خير فمن الله وما كان فيه من زلل فمن نفسي والشيطان.. وعلى الله القبول، وهو حسبنا ونعم الوكيل..

الخاتمة:

النتائج والتوصيات

أولاً: النتائج:

١. معاني التناصر اللغوية هي معانٍ وضعية عامة، ولا تختص بجماعة معينة أو فرد أو صفة، ويمكن تطبيقها على أي جماعة أو فئة تتناصر فيما بينها.
٢. يطلق التناصر على معنى التعاون على النَّصر بوسائل وأساليب متنوعة وليس بالضرورة أن يبنى على الموالاتة الكاملة.
٣. التناصر من باب التفاعل، ومعنى ذلك أنه يحدث من جانبيين، سواء على مستوى الأفراد أو المجموعات أو الدول.
٤. التناصر بين أهل الباطل يقع ظاهراً في الدنيا، وتكون بينهم وجوه عديدة منه، بل قد يظهر ذلك التناصر في أقصى قوته. ولكنه في الحقيقة والواقع يحتوي على خلل في بنيته؛ لأنه لا يقوم على أسس تضمن له الاستمرار والصدق والدوام.
٥. أهل الباطل يجمعهم الحرب على الحق، فيتناصرون على ذلك الأساس، أو على أساس المصلحة، وشأنهم الداخلي يمثل قمة التنافر والتباعد.
٦. من الحقائق القاطعة في القرآن الكريم أن التناصر في الآخرة ينقطع بين الناس جميعاً، مؤمنين وغير مؤمنين. ويستثنى من ذلك ما يقع بين المؤمنين من الشفاعة، وإنما يكون ذلك بإذن الله تعالى ورحمته تكريماً لهم.
٧. من وجوه التناصر بين أهل الباطل: الموالاتة أو الولاية، وهي مصطلح قرآني وتبني في الأصل على الوفاق والوثام والصلة، وهي وصف جامع لكثير من وجوه التناصر، كما أنها أوسع وجوه التناصر بين أهل الباطل، ولكن قد ينقصها المحبة والتماهي الكامل بينهم.
٨. من وجوه التناصر بين أهل الباطل: التعاون، وله صور متنوعة، ومستويات متفاوتة، والتعاون بين أهل الباطل هو أن يعين بعض الناس بعضاً على فعل الشر وترك الخير والتعدي على الغير.

٩. من التعاون بين أهل الباطل: التعاون من خلال دعم مواقف بعضهم أو تصرفاتهم، أو الوقوف والدعم الظاهر بالقول والتأييد، ويكون بالتغاضي والسكوت عن أهل الباطل وتصرفاتهم، والرضا بأفعالهم.
١٠. من التناصر بين أهل الباطل: التعزيز لهم والتعزز بهم، وتكاثر بعضهم ببعض، واستمتاع بعضهم ببعض، والدعم المادي والمعنوي فيما بينهم.
١١. وجوه التناصر بين أهل الباطل ليست على مستوى واحد من القوة ولا من الشمول، بل تتفاوت في ذلك؛ كون التناصر بينهم مبني على مراكز مختلفة ومتنوعة وغير ثابتة.
١٢. قد يقع تناصر شامل بين أهل الباطل على كل المستويات أو على مستوى واسع المجالات؛ بحيث يجتمعون ضد عدو مشترك ويتفقون في المناهج أو الأهداف والغايات والمخططات. وقد يكون بينهم تناصر جزئي غير شامل، في بعض الجوانب المتفق عليها، أو التي تتحقق فيها مصالح أو أهداف محدودة لدى الجميع.
١٣. مبدأ القيام بالتناصر ثابت عند أهل الباطل، ولكنهم قد يتخلون عنه بحسب تقديرات خاصة بهم في الدنيا، وأما في الآخرة فيتخلون عنه مجبرين لا مختارين.
١٤. هناك منطلقات ثابتة ودائمة للتناصر بين أهل الباطل، وهي منطلقات ذات أبعاد دينية وفكرية ثقافية، وأبعاد أخلاقية وسلوكية تربوية، وأبعاد منهجية تخطيطية.
١٥. وهناك منطلقات مرنة ومتغيرة للتناصر بين أهل الباطل، وهي ترجع إلى النفاق والمصلحة الآنية، في الغالب.
١٦. للتناصر بين أهل الباطل وسائل نظرية متنوعة ووسائل عملية متنوعة أيضا، وهي ذات مستويات متفاوتة، فمنها ما هو استراتيجي ومنها ما هو تكتيكي، ولا يقتصر تأثيرها على أتباعهم بل يُستهدف بها أصحاب الحق أيضا.
١٧. من وسائل التناصر بين أهل الباطل: في الجانب النظري: الترويج للباطل بأنواع من الضلالات، والتوعية الخاصة وبث روح المصابرة فيما بينهم، وكنمان المعرفة الصحيحة وتحريف الحقائق والمحااجة والمجادلة بالباطل والتأويل الفاسد.

١٨. ومن وسائلهم العملية للتناصر: اللقاءات والاجتماعات للتخطيط والإعداد، ووضع أهداف وغايات يتناصرون عليها، ويبدلون من أنفسهم وأموالهم في سبيل ذلك، وقتال أهل الحق، تزييف الحقائق والتشكيك بالحق والإرجاف بين المؤمنين، وتخذيل المؤمنين وتثيبتهم، ومظاهرة بعضهم بعضا والمعونة والتواصي بالباطل وتبادل الخبرات والتجارب ومضاهاة بعضهم بعضا في الثقافة والسلوك.

ثانيا: التوصيات:

توصي الباحثة الباحثين: بأن يكون هناك بحث يتوسع في وجوه ووسائل التناصر بين أهل الباطل مقارنة بالواقع.
كما توصي الباحثة معاهد إعداد الدعاة للاستفادة من مثل هذا البحث، والاهتمام بهذا الجانب التوعوي المهم.
والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المراجع والمصادر

١. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) (١٤٠٥ - ١٩٨٥م) ط١، غريب الحديث، المحقق: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.
٢. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (١٤٢٢ هـ) ط١، زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت.
٣. ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) (١٤١٠هـ) ط١، تفسير القرآن الكريم، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت.
٤. ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي، (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م) ط١، اللباب في علوم الكتاب، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
٥. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، (١٩٨٤م)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس.
٦. ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجزي الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، (١٤١٩هـ)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة.
٧. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (المتوفى: ٥٤٢هـ) (١٤٢٢هـ) ط١، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت.
٨. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) (١٤١٩ هـ) ط١، تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات، محمد علي بيضون - بيروت.
٩. أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (د.ت)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٠. أبو بكر الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ط٥، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

١١. أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي، أنير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، (١٤٢٠هـ)، تفسير البحر المحیط، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت.
١٢. أحمد ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة.
١٣. أحمد شاكر، (١٤٣٦ هـ - ٢٠٠٥ م) ط٢، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، دار الوفاء، المنصورة.
١٤. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء (المتوفى: ٥١٠هـ) (١٤٢٠ هـ) ط١، تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٥. الحجازي، محمد محمود، (د.ت) التفسير الواضح، دار الجيل الجديد، بيروت.
١٦. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، (د.ت)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
١٧. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى (المتوفى: ١٢٠٥هـ) (د.ت)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
١٨. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م) ط١، تيسير الكريم الرحمن، مؤسسة الرسالة. بيروت.
١٩. الشعراوي، محمد متولي، (١٩٩٧ م)، تفسير الشعراوي - الخواطر، مطابع أخبار اليوم.
٢٠. الشوكاني، محمد بن علي (١٤١٤هـ) ط١، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت.
٢١. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد (١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م) ط١، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة.
٢٢. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم (المتوفى: ١٣٣٢هـ) (١٤١٨ هـ) ط١، محاسن التأويل، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣. - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م)، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٤. المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ) (١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م) ط ١، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٢٥. المناوي، محمد عبد الرؤوف، (١٤١٠هـ) ط ١، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق.
٢٦. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م) ط ١، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت.
٢٧. الهرري، محمد الأمين بن عبد الله، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م) ط ١، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان.
٢٨. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، (١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة.
٢٩. سعيد حوى (المتوفى ١٤٠٩ هـ)، (١٤٢٤هـ) ط ٦، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة.
٣٠. سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥ هـ) (١٤١٢ هـ) ط ١٧، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت - القاهرة.
٣١. طنطاوي، محمد سيد (١٩٩٧. ١٩٩٨م) ط ١، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة.
٣٢. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) - (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م) ط ١، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.
٣٣. مجموعة من الباحثين، بإشراف: صالح بن عبد الله بن حميد (١٤١٨ هـ. ١٩٩٨م) ط ١، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم. دار الوسيلة، جدة.
٣٤. محمد المكي الناصري (المتوفى: ١٤١٤هـ)، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) ط ١، التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان.
٣٥. محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب (المتوفى: ١٤٠٢هـ) (١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤م) ط ٦، أوضح التفاسير، المطبعة المصرية ومكبتها.

٣٦. محمد مختار عمر، (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م) ط١، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب.
٣٧. مُقْبِلُ بْنُ هَادِي بْنِ مُقْبِلِ بْنِ قَائِدَةَ الْهَمْدَانِي الْوَادِعِيِّ (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) ط٤، الصحيح المسند من أسباب النزول، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
٣٨. مكّي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م)، ط١، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة.
٣٩. نشوان الحميري، (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م) ط١، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإيراني - د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية).
٤٠. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، (من ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ) ط١، ٢، الموسوعة الفقهية الكويتية.



مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

مجلة-علمية-محكمة-تصدر عن جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية- اليمن (١٧) (٦/٢٠٢٠)-٢٦١٧-٥٨٩٤ ISSN:

تكامـل القراءات وآثاره الدلالية في مسألة الرضاع (دراسة توجيهية)

د/ بشرى حسن هادي اليمني

أستاذ مساعد بقسم (القراءات)

كلية القرآن والدراسات الإسلامية - جامعة جدة

المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث: [تكاثر القراءات وآثاره الدلالية في مسألة الرضاع (دراسة توجيهية)]، إلى بيان مفهوم تكاثر القراءات القرآنية، وإبراز أثر تكاثرها في بيان مدة الرضاعة وفي بيان حكم الرضاع ومسئوليته وبيان آثار المضارة في الرضاع.

وقد اتبعت المنهج الوصفي والاستقرائي والتحليلي وخلصت من خلال هذا البحث إلى أن تكاثر القراءات يعني: دلالة كل قراءة على جزء من المعنى بحيث يكون المعنى تاماً بمجموع القراءات، فتتعاضد القراءات جميعاً على بيان المعنى التام الكامل. وتكاثر القراءات له أنواع وصور عديدة، تتداخل في مواضع وتنفرد في مواضع.

وتكاثر القراءات يؤثر في توسيع المعنى، وفي تأكيد بعضها، وفي تفصيل الأحكام، وفي حمل بعض الوجوه على العموم أو الخصوص أو الإطلاق أو التقييد.. ويمكن أن يُحتج بوجوه القراءات في الآية الواحدة لعدة أحكام من غير تعارض.

وقد تكاملت القراءات في بيان حكم الرضاع ومسئوليته وبينت أن الرضاع له أحوال مختلفة، وتتداخل فيه عوامل عديدة ينبغي مراعاتها وحسن التعامل فيها.

كما بينت القراءات المختلفة أن الإرضاع أمر تكليفي يتوجب على الأب أو الوارثين دون الأم، فهو عليها ندبا. وهو أمر فطري ضروري، ينبغي أن تراعى فيه الأم الفطرة. وتماه حولان كاملان، إلا أن تقع مفاصلة من الطفل وأمه لأسباب مقبولة، وللأبوين حق الاجتهاد في تحديد أقل مدة له. وبينت القراءات المختلفة حكم المضارة ووجوهها وضرورة تركها، وإثارة الباعث الإنساني لدى المرأة للبعد عنها واتقاء إيذاء نفسها وولدها بقصد مضارة للزوج.

الكلمات المفتاحية: تكاثر القراءات الرضاع المضارة

Abstract:

This research entitled, 'The Quranic Readings' Integral Relationship and its Semantic Effects on Breastfeeding (in the verses of breastfeeding), aims at clarifying the idea that the Quranic readings have an integral relationship.

It, also, shows the impact of this integral relationship on stating the breastfeeding's duration, judgment, and responsibilities; it explains the effects of the harm related to breastfeeding's disputes. The research concluded that the integral relation of the Quranic recitations means: every recitation indicates a part of the meaning, which means that the meaning is complete with all the recitations together.

Thus, all the recitations help in expressing the total complete meaning. This integration has many types and ways, which overlaps in features in some verses and has exclusive features in some other verses. And it enhances the meanings and ensures some meanings. It helps in elaborating judgments, and in understanding some phases in general, in particular, freely, or restrictedly.

So, it can be invoked by the modes of recitations of the same verse to have several cohesive judgments. Further, the Quranic recitations have integral relation in stating the judgment and responsibilities of breastfeeding, which has different conditions with several factors that should be taken into consideration and dealt with properly. The different recitations, also, show that suckling is a mandatory matter for the father or the inheritors excluding the mother for she is the one who does it, by instinct, out of necessity. The total period of suckling is two years unless the child and his mother are separated for acceptable reasons; parents then have the right to decide a less-than-two-year period.

The Quranic recitations indicate the judgment of harm related to suckling, its phases, and the necessity of leaving it, raising the woman's humanitarian motive for feeling lonely and preventing her from hurting herself or her son with the intension of hurting the husband.

Keywords: Integration Quranic Recitations Suckling Breastfeeding Harm

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن القرآن كتاب الله الخالد الذي لا تنقضي عجائبه، وهو الدستور الذي تصلح عليه الدنيا والآخرة.. وإن من القضايا المهمة في حياة البشر: قضية الرضاع، وهي قضية فيها عدد من الزوايا التي يجب أن تُبيّن للناس؛ ذلك أن الرضاع يحصل فيها خلاف كثير بين الزوجين أو بين الأطراف المعنية بالرضاع في جزئيات عديدة منها، وبالنظر في القرآن الكريم نجد أن هناك حلولاً وتوجيهات واضحة ومهمة وردت في القراءات القرآنية لمفردات مفصلية في الآيات التي تتحدث عن عملية الرضاع والإرضاع وملابساتها، وتلك التوجيهات والحلول كفيلة بحل المشكلات والخلافات التي تحصل بسبب الرضاع.

وهناك قضية مهمة تتعلق بالقراءات القرآنية -متواترة وشاذة- وهي: أن القراءات القرآنية لها أهمية دلالية كبيرة، وتتضح أكثر من خلال النظر التكاملي بينها؛ حيث تسهم دلالاتها التكاملية في بيان المعاني الشاملة، وفي إبراز التوافق والانسجام في الدلالات والمعاني والأحكام القرآنية، كما أنها تظهر استيعاب معاني القرآن وألفاظه للأحوال المختلفة والأبعاد المتعددة للأحكام والأوضاع المتنوعة لكثير من القضايا المتصلة بالحياة والواقع.

ومن هنا فقد بادرت بهذا البحث لبيان تلك التوجيهات ومعرفة دلالاتها وآثارها في قضية الرضاع، وسميته: (تكامل القراءات وآثاره الدلالية في مسألة الرضاع) (دراسة توجيهية).

أهمية البحث:

تأتي أهمية هذا البحث من كونه يبرز أهمية النظر التكاملي للقراءات القرآنية المختلفة، ومن كونه يبين استيعاب القرآن لأبعاد قضية مهمة من القضايا الحياتية الدائمة وهي الرضاع، وفي كونه يسهم في تقديم حل عملي لعدد من مشكلاتها.

تساؤلات البحث:

تتمثل مشكلة البحث في الإجابة على عدد من التساؤلات في قضية تكامل القراءات وفي قضية الرضاع، كما يلي:

١. ما مفهوم تكامل القراءات القرآنية؟
٢. ماهي دلالات تكامل القراءات في آيات الرضاع في بيان مدة الرضاعة؟
٣. ما هي دلالات تكامل القراءات في آيات الرضاع في بيان حكم الرضاع ومسئوليته؟
٤. ماهي دلالات تكامل القراءات في آيات الرضاع في بيان الآثار السيئة للمضارة في الرضاع؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق عدد من الأهداف، وهي:

١. بيان مفهوم تكامل القراءات القرآنية.
٢. إبراز أثر تكامل القراءات في آيات الرضاع في بيان مدة الرضاعة.
٣. إبراز أثر تكامل القراءات في آيات الرضاع في بيان حكم الرضاع ومسئوليته.
٤. إبراز أثر تكامل القراءات في آيات الرضاع في بيان آثار المضارة في الرضاع.

منهج البحث:

ستتبع الباحثة المنهج الوصفي والاستقرائي والتحليلي.

الدراسات السابقة:

وقع بين يدي الباحثة رسالة للدكتور/ ناجي حسين صالح علي، بعنوان: اختلاف القراءات وآثرها في تفسير آيات النكاح والطلاق، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، الخرطوم، السودان، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م، وقد تناول البحث فيها، بعض الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق، بشكل موسع في بعض نواحي البحث وضيق في جوانب أخرى.

وقد حاولت من خلال هذا البحث دراسة بعض الأحكام من زاوية أخرى مع بعض الإضافات العلمية، وسد بعض جوانب النقص في الدراسة السابقة.

خطة البحث: قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: مفهوم تكامل القراءات وأنواعه

المبحث الثاني: تكامل القراءات وآثاره الدلالية في بيان مدة

الرضاعة

المبحث الثالث: تكامل القراءات وآثاره الدلالية في بيان حكم

الرضاع ومسئوليته

المبحث الرابع: تكامل القراءات وآثاره الدلالية في بيان آثار

المضارة في الرضاع

الخاتمة: وتشمل: النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

مفهوم تكامل القراءات وأنواعه

أولاً: تعريف القراءات:

القراءات لغة: جمع قراءة، وهي مصدر: قرأ يقرأ قراءة فهو قارئ، ويقال: قرأ فلان قراءةً، واستقرأه: بمعنى طلب منه أن يقرأ، وقرأ الكتاب قراءةً: أي: تتبع كلماته نظراً ونطق بها^(١).

. القراءات في الاصطلاح:

عرفها ابن الجزري بقوله: "هي علم بكيفية أداء كلمات القرآن، واختلافها بعزو الناقلة"^(٢).

وعرفها بدر الدين الزركشي أيضاً، فقال: "هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتّبة الحروف أو كيفيتها، من تخفيفٍ وتثقيلٍ وغيرهما"^(٣).

وعرفها القسطلاني فقال بأنها: "علم يعرف منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالى واختلافهم في اللغة والإعراب، والحذف والإثبات، والتحريك والإسكان، والفصل والاتصال، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال من حيث السماع"^(٤).

وترى الباحثة أن تعريف ابن الجزري تعريف جامع شامل لمفردات تعريفات الآخرين ومختصر.

(١) ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم (د.ت) لسان العرب، طبعة جديدة محققة ومشكولة شكلاً كاملاً ومذيلة بفهارس مفصلة، دار المعارف، القاهرة. مصر: (٣٥٦٣/٥).

(٢) ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن الجزري (ت: ٨٣٣هـ) (د.ت)، مُنجد المقرئين ومرشد الطالبين، اعتنى به علي بن محمد العمران: (٤٩).

(٣) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (د.ت) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة. مصر: (٣١٨/١).

(٤) القسطلاني، أحمد بن أبي بكر (د.ت) لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق وتعليق: الشيخ/ عامر السيد عثمان، د/ عبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة. مصر: (١٧٠/١).

والقراءات في العموم تنقسم إلى قسمين: متواترة وشاذة.

فالقراءة المتواترة هي ما توفرت فيها ثلاثة شروط هي^(١):

١- أن تكون متواترة السند المتّصل، فلا يقبل اتصال سند الآحاد^(٢).

٢- أن توافق رسم المصحف.

٣- أن توافق وجهاً من وجوه اللغة، ولو احتمالاً.

والقراءة الشاذة هي ما فقدت أحد هذه الشروط الثلاثة المعتمدة عند العلماء، ولا

تسمى قرآناً وإن كانت صحيحة في نفسها، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والقراءة

الشاذة ليست متواترة^(٣)، ولكن القراءات الشاذة لم يختلف أحد على الأخذ بها في

التفسير والدلالات، ويتضح ذلك من النظر في تفاسير العلماء وكلامهم.

ثانياً: تعريف التكامل:

التكامل في اللغة: هو مصدر تكامل، والكمال: هو التمام، وتكامل الشيء

وتكامل ككامل، وأكمله واستكماله وكمله: أتمه وجملته. وتكامل يتكامل تكاملاً، فهو

(١) ينظر: ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن يوسف (ت: ٨٣٣هـ) النشر في القراءات العشر، تحقيق: الشيخ/ علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان: (٩/١) والنحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) إعراب القرآن، ط ٢، تحقيق: د/ زهير غازي زاهد، عالم الكتب: (١/١٢٧-١٣٠).

(٢) ينظر: ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد، أبو زرة (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) حجة القراءات، ط ٥، تحقيق: سعد الأفغاني، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت: (١٢)، والسبكي، علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن حامد بن يحيى (ت: ٧٨٥هـ) (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، الإبهاج في شرح المنهاج (منهاج الوصول إلي علم الأصول، للبيضاوي)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت: (٢/٢٨٥).

(٣) ينظر: ابن زنجلة، حجة القراءات، مرجع سابق: (١٢ - ٢٢) والزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق: (١/٣٣٣).

متكامل، وتكاملت الأشياء: كَمَلَّ بعضُها بعضاً بحيث لم تحتج إلى ما يُكَمِّلُها من خارجها (١).

- **التكامل في الاصطلاح:** لا يخرج تعريف التكامل في الاصطلاح عن المعاني اللغوية، ويمكن القول بأن التكامل عموماً هو: التعاضد والتعاون على إبراز الشيء المطلوب بصورة كاملة متناسقة غير متنافرة، أو هو تعاضد على إبلاغ الشيء المقصود إلى الكمال والتمام المراد منه، بانسجام وتوافق (٢).

ثالثاً: المقصود بتكامل القراءات:

من خلال النظر في المعاني اللغوية والاصطلاحية للقراءات وللتكامل نستطيع القول بأن تكامل القراءات يعني: دلالة كل قراءة على جزء من المعنى العام بحيث يكون المعنى تاماً بمجموع القراءات عند الجمع بينها، فتتعاضد القراءات جميعاً في بيان المعنى المراد.

أو: هو اشتمال كل قراءة على جملة من المعنى، وعند جمع تلك القراءات تتضافر كلها لبناء المعنى المنشود بتلك المعاني الجزئية. ومن هذه المعاني الجزئية ما هو خاص بقراءة، ومنها ما هو مشترك بين القراءات من بعض الوجوه، ولم يزل العلماء يستنبطون من كل حرف يقرأ به قارئ معنى لا يوجد في قراءة الآخر (٣).

(١) ينظر: الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (١٩٨٩م)، مختار الصحاح، طبعة مُدَقَّقة كاملة التشكيل، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان: (٢٧٣)، وابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق: (٥٩٨/١١)، ومرتضي الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض (د.ت) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية: (٣٥٣/٣٠).

(٢) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١٩٥٩ / ٣)

(٣) ينظر: البنا، أحمد بن محمد (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، المسمى: (منتهى الأمانى والمسرات في علوم القراءات)، ط ١، تحقيق: د/ شعبان محمد إسماعيل، الناشر: عالم الكتب، بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة: (٦).

رابعاً: أنواع تكامل القراءات:

للتكامل في القراءات أنواع وصور عديدة قد تتداخل في مواضع وتنفرد في مواضع أخرى، وليس هذا البحث موضع دراستها، وإنما سنتعرض لبعض الصور التي وردت في آية الرضاع، التي هي محل الدراسة، ولكن لا ضير في أن نشير إليها بصورة عامة بحسب ما تبين للباحثة، وهي كالتالي:

● التكامل من حيث التصريف والتركيب: كأن تأتي لفظة تقرأ بتصريفات مختلفة، فتعطي كل قراءة دلالة جزئية للمعنى، وإذا ضمت تلك الدلالات الجزئية مع بعضها تكامل المعنى العام.

● التكامل من حيث المعنى والدلالات اللغوية والبلاغية: بحيث تعطي كل قراءة جزءاً من الدلالة للمعنى اللغوي أو الوجه البلاغي، فيكتمل المعنى والدلالة بضم تلك الدلالات مع بعض.

● التكامل من حيث البناء والإعراب، وما يلحق بهما من علوم النحو، بحيث يعطي كل وجه إعرابي جزءاً من المعنى، فتتكامل الوجوه في توضيح المعنى العام. وهذا التنوع في تكامل القراءات يحتاج إلى بحث آخر، وليس هنا محل بسط الكلام عنه، وستكتفي الباحثة بدراسة بعض ملامح التكامل المعنوي والحكمي.

المبحث الثاني

تكامل القراءات وآثاره الدلالية في بيان مدة الرضاعة

في الآيات التي تحدثت عن الرضاع جملة من القراءات المختلفة، وهي تتعاضد وتتكامل في بيان المدلولات والمعاني الكاملة التي تبين بها مدة الإرضاع، وسوف أقوم بعرض القراءات في الجمل المختلفة في الآيات ومن ثم سأبين دلالاتها على بيان مدة الرضاعة، وفي موضوع مدة الرضاعة تأتي الجمل الآتية: قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، فهذه الجملة فيها قراءات مختلفة في لفظة (يتم) وفي (الرضاعة)، وهما لفظتان في جملة واحدة، ومرتبطتين في الدلالة على مدة الرضاعة وعلى غيرها من ملابسات الرضاع.

وقوله تعالى: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ تَلَثُّونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، فقوله: (وفصاله) في الآيتين قراءات دالة لبيان مدة الرضاعة أيضا.

وسوف أقوم بعرض القراءات فيها وما بني عليها من تحديد مدة الرضاعة، حال النظر إليها من جهة تكاملية، وذلك كما يلي:

أولا: القراءات في لفظة (يتم) ودلالاتها التكاملية في بيان مدة الرضاعة:

وردت قراءات مختلفة في لفظة (يتم) من الآية (٢٣٣) من سورة البقرة^(١)، وهي الآية التي تتحدث عن الرضاعة وأحكامها، والقراءات فيها على النحو التالي:

(١) قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ...﴾ [البقرة: ٢٣٣].

- قرأ الجمهور: ﴿أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾، بضم الياء ونصب الرضاعة، من أتمَّ، وعلى نصب الرضاعة^(١).

- وقرأ مجاهد والحسن وابن محيصن وأبو رجاء: (أَنْ تُتِمَّ الرِّضَاعَةُ)، بالتاء المفتوحة ورفع الرضاعة.

- وقرأ أبو حنيفة وابن أبي عبله (تَمَّ) بالتاء المفتوحة، إلا أنهم كسروا الراء من الرضاعة^(٢).

- وروي عن ابن عباس أنه قرأ: (أَنْ يُكْمَلَ الرِّضَاعَةَ) بضم الياء من (يُكْمَل) ^(٣).

- وقرئ: (أَنْ يُتِمَّ)^(٤) برفع الميم، ونسبها النحويون إلى مجاهد، وقد جاز رفع الفعل

بعد أن في كلام العرب في الشعر، قال الشاعر:

أَنْ تَقْرَأَ عَلَى أَسْمَاءَ وَيَحْكَمَا مَنِي السَّلَامِ وَأَنْ لَا تُبْلِغَا أَحَدًا^(٥).

(١) ينظر: الزجاج، إبراهيم بن السري، أبو إسحاق (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) معاني القرآن وإعرابه، ط ١، تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: دار الكتب، بيروت: (٣١٢/١)، والنحاس، إعراب القرآن، مرجع سابق: (٣١٦/١)، وابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عطية (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط ١، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان: (٣١١ / ١)، والقرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ط ١، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة: (١٠٩/٤).

(٢) ينظر: ابن خالويه، الحسين بن أحمد (د.ت) مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، الناشر: مكتبة المتنبّي، القاهرة: (٢٢).

(٣) ينظر: ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، مرجع سابق: (٢٢).

(٤) المصدر السابق: (٢٢).

(٥) عند البصريين هي الناصبة للفعل المضارع، وترك إعمالها حملاً على أختها - ما، التي: بمعنى الذي - في كون كل منهما مصدرية، وأما الكوفيين فهي عندهم المخففة، من الثقيلة، وشدّ وقوعها موقع الناصبة، وفي هذه القاعدة تفصيل يطول شرحه هنا، أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) البحر المحیط، ط ١، دراسة وتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان: (٢٢٣/٢).

الشاهد في (تقرآن)، حيث رفع الفعل بإثبات النون وكان حقه النصب بـ (أن)، وترك إعمالها حملاً على (ما) أختها في كون كل منهما مصدرية، والظاهر أنه مختص بضرورة الشعر، وهذا لا تبني عليه قاعدة^(٢).

وقيل: حمل (أن) المصدرية على (ما) أختها في الإهمال، كما حُمِلت أختها عليها في الإعمال كما في قوله ﷺ: "كَيْفَمَا تَكُونُوا يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ"^(٣).

وقيل: "أن(يتموا) بضمير الجمع، باعتبار معنى (من) الموصول في (لمن أراد) وفيه معنى الجمع، وسقطت الواو في اللفظ لالتقاء الساكنين فتبعها الرسم"^(٤).

وبالنظر في آيات الرضاعة نجد أنها تقرر أن أقصى مدة الرضاعة الكاملة حولان كاملان، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فالمعنى أن أصل الرضاعة حولان كاملان، أي: تامان.

وقد جاءت القراءات في لفظة (يتم) مكملة لمقتضى أن تمام الرضاع حولين كاملين، فإتمام الرضاعة تكون ببلوغها الحولين كاملين، ولا مشكلة في اختلاف القراءات في لفظة (يتم) من حيث الدلالة على إكمال الرضاعة حولين كاملين، بل تؤكد ذلك أيضاً قراءة: (أَنْ يُكْمِلَ الرِّضَاعَةَ).

(١) البيت مجهول، نسبة البعض لجرير، والبعض للقاضي عياض، ولم أجد مرجعاً موثقاً يثبت ذلك، وهو في الخصائص، ينظر: ابن جني، عثمان بن جني، الموصلي(ت: ٣٩٢هـ) (د.ت) الخصائص، ط ٤، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب: (١/٣٩٠).

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٢/٢٢٣-٢٢٤).

(٣) القاضي، محمد بن سلامة بن جعفر بن علي(١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) مسند الشهاب، ط ٢، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت: (١/٣٣٦).

(٤) ينظر: الألوسي، محمود بن عبد الله(١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان: (٢/١٤٦).

ولكن صيغت الجملة على أنها خبر بمعنى الأمر، على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على جهة الندب والتخيير لبعضهن^(١).

واختلاف القراءة في (يتم) يتبعه الاختلاف في مرجع الضمير فيها: فمرجعه إما على الأب أو على الأم أو على الأبوين معا أو على الوارث أو على الرضاعة، وذلك الاختلاف يبين أن مدة الرضاعة تتعدد وفيها مراعاة للأحوال ومدخل لاجتهاد الأبوين أو المعني بالرضاع.

وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن أقصى مدة الإرضاع حولان، ولا يعتد به بعدهما ولا يعطى حكمه، وأنه يجوز أن ينقص منهما^(٢)، بمعنى أن أقل مدة الرضاعة غير محددة. قال قتادة والربيع بن أنس: " فرض الله على الوالدات أن يرضعن أولادهن حولين كاملين، ثم أنزل الرخصة والتخفيف بعد ذلك فقال: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أي: هذا منتهى الرضاع، وليس فيما دون ذلك وقت محدود، وإنما هو على مقدار صلاح الصبي وما يعيش به"^(٣).

وقد بين الزمخشري مورد هذا التخيير والرخصة، فقال: "فإن قلت كيف اتصل قوله (لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) بما قبله؟ قلت: هو بيان لمن توجه إليه الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ هَيْبَتٌ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، (لك) بيان للمهيت به، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع. وعن قتادة: حولين كاملين، ثم أنزل الله اليسر والتخفيف فقال:

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق: (١ / ٣١٠).

(٢) ينظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مرجع سابق: (١٤٦/٢).

(٣) التعلبي، أبو إسحاق أحمد التعلبي (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م) الكشف والبيان، المعروف بـ (تفسير التعلبي) ط ١، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان: (١٨١/٢).

لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُيَمِّمَ الرِّضَاعَةَ)، أراد أنه يجوز النقصان، وعن الحسن: ليس ذلك بوقت لا ينقص منه، بعد أن لا يكون في الفطام ضرر^(١).

ثانياً: القراءات في لفظة (الرضاعة): ودلالاتها التكاملية في بيان مدة الرضاعة:

قرأ الجمهور: ﴿أَنْ يُيَمِّمَ الرِّضَاعَةَ﴾، بالياء، من أتم، ونصب الرضاعة، مفعول به^(٢).
- وقرئ شاذةً (أن تيم الرضاعة)، بتائين الأولى منهما مفتوحة، وكسر الراء من الرضاعة، ورفع الرضاعة على أنها فاعل، وهي لغة كالحضارة والحضارة، والوكالة والوكالة، والدلالة. وهناك قراءة للفظ الرضاعة، بكسر الراء أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتِكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتِكُم مِّن الرِّضَاعَةِ﴾ [النساء: ٢٣] قرأ بها أبو حيوة^(٣)، وتخرج على تخريج نفس اللفظة في سورة البقرة.

- والبصريون يقولون: بفتح الراء مع الهاء: (الرضاعة)، وبكسرها دون الهاء (الرضاع).

. والكوفيون: يعكسون ذلك^(٤).

. وروي عن مجاهد أنه قرأ: (الرضعة)، على وزن القصة^(٥).

. وقرئ: (أن يكمل الرضاعة) " بفتح الراء والهاء من (الرضاعة)^(٦).

(١) الزمخشري، محمود بن عمر (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) الكشاف عن حقائق غموض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط ١، تحقيق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد عوض، الناشر: مكتبة العبيكان: (٤٥٥/١).

(٢) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، مرجع سابق: (٣١٢/١)، والنحاس، إعراب القرآن، مرجع سابق: (٣١٦/١)، والزمخشري، الكشاف، مرجع سابق: (٤٥٥/١).

(٣) ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق: (٣٢ / ٢).

(٤) ينظر: ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، مرجع سابق: (٢٢).

(٥) ينظر: المصدر السابق: (٢٢).

(٦) ينظر: أبو حيان، البحر المحیط، مرجع سابق: (٢٢٢/٢-٢٢٤).

. والرضاع في اللغة: من رَضِعَ: رَضِعَ الصَّبِيُّ وَغَيْرُهُ يَرْضَعُ، مِثْلُ: ضَرَبَ يَضْرِبُ، لُغَةٌ نَجْدِيَّةٌ، وَرَضِعَ، مِثْلُ: سَمِعَ، يَرْضَعُ رَضْعًا وَرَضْعًا وَرَضْعًا وَرَضْعًا، وَرَضَاعًا، وَرَضَاعَةً، وَرَضَاعَةً لُغَةٌ أُخْرَى^(١).

والمرضعة هي الفاعلة بالولد، ومنه: فلانُ المُسْتَرْضِعُ فِي بَنِي تَمِيمٍ، وَالرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ، وَالرَّضَاعَةُ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ: الْأَسْمُ مِنَ الْإِرْضَاعِ^(٢).
وقال ثعلب: إذا أدخل الهاء أراد الفعل وجعله نعتاً، وإذا لم يدخل الهاء أراد الاسم^(٣).

وقيل: "إن قُصِدَ حَقِيقَةُ الْوَصْفِ بِالْإِرْضَاعِ فَمَرْضِعٌ بِغَيْرِ هَاءٍ، وَإِنْ قُصِدَ مَجَازُ الْوَصْفِ: بِمَعْنَى أَنَّهَا مَحَلُّ الْإِرْضَاعِ فَيَمَّا كَانَ أَوْ سَيَكُونُ، فَبِالْهَاءِ"^(٤).
وَرَضِعَ الصَّبِيُّ رَضْعًا، مِنْ بَابِ تَعَبٍ فِي لُغَةِ نَجْدٍ، وَرَضِعَ رَضْعًا مِنْ بَابِ ضَرَبٍ، لُغَةٌ لِأَهْلِ تَهَامَةَ، وَأَهْلُ مَكَّةَ يَتَكَلَّمُونَ بِهَا، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: أَصْلُ الْمَصْدَرِ مِنْ هَذِهِ اللَّغَةِ كَسْرُ الضَّادِ، وَإِنَّمَا السَّكُونُ تَخْفِيفٌ، مِثْلُ: الْحَلْفِ وَالْحَلْفِ، وَرَضِعَ يَرْضَعُ بِفَتْحَتَيْنِ لُغَةٌ ثَالِثَةٌ، رَضَاعًا وَرَضَاعَةً بِفَتْحِ الرَّاءِ..^(٥).

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق: (١٦٦٠/٣-١٦٦١)، والفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (١٣٠١هـ) القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للطبعة الأميرية: (٢٩/٣).

(٢) ينظر: المصدران السابقان: (١٦٦٠/٣-١٦٦١)، (٢٩/٣).

(٣) ينظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، مرجع سابق: (٣١٢/١) وينظر: ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق: (١٦٦٠/٣-١٦٦١)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق: (٢٩/٣، ١٦٦).

(٤) ينظر: الفيومي، أحمد بن محمد بن علي (١٩٨٧م) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تحقيق: د/ خضر الجواد، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان: (٨٧)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق: (٢٩/٣).

(٥) ينظر: الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مرجع سابق: (٨٧)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق: (٢٩/٣).

وبالنظر في القراءات في لفظة: (الرضاعة) نجد أنها تؤكد ما قرره القراءات في (يتم) من مدة الرضاع، وأن أقصاه حولان ولا حد لأقله، فمن خلال اختلاف أقوال الموجهين واللغويين نجد أن لفظة (الرضاعة) قد استعملت في أكثر من صيغة، ودلت على أكثر من دلالة؛ فجاءت فاعل، ومفعول واسم ومصدر وصفة، ومن العلماء من فرق بين تلك الصيغ ومنهم من جعلها بمعنى واحد.

وعليه فقد قال البعض بأن لفظة (الرضاعة) قد استعملت حقيقة ومجازاً، وبالتالي يفرق بين مدلوليه في الحالين؛ حيث قد يطلق على الرضاعة في المدة المحدودة أو في غيرها، والأصل أن ما تعدى الحولين ليس برضاع حقيقي، وكذلك يحتمل أن يراد به الرضاعة التي يكون فيها غذاء للطفل ونمو جسمه، وقد يحتمل أن يراد به الحضانة مع الرضاعة أو من غير رضاعة؛ إذ إن رضاعة الطفل قد لا تقتصر على ما يُغنيه من الجوع والعطش، بل إن حنان الأم وعطفها هي أو من يقوم مقامها أمر لازم للطفل^(١)، وأيضاً قد تقع الدلالة بها على نوع الرضاعة، وهي ما تكون محرمة للنكاح أو لا^(٢).

وهذا الاختلاف في قراءة لفظة (الرضاعة) يترتب عليه استيعاب أحوال الإرضاع التي قد تختلف عند الناس، وتحديد المدة القصوى للإرضاع وإتاحة الاجتهاد في تحديد أقل مدة الرضاع.

ثالثاً: القراءات في لفظة (فصاله) ودلالاتها التكاملية في بيان مدة الرضاعة:

وردت قراءات في قوله: (وفصاله) من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي سَامِيٍّ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ [القمان: ١٤]، ومن

(١) ينظر: الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، مفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي، المشهور بالتفسير الكبير) ط ١، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان: (١٢٥٦-١٢٦٦).

(٢) ينظر: الطبري، محمد بن جرير (د.ت) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية: (٢٠٧/٤).

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ففي قوله: (وفصاله) قراءتان:

. قرأ الجمهور: (وفصاله)؛ وذلك أنها مفاعلة من اثنين، كأنه فاصل أمه وفصلته.
- وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري ويعقوب: (وفصله)،
كأن الأم هي التي فصلته^(١).

وقد جاءت القراءات في: (فصاله) لتؤكد الدلالة على مدة الرضاعة، السابقة في القراءات في المواضع السابقة، ففي قراءة (فصاله) مفاعلة من اثنين، كأن الطفل فاصل أمه وفصلته، أي هنا كان الفصال عن وفاء وتمام برضا واختيار من الجميع، وفي قراءة (وفصله)، كأن الأم هي التي فصلته لعارض ما، وقد يكون ذلك عن غير تمام الحولين. وقوله: (ثَلَاثُونَ شَهْرًا) يقتضي أن مدة الحمل والرضاع هذه المدة؛ لأن في القول حذف مضاف تقديره: ومدة حملة وفصاله، وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصا، وذلك إما بأن تلد المرأة لستة أشهر وترضع عامين ويفاصل الولد الرضاعة، وإما بأن تلد لتسعة على العرف وترضع عامين غير ربع العام وتفصل الأم الولد عن الرضاع، فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع، وبالعكس. وأشار بـ«الفصال» إلى تعديد مدة الرضاع فعبّر عنه بغايته، وإكمال العامين هو لمن أراد أن يتم الرضاعة^(٢).

وقال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى توقيت الفصال بالعامين؟ قلت المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز، والأمر فيما دون العامين موكول إلى

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق: (٤ / ٣٤٩)، (٥ / ٩٧).

(٢) ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق: (٤ / ٣٤٩)، (٥ / ٩٧).

اجتهاد الأم: إن علمت أنه يقوى على الفطام فلها أن تقطمه. ويدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] (١).

فهذه القراءات كلها فيها تكامل في بيان مدة الرضاعة القصوى، وفي عدم تحديد أقل مدة للرضاعة، وفي جعل تحديد ذلك راجع لاجتهاد الأبوين أو المعنيين به أو لاختلاف الأحوال من خلال التشاور. وفي هذا بيان لسعة التشريع الإسلامي وسماحته ورفع الحرج عن الناس في حياتهم..

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق: (٣/ ٤٩٥).

المبحث الثالث:

تكاثر القراءات وآثاره الدلالية في بيان حكم الرضاع ومسئوليته

هناك قراءات مختلفة في الآيات التي تتحدث عن الرضاع، في قوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً أَنْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وهذه القراءات تتكامل في بيان حكم الرضاع ومن هو المعني به، من حيث الرعاية وطلب الإتمام ودفع الأجرة، وفي بيان الأحوال المختلفة التي تصاحب عملية الإرضاع وما يترتب عليها من أمور متعلقة بها. وبيان ذلك كما يلي:

أولاً: القراءات في: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ ودلالاتها التكاملية في بيان حكم الرضاع ومسئوليته:

وردت في قوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] عدة قراءات، كما قد ذكرتها في المبحث السابق، ولن أكررها هنا، ولكني سأبين دلالاتها التكاملية في بيان المعني بالإرضاع والأحوال المختلفة التي قد تصاحب الإرضاع.

- فعند استقراء القراءات الواردة والمعاني المترتبة على قراءة لفظة (يتم) نجد أن القراءات قد تكاملت معانيها بشكل ملحوظ، وكان لاختلافها أثر كبير في تفصيل المعنى والإشارة إلى التفاصيل الكثيرة المترتبة على ما يكون بين الوالدين من خلاف؛ فالضمير في (يُتِمُّ) قد اختلف باختلاف القراءة على وجوه عديدة:

أحدها: (يُتِمُّ) يعود الضمير فيها على الوالد الذي هو معنيّ بدفع الأجرة للأم، أو لغيرها من المرضعات.

الثاني: (تَيْمُّ) فإن الضمير فيها عائد على الرضاعة وهي مرفوعة بالفعل (تَيْمُّ) والرضاعة فاعل، وفيه إشارة إلى أن الرضاعة واجبة على الأبوين كليهما، وهي حق للمولود، فإن عجزا عنها تَكَلَّفَهَا الوارث، فإن عجز فيتكَلَّفَهَا بيت لمال.

الثالث: (يُتِمُّ) والضمير فيها عائدٌ إلى الوالدين في حال الرضا، وإلى الوالد وحده، أو الوارث في حال التنازع.

الرابع: (يُكْمِلُ) بالإفراد، والضمير فيها عائدٌ على الوالد.

الخامس: (يُكْمِلُوا) بالجمع والضمير عائدٌ فيها، على الوالد أو الوارث، فإن لم يكن للوالد ولا الوارث مال، تحول إلى المرأة أو إلى بيت المال.

السادس: (تَيْمُّ) ونصب (الرضاعة) على المفعولية، وهذه وإن كانت جائزة لغة، إلا أنها ليست قراءة، والضمير فيها عائد إلى المرأة، وفيه دلالة على أن المرأة ليس لها الحق بالرضاعة إذا كان الأب معسراً وطالبت هي بأجرةٍ فوق ما يستطيع، فإن تراضيا فليس في ذلك حرج؛ لذلك لم ترد القراءة على هذا النحو مع جوازها قياساً^(١).

. وعند النظر إلى لفظة (الرضاعة) نجد أيضاً قرئت بأكثر من قراءة واستعملت بأكثر من صيغة، ومن العلماء من فرق بين تلك الصيغ^(٢) فاحتملت أحوالاً مختلفة، وصار لها أكثر من دلالة، واقتضت دلالاتها بيان متى تُسْتَحَقُّ الأجرة ومتى لا تُسْتَحَقُّ، ومتى تكون ندبا ومتى تكون واجبة.. وذلك تبعاً لحمل لفظة (الرضاعة) على الحقيقة والمجاز بحسب القراءات الواردة فيها.

قال الزمخشري: "الوالدات يرضعن حولين لمن أراد أن يتيم الرضاعة من الآباء، لأنّ الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظمراً إلا إذا تطوعت الأم

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق: (١/٤٤٧-٤٤٨).

(٢) ينظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، مرجع سابق: (١/٣١٢).

بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه. ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة رحمه الله ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح. وعند الشافعي يجوز. فإذا انقضت عدتها جاز بالاتفاق. فإن قلت: فما بال الوالدات مأمورات بأن يرضعن أولادهن؟ قلت: إما أن يكون أمراً على وجه الندب، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظفر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار^(١).

وقال الآلوسي: (أن يُمَّ الرضاعة) بيان للمتوجه إليه الحكم، فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة للأم، والأم ترضع له، وكون الرضاع واجباً على الأب لا ينافي أمرهن للندب؛ أو لأنه يجب عليهن أيضاً في الصورة السابقة^(٢).

فهذه الوجوه المحتملة للمعنى بالإرضاع، والأحوال المختلفة لترتيب المسؤوليات فيه، هي بعض ما أشار إليه اختلاف القراءات في (يتم الرضاعة).

ثانياً: القراءات في ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ﴾ ودلالاتها التكاملية في بيان حكم الرضاع

ومسئوليته:

وردت في ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] عدة قراءات، كما يلي:
قراءة الجمهور: (لا تُكَلِّف) على ما لم يسم فاعله، و(نفس) قائم مقام الفاعل، وهو الله تعالى.

وقرى: (لا تُكَلِّف) بفتح التاء^(٣)، أي: لا تتكلف، وارتفع (نفس) على الفاعلية، وحُذفت إحدى التائين تخفيفاً.

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق: (١/ ٤٥٦).

(٢) ينظر: الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مرجع سابق: (٢/ ١٤٦).

(٣) ينظر: ابن خالويه، مختصر شواذ القرآن من كتاب البديع، مرجع سابق: (٢١)، وابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق: (١/ ٣١٢) وأبو حيان، البحر المحیط، مرجع سابق: (٢/ ٢٢٥)، والسمين

- وروي عن أبي رجاء أنه قرأ: (لا تُكَلِّفُ نَفْسًا) بالنون^(١)، مُسْنِدًا الفعل إلى ضمير الله تعالى ونفساً بالنصب مفعول^(٢).

بالنظر إلى هذه القراءات المختلفة في قوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا﴾، نجد أن القراءات تكاملت في بيان حكم الإرضاع، وفي بيان بعض أحواله وملايساته، وبيان من هو المعني بالإرضاع:

فلفظة (تكلف) بينت أولاً أن الإرضاع تكليف شرعي وليس تطوعاً، وبالتالي حفظ حق الطفل من هذه الجهة، ثم إن قراءة الجمهور (لا تُكَلِّفُ نَفْسًا) فيها عموم يحتمل تشابه جميع الأحكام والتكاليف الشرعية؛ فالله هو المكلِّف، والمُكَلَّفُ هم جميع الأولياء، وعليه فطاعة الله في هذا الأمر كطاعته في غيره من التكاليف الشرعية. وقد أشار أبو حيان إلى عموم اللفظ في قراءة الجمهور ﴿لَا تُكَلِّفُ﴾ فأدخل تحت هذا اللفظ جميع المشار إليهم في الآية^(٣).

وكذلك قراءة (لا تُكَلِّفُ نَفْسًا) - بنون العظمة - تشير إلى هذا العموم من جهة، كما أضافت دلالة أن المختص بهذا التكليف هو الله سبحانه وتعالى، فأضفت على هذه الأحكام صفة التعظيم، من جهة، وظهر الامتتان من الله على عباده من جهة

الحلبي، أحمد بن يوسف (د.ت) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق، تحقيق: د/ أحمد محمد الخراط: (٤٦٦/٢).

(١) ينظر: ابن خالويه، مختصر شواذ القرآن من كتاب البدیع، مرجع سابق: (٢١)، أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٢٢٥/٢)، والسمين الحلبي، الدر المصون، مرجع سابق: (٤٦٦/٢).

(٢) ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٢٢٥/٢).

(٣) ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٢٢٥/٢)، والسمين الحلبي، الدر المصون، مرجع سابق: (٤٦٦/٢).

أخرى، وهو بالتخفيف عنهم بقوله (إلا وسعها)^(١). كما أن في هذه القراءة دلالة على عدم جواز تكليف الزوج ما لا يطيق، وكذلك عدم التقصير في حق المرأة. وأما قراءة: (لا تُكَلِّف) بفتح التاء، بمعنى: (لا تتكلف)، و(نفسن) فاعله، فإنها خطاب للنفس بأن لا تتكلف، فلا تُشَقُّ على نفسها بما لا تطيق.

وفي جمع معاني القراءات أثر ملحوظ في توسيع المعنى؛ لأن تنوع القراءات هنا، وتنوع الخطاب والمخاطب فيها يوحي بأن الجميع مشمولون بالخطاب، ملزمون باتباع أوامر الله، مأمورون بالمعروف عند الأداء فيما بينهم.

ثم إن القراءات -في العموم- بصيغة الإخبار أو النهي وفي ذلك إما تقرير لأحوال معينة أو زجر عن أحوال وأعمال، ومن هنا قال الزمخشري: في معنى "﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾" هو ألا يكلف واحد منهما الآخر ما ليس في وسعه ولا يتضاراً^(٢). أي: إنه ينبغي التعامل بتسامح وتساهل في أمر الرضاعة.

ثالثاً: القراءات في: ﴿مَا آتَيْتُم بِالْمَرْفُوفِ﴾ ودلالاتها التكاملية في بيان حكم الرضاع

ومسئوليته:

وردت في ﴿مَا آتَيْتُم﴾ [البقرة: ٢٣٣] عدة قراءات، كما يلي:
 - قرأ ابن كثير: (ما آتيتم) بالقصر، وتوجيه قراءة ابن كثير -ما آتيتم- أي: بمعنى جئتموه، وفعلتموه، يقال: أتى جميلاً، أي: فعله، وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١]، أي: كان مفعولاً،
 وقال زهير:

(١) ينظر: النحاس، إعراب القرآن، مرجع سابق: (٣١٦/١)، والزمخشري، الكشاف: (٤٥٦/١).

(٢) ينظر: الزمخشري، الكشاف: (٤٥٦/١)

فما يك من خيرٍ أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل^(١)

- وقرأ باقي السبعة: ﴿مَاءَ أَيْتِمٍ بِالمَعْرُوفِ﴾ بالمد، وتوجيه قراءة المد أن المعنى ما أعطيتم.

و(ءايتيم) بالمد وبالقصر، هما فعلاان ماضيان، ومعناه على المد: من الإعطاء، ووزنه: (أفعلتم)، دليله قوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءَ أَيْتِمٍ بِالمَعْرُوفِ﴾، والتسليم لا يكون إلا بالإعطاء. والحجة لمن قصر: أنه من المجيء، ووزنه: (فعلتم)، وفيه إضمار معناه: (به) فنابت عنه قوله: ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾^(٢).

قال ابن خالويه: "وكل ما في كتاب الله من (أتى) بالمد فمعناه: الإعطاء، وكل ما فيه من (أتى) بالقصر: فهو من المجيء، إلا قوله: ﴿فَأَنْتَهُمُ اللَّهُ مَنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢] ، أي: أخذهم، وقوله في قراءة لمجاهد: (آتيننا بها)^(٣) في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧] ، أي: جازينا بها، وقوله: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٢١١] ، أي: أريناهم"^(٤).

و(ما) على القراءتين موصولة بمعنى: الذي، والعائد عليه محذوف، والمعنى في: ﴿مَاءَ أَيْتِمٍ﴾، أي: ما أردتم إتيانه أو إيتاءه، ومعنى الآية -والله أعلم-: جواز الإرضاع للولد من غير أمه إذا أرادوا ذلك أو اتفقوا عليه، وسلموا إلى المراضع أجورهن

(١) ينظر: ابن خالويه، الحسين بن أحمد بن خالويه (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) الحجة في القراءات السبع، ط٣، تحقيق: د/ عبد العال سالم مكرم، الناشر: دار الشروق، بيروت: (٩٧)، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٢٢٨/٢). والبيت في ديوان زهير بن أبي سلمى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ط١، شرح: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: (٨٧).

(٢) ينظر: ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع: (٩٧)، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٢٢٨/٢).

(٣) ينظر: ابن خالويه، مختصر شواذ القرآن من كتاب البديع، مرجع سابق: (٩٥).

(٤) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع: (٩٧).

بالمعروف، فيكون ما سلمتم هو الأجرة على الاسترضاع، والمعنى مع القصر وكون (ما) بمعنى الذي: أن يكون الذي (ما آتيتم) نقده أو إعطائه^(١).

- وقرئ: (ما أوتيتم) مبنياً للمفعول، أي: ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة، ونحوها، ويتعلق: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِسَلَّمْتُمْ، أي: بالقول الجميل الذي تطيب به النفس، وبه يُعِين على تحسين نشأة الصبي^(٢).

بالنظر إلى هذه القراءات المختلفة في قوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ، نجد أن القراءات تتكامل فتؤثر في توسيع المعنى، وتؤكد كل قراءة معنى القراءة الأخرى؛ فقراءة المد (ما آتيتم) فيها حثٌ على تسليم الأجرة المتفق عليها بين الطرفين، في حين أن قراءة القصر (ما آتيتم) تحتل الحث، وتحتل أن يكون الدفع للأجرة عن رضی وبإحسان عند الأداء من الطرفين، إذ إن الأجرة قد تكون مالاً وقد تكون أشياء معنوية، فجاءت القراءة لتؤكد القراءة الأولى، وكذلك أشارت إلى الجانب المعنوي - المقصود به - الحسن في التعامل^(٣).

وأما قراءة: (ما أوتيتم) ففيها إشارة إلى أن هذه الأموال، إنما هي لله وحده وهو أعطاهم إياه، وهو أمرهم بأداء ما عليهم فيها من أجرة الوالدة أو المرضع عموماً، وكذلك فهي تحتل معنى القراءتين الأوليين، فإن المال وإن كان مال الله الذي آتاهم إلا أنهم أمروا بدفع بعض هذا المال والإحسان في أدائه، وقد ذكر الزمخشري هذا وقال: "وليس التسليم بشرط للجواز والصحة، وإنما هو ندب إلى الأولى، ويجوز أن يكون باعناً على أن يكون الشيء الذي تُعطاه المرضع من أهني ما يكون، لتكون طيبة النفس

(١) أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٢٢٩/٢).

(٢) المصدر السابق: (٢٢٩/٢).

(٣) أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٣١٣/١).

راضية، فيعود ذلك إصلاحاً لشأن الصبي واحتياطاً في أمره، فأمرنا بإيتائه ناجزاً يداً بيد، كأنه قيل: إذا أدبتم إليهن يداً بيد ما أعطيتموهن، و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق ب﴿سَلَّمْتُمْ﴾، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه، ناطقين بالقول الجميل، مُطَبِّين لأنفس المراضع بما أمكن، حتى يُؤْمَنَ تفريطهن بقطع معاذيرهن" (١).

وقيل أيضاً أن المعنى: "إذا سَلَّمْتُمْ ما أتيتم من إرادة الاسترضاع، أي: سلّم كل واحد من الأبوين ورضي - أي عن الفعل الذي قام به-، وكان ذلك عن اتفاق منهما، وقصد كل واحد منهما خيراً وإرادة معروفٍ من الأمر، وعلى هذا الاحتمال يدخل في الخطاب ب﴿سَلَّمْتُمْ﴾ الرجال والنساء" (٢).

وعليه نجد أن القراءات في المواضع السابقة تكاملت في بيان حكم الرضاع وفي بيان المسؤوليات في عملية الرضاع، وفي بيان الأحوال التي ينبغي أن يتم فيها إرضاع الطفل وكيف يحفظ حقه فيه، ومن هو المعني بالإرضاع وبرعاية الطفل وقت الإرضاع، وكيف يكون التعامل بين المعنيين به أو أطرافه..
فالقراءات هنا أعطت هذه الدلالات التكاملية لكل تلك الأمور والملابسات.

(١) الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق: (٤٥٧/١-٤٥٨).

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز، مرجع سابق: (٣١٣/١).

المبحث الرابع:

تكاوم القراءات وآثاره الدلالية في بيان آثار المضارة في الرضاع

تتكاوم القراءات في بيان حكم المضارة التي قد تحدث بشأن الرضاع، وكيف يجب تجاوز تلك الحالة الأنانية التي قد تقع بين الأطراف المعنية بالرضاع، وما هي الإرشادات الخاصة بذلك، ويمكن أن نجد ذلك في أكثر من موضع من آية الرضاع في سورة البقرة، كما يلي:

أولاً: القراءات في ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ودلالاتها التكاومية في بيان آثار

المضارة:

ذكرت القراءات الواردة في: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ﴾ في مبحث سابق، وهنا نأخذ دلالاتها في شأن المضارة في الرضاع؛ وذلك أن القراءات في (لا تُكَلِّفُ) إما على النهي وإما على الخبر المنفي، وعلى الصورتين نجد أن الجملة فيها دلالات على أن التكليف الرباني فيه لطف بالناس؛ إذ أن الله لا يكلف بما لا يستطيع، ولا يشق به على العباد، وينبغي على الناس أن يتعاملوا في عموم شؤونهم وفي شأن الرضاع خاصة -لأن السياق فيه- بتسامح ومن غير أن يشق أحدهم على الأطراف الأخرى أو يضارهم بتصرفاته وأفعاله، وقد ذكر الزمخشري أن قوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ...﴾ [البقرة: ٢٣٣] هو تفسير للمعروف في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣] الذي يسبقه في نفس الآية، قال: "وهو ألا يكلف واحد منهما الآخر ما ليس في وسعه ولا يتضاراً"^(١). أي ينبغي تعامل الزوجين أو المعنيين بالرضاع بتسامح وتساهل من غير مشقة ولا مضارة.

(١) ينظر: الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق: (١/٤٥٦).

وقال ابن عاشور: "موقع جملة (لا تكلف نفس إلا وسعها) تعليل لقوله بالمعروف، وموقع جملة (لا تضار الدة) إلى آخرها موقع التعليل أيضاً، وهو اعتراض يفيد أصولاً عظيمة للتشريع ونظام الاجتماع"^(١).

إذا فالقراءات في (لا تكلف) تتعاقد مع القراءات في (لا تضار) وتقوي بعضها في شأن الزجر عن المضارة.

ثانياً: القراءات في: ﴿لَا تُضَارُّ وَوَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ ودلالاتها التكاملية في بيان آثار

المضارة:

. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبان عن عاصم، (لا تُضَارُّ) بالرفع^(٢)، أي: برفع الراء المشددة، حبراً، وهذه القراءة مناسبة لما قبلها من قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، قال الكسائي والفاء: "إن (لا تضارُّ) نسقٌ على قوله: (لا يُكَلِّفُ)"^(٣).

وقال آخرون: "هو عطف جملة خبرية على خبرية مثلها من حيث اللفظ، وإلاً فالأولى خبرية لفظاً ومعنى، وهذه خبرية لفظاً نهيية معنى ويدل عليه قراءة الباقي"^(٤).
وقيل: "إن رفع (لا تضارُّ) إنما هو على الاستئناف في النهي، والنصب على النهي"^(٥).

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) (١٩٨٤هـ) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس: (٤٣٢ / ٢).

(٢) واختلف عن أبي جعفر في (تضارُّ) بسكون الراء وتخفيفها، وفتح الراء وتشديدها، ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق: (٢٢٧/٢-٢٢٨).

(٣) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق: (٤٦٢ / ٦).

(٤) ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٢٢٥/٢).

(٥) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق: (٤٦٢ / ٦).

- وقرأ باقي السبعة^(١): ﴿لَا تُضَاكَّرُ﴾ بفتح الراء^(٢)، جعلوه نهياً، وسكنت الراء الأخيرة للجزم، وسكنت الراء الأولى للإدغام، فالتقى ساكنان فحرك الأخير منهما بالفتح لموافقة الألف التي قبل الراء لتجانس الألف والفتحة^(٣).

- وقرئ: (لا يُضَارُّ) بكسر الراء المشددة على النهي، وقرأ أبو جعفر الصَّفَّار - النحاس - بالسكون مع التشديد، أجرى الوصل مجرى الوقف، وروي عنه: (لا تُضَاكَّرُ) بإسكان الراء وتخفيفها، وهي قراءة الأعرج، من ضار يضير، وهو مرفوع أجرى الوصل فيه مجرى الوقف، وروي عن ابن عباس: (لا تضارُّ) بفك الإدغام وكسر الراء الأولى وسكون الثانية، وقرأ ابن مسعود: (لا تضارُّ) بفك الإدغام وفتح الراء الأولى وسكون الثانية، وروي أبان عن عاصم، والإظهار في نحو هذين المثليين لغة الحجاز^(٤).

وبالنظر في هذه القراءات المختلفة نجد أن اختلافها أعطى عددا من الدلالات التكاملية في بيان أحوال المضارة في عملية الرضاع وصورها وملابساتها: فبيّنت القراءات الجهة المحتمل صدور المضارة منها والجهة التي قد تقع عليها المضارة أيضاً: فمن قرأ بتشديد الراء مرفوعة أو مفتوحة أو مكسورة تحتمل قراءته أن يكون الفعل مبنياً للفاعل وأن يكون مبنياً للمفعول، كما في قراءة ابن عباس وفي قراءة ابن مسعود، ويكون ارتفاع (والدة) و(مولوداً له) على الفاعلية إن قُدِّرَ الفعل مبنياً للفاعل، وعلى المفعولية إن قُدِّرَ الفعل مبنياً للمفعول، وهذا الاختلاف في تقدير الفاعل

(١) وهم: نافع وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي، ومن العشرة: خلف العاشر، ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق: (٢٢٧/٢-٢٢٨).

(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق: (٢٢٧/٢-٢٢٨).

(٣) ينظر: ابن خالويه، مختصر شواذ القرآن، مرجع سابق: (٢١-٢٢)، وأبو حيان، البحر المحیط، مرجع سابق: (٢٢٥/٢).

(٤) المرجعان السابقان نفس المواضع: (٢١-٢٢)، (٢٢٥/٢).

والمفعول أتاح لنا التوسع في الجهة التي تقع منها المضارة والجهة التي تقع عليها المضارة؛ فقد تكون الزوجة مضارة وقد تكون مضرورة وهكذا الزوج، والولد أيضا قد تقع عليه المضارة من أبويه أو من أحدهما، فإذا قدّرنا الفعل للفاعل فالمفعول محذوف تقديره: لا تُضارِرُ والدة زوجها بأن تطالبه بما لا يقدر عليه من رزق وكسوة، وغير ذلك من وجوه الضرر، ولا يضارر مولود له زوجته بمنعها ما وجب لها من رزق وكسوة، وأخذ ولدها مع إثارة إرضاعه، وغير ذلك من وجوه الضرر، والباء في: ﴿يَوْلَدُهَا﴾، وفي ﴿يَوْلَدِهِ﴾ باء السبب، وهو الظاهر، ويبين ذلك قراءة من قرأ (لا تضارِر) براءين الأولى مفتوحة، وهي قراءة عمر بن الخطاب^(١).

وقيل: "يجوز أن يكون يضار بمعنى: تضر، وأن تكون الباء من صلته: فيكون المعنى: لا تضر والدة بولدها فلا تُسيءُ غذاءه وتعهده، ولا تُفْرِطَ فيما ينبغي له، ولا تدفعه إلى الأب بعدما ألفها، ولا يضُرُّ الوالد به بأن ينزعه من يدها، أو يقصر في حقها فتُقصِرُ في حق الولد"^(٢).

. وساهمت القراءات من خلال اختلاف بناء الفعل للفاعل أو المفعول في تفصيل نوع الضرر الحاصل.

. وكان لتعدد القراءات أثر كبير في تحويل سياق الآية من العموم إلى الخصوص؛ لأن قراءة (لا تضارِر) بتشديد الراء وبضمه أو فتحه، و(يضارِر) بكسره، حملها كثير من المفسرين على عموم النهي، في حين أن قراءة فك الراء وكسرها أو فتحها مع سكون ثانيها جاءت بتخصيص هذا النهي بأحد الوالدين، وتحميله المسؤولية دون الآخر رفعا للضرر الحاصل من أحدهما.

(١) أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٢٢٥/٢-٢٢٦).

(٢) الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق: (٤٥٦/١-٤٥٧).

- وأيضاً تعدد القراءات أكد بعض المعاني التي أشار إليها السياق العام للآية: فقراءة تشديد الراء وبناءه للفاعل أو المفعول جاءت قراءة فك الراء وفتحته لتوكيد المشدد المفتوح، وقراءة الفك مع الكسر تؤكد قراءة التشديد مع الكسر، وجميع هذه الوجوه الأربعة تؤكد وجه القراءة بتشديد الراء وضمها، لعموم اللفظ فيها؛ لأن الحكم فيها جاء على الإخبار^(١) باحتمال وقوع الضرر من الوالدة، أو وليها، أو من المولود له على سواء .

- وبينت القراءات المختلفة أيضاً أن الرضاع أمر فطري ضروري، ينبغي أن تراعي فيه الأم الفطرة وتتجنب المضارة، فقراءة: (لا تُضارُ) على إفادة الخبر، وأنه معنى تكويني -خُلقي، فطري- إذ ليس من شأن المرأة أن تضار زوجها الذي طلقها بأن تغالي عليه في أجر الرضاع؛ لأن في ذلك ضرراً يلحقها أيضاً، حيث إنه يجوز للمولود له أن يستأجر غيرها، فتحرم من حقها في الأمومة، وكذلك فإن الضرر يلحق بالرضيع أيضاً، ولا يُتصوّر في الأم الرؤوم أن تسعى إلى الإضرار بولدها أو بنفسها ابتغاء المال.

- وبينت القراءات أن ترك المضارة تكليف، فالقراءة بفتح الراء مشددة (لا تُضارُ) على النهي، وأصلها براءين (لا تضارر) بفك الراء المشدد وبكسر الأولى أو فتحها^(٢)، على هذا الوجه الآية اشتملت على حكم تكليفي، وكذلك القراءة بضم الراء تشتمل

(١) ينظر: حبش، محمد حبش (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية، ط١، دار الفكر، دمشق: (٢٨٦-٢٨٧).

(٢) ينظر: ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، مرجع سابق: (٩٧)، وأبو علي الفارسي، الحسن بن عبد الغفار (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد، ط١، إعداد: عبد العزيز رباح، الناشر: دار المأمون للتراث، بيروت: (٢/٣٣٣-٣٣٤)، وابن زنجلة، حجة القراءات، مرجع سابق: (١٣٦)، وأبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق: (٢/٢٢٥-٢٢٦).

على معنى التكليف أيضاً، وقد ورد في القرآن العظيم كثير من الأساليب الخبرية مشتملة على أحكام تكليفية إضافة إلى ما يفيد الخبر التكويني^(١).

- كما أن النهي عن المضارة وارداً في كل القراءات المتواترة والشاذة في هذا الموضوع، وغاية ما هنالك أنه في قراءة النصب نهى محض، وفي قراءة الرفع خبر أفاد معنى النهي، وهذا المعنى تتحد به القراءتان، غير أن قراءة الرفع تضيف معنى جديداً، وهو إثارة الباعث الإنساني لدى المرأة التي قد تدفعها تداعيات أزمة الطلاق إلى إيذاء نفسها وولدها مضارة بالزوج، فأرشدت الآية إلى أن هذا ليس شأن المرأة المسلمة العاقلة الصالحة.

وكما يظهر فإنه ليس بين القراءات في شأن المضارة في الآية أي تعارض، بل تتكامل فيها المعاني للدلالة على مقاصد شرعية بدیعة في القضية؛ فوسعت مدلولها، وبينت صورها، وأساليبها وبواعثها، وأكدت على الزجر عنها بطرق متنوعة..

(١) ينظر: حبش، القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية، مرجع سابق: (٢٨٦-٢٨٧).

الخاتمة

أهم النتائج والتوصيات

الحمد لله الذي بفضلِه ومَنّه تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد رحلة مائة في ظلال آيات القرآن الكريم وتوجيهاته الجليلة، الهادفة إلى تقويم العلاقات الاجتماعية والأسرية عموماً، وما له علاقة بالرضاع وما جاء فيه من تكامل معاني القراءات فيه خصوصاً، وقبل أن تضع الباحثة قلمها وتطوي صفحات هذا البحث، الذي ترتجي من الله جل جلاله الأجر عليه والثواب والمنفعة في الدنيا والآخرة، أحببت أن تدوّن أبرز ما توصلت إليه من النتائج والتوصيات، وهي كالتالي:

أولاً: النتائج:

١. كان لتكامل القراءات صوراً عديدة قد تتداخل في مواضع وتنفرد في مواضع أخرى، فتؤثر في توسيع المعنى، وفي تأكيد بعضها البعض، وفي تفصيل الأحكام الفقهية تفصيلاً دقيقاً، وفي حمل بعض وجوه القراءات على العموم والخصوص، وعلى الإطلاق والتقييد.
٢. القراءات أصل من أصول الاحتجاج، ويمكن أن يُحتج بوجوه القراءات في الآية الواحدة لعدة أحكام من غير تعارض بينها ولا تناقض.
٣. القراءات تكاملت في بيان حكم الرضاع وفي بيان المسؤوليات في عملية الرضاع، وفي بيان الأحوال التي ينبغي أن يتم فيها إرضاع الطفل وكيف يحفظ حقه فيه، ومن هو المعني بالإرضاع، وبرعاية الطفل وقت الإرضاع، وكيف يكون التعامل بين المعنيين به أو أطرافه..
٤. للقراءات الشاذة دور كبير وملحوظ في توضيح كثير من المعاني وفي تفصيل بعض الأحكام التي جاءت بها القراءات المتواترة، من غير تناقض بينهما.

٥. تكاملت معاني القراءات في (يتم) و(يرضعن)، و(الرضاعة)، و(فصاله)، و(لا تضار)، فشملت جميع أحكام الرضاعة التي تناولها الفقهاء وأصلت لها، وكان هذا التكامل على ثلاث صور رئيسية، الأولى: تكامل القراءات في الموضوع الواحد في اللفظ الواحد، والثانية: تكامل معاني القراءات ودلالات في جميع المواضيع مع بعضها البعض، والثالثة: تكامل معاني القراءات مع مقاصد الآيات المعنية بالحياة الأسرية بصورة عامة.

ثانياً: التوصيات:

توصي الباحثة بإجراء دراسة تكميلية لهذا البحث، وهي بعنوان: أنواع وصور تكامل القراءات.

كما توصي الباحثة بإجراء دراسات أخرى متوسعة في نفس اتجاه هذا البحث، وتلك الدراسات يمكن أن تكون تحت العناوين التالية:

- ١) آيات الأحكام عند المفسرين والفقهاء في ضوء اختلاف القراءات.
- ٢) أثر اختلاف القراءات المتواترة والشاذة في التفسير والأحكام.
- ٣) أثر اختلاف القراءات في الإعجاز التشريعي، والإعجاز البلاغي.
- ٤) طرق تناول القراءات القرآنية للخلافات الأسرية وطرق علاجها.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن الجزري(ت:٨٣٣هـ) النشر في القراءات العشر، تحقيق: الشيخ/ علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٣. ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن الجزري(ت:٨٣٣هـ) مُنجد المقرئين ومرشد الطالبين (د.ت) اعتنى به علي بن محمد العمران.
٤. ابن جني، عثمان بن جني، الموصلي (ت: ٣٩٢هـ) (د.ت) الخصائص، ط ٤، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥. ابن خالويه، الحسين بن أحمد بن خالويه(١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) الحجة في القراءات السبع، ط ٣، تحقيق: د/ عبد العال سالم مكرم، الناشر: دار الشروق، بيروت.
٦. ابن خالويه، الحسين بن أحمد(د.ت) مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، الناشر: مكتبة المتنبّي، القاهرة.
٧. ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد، أبو زرة(١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) حجة القراءات، ط ٥، تحقيق: سعد الأفغاني، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.
٨. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت: ١٣٩٣هـ) (١٩٨٤هـ) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس.
٩. ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عطية(١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط ١، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١٠. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم(د.ت) لسان العرب، طبعة جديدة محققة ومشكولة شكلاً كاملاً ومذيلة بفهارس مفصلة، دار المعارف، القاهرة. مصر.
١١. أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي(١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) البحر المحيظ، ط ١، دراسة وتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٢. أبو علي الفارسي، الحسن بن عبد الغفار (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد، ط١، إعداد: عبد العزيز رباح، الناشر: دار المأمون للتراث، بيروت.
١٣. الألوسي، محمود بن عبد الله (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت. لبنان.
١٤. البنا، أحمد بن محمد (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، المسمى: (منتهي الأماني والمسرات في علوم القراءات)، ط١، تحقيق: د/ شعبان محمد إسماعيل، الناشر: عالم الكتب، بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
١٥. الثعلبي، أبو إسحاق أحمد الثعلبي (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م) الكشف والبيان، المعروف بـ (تفسير الثعلبي) ط١، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٦. حبش، محمد حبش (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية، ط١، دار الفكر، دمشق.
١٧. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (١٩٨٩م)، مختار الصحاح، طبعة مُدققة كاملة التشكيل، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان.
١٨. الزجاج، إبراهيم بن السري، أبو إسحاق (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) معاني القرآن وإعرابه، ط١، تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: دار الكتب، بيروت.
١٩. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (د.ت) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة. مصر.
٢٠. الزمخشري، محمود بن عمر (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) الكشف عن حقائق غموض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، تحقيق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد عوض، الناشر: مكتبة العبيكان.
٢١. زهير، زهير بن أبي سلمى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ديوان زهير، ط١، شرح: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٢٢. السبكي، علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن حامد بن يحيى (ت: ٧٨٥هـ) (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، الإبهاج في شرح المنهاج (منهاج الوصول إلي علم الأصول، للبيضاوي)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٣. السمين الحلبي، أحمد بن يوسف(د.ت) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق، تحقيق: د/ أحمد محمد الخراط.
٢٤. الطبري، محمد بن جرير(د.ت) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية.
٢٥. الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين(١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، مفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي، المشهور بالتفسير الكبير) ط١، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
٢٦. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب(١٣٠١هـ) القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للطبعة الأميرية.
٢٧. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي(١٩٨٧م) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تحقيق: د/ خضر الجواد، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان.
٢٨. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر(١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ط١، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة.
٢٩. القسطلاني، أحمد بن أبي بكر(د.ت) لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق وتعليق: الشيخ/ عامر السيد عثمان، ود/ عبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة. مصر.
٣٠. القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر بن علي، المصري(١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) مسند الشهاب، ط٢، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣١. مرتضى الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض(د.ت) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
٣٢. النحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل(١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) إعراب القرآن، ط٢، تحقيق: د/ زهير غازي زاهد، عالم الكتب.